الصابئة المندائيون

الوجود والموروث

الكتاب: الصابئة المندائيون - الوجود والموروث
المؤلف: أ. د. قيس مغشغش السعدي
التصنيف: تاريخ
تصميم الغلاف: محمد رياض
التصميم الداخلي للكتاب: مؤسسة أبجد
ISBN:978-9922-715-46-9

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
Ebjed for Translation, Publishing & Distribution

الطبعة الأولى
2024
مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
جوال: 009647831010190
info@ebjed.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميا وإتاحته عبر شبكة الانترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر.

تاريخ

الصابئة المندائيون
الوجود والموروث

أ. د. قيس مغشغش السعدي

مقدمة

يسعى الحاضر دائما للوقوف على ما دار في الماضي ومعرفة طبيعته على اختلاف هذه المعرفة. والمعرفة الإنثروبولوجية واحدة من أبرز هذه المعارف خاصة في بلاد مثل بلاد ما بين النهرين حيث ظهرت أول الحضارات وأرقاها. وإذا كانت بعض المعرفة التي تتعلق بالماضي يمكن الوقوف عليها من خلال المخلفات البشرية والحضارية التي تركها الإنسان الأول حسب مراحل عيشه ووجوده، فإن التعامل مع الإنسان الحي الذي يمتد جذره في عمق الزمن يكون مثيراً حقا. هذا ما توفره لنا معرفة الصابئة المندائيين بوصفها مجموعة بشرية عاشت في العراق منذ مراحل بعيدة وغير محددة وظلوا يحملون بعراقيتهم إرثاً متنوعاً هو من صميم طبيعة هذا البلد وثقافته؛ فهم إشارة التوحيد الذي بدأ في العراق بما تتضمنه نصوص ديانتهم، وهم طقس الماء الذي يجري نهرين في أرضه حد اعتبار مائهما مباركاً، وهم طينه الذي ما زال مادة عمل أدواتهم الطقسية وبناء بيت العبادة الأول، وهم إكرام النخلة شجرة مباركة يماثلونها بالذكورة، وهم الأدب البابلي الذي ظلوا محافظين على صيغ كتابته في نصوص كتبهم، وهم الذين يحفظ قاموس لغتهم المئات من المفردات التي ما زالت لصق اللسان العراقي وأبرزها

مفردة (أكو)،(ماكو) ومفردة (الچا)، وهم طيبة الإنسان الودود المسالم الذي ليس له طمع غير العيش بسلام ومحبة مع الجميع.
ومع كل التقلبات التي مر بها العراق، يستغرب الكثيرون بقاء الصابئة المندائيين على الرغم من أن ديانتهم غير تبشيرية وأن أعدادهم قليلة. وهم يرون أن هذا البقاء هو رعاية وحماية من الرب العلي. ونرى أن مسالمتهم والتسامح الديني في وطنهم على اختلاف درجاته كان سبباً في هذا البقاء ليظلوا إشارة الزمن السحيق في كل ما يملكون، وعلامة من علامات حرصهم على بقائهم، ومجاراة الآخر من أجل البقاء.
وما يؤسف له أن الانغلاق الذي أجبروا عليه لأسباب أنواع الاضطرابات والصراعات التي مر بها العراق أدى إلى وقف المعرفة عندهم ووقف وصولها للآخرين ليتم التعريف بهم فتزداد المعرفة عنهم، بما يبعد الظنون والشكوك عنهم وعن ديانتهم وتوحيدهم.
لقد ولّد الجهل بهم معاناة لدى الأبناء وحاجة لدى جميع المنفتحين من أبناء الشعب العراقي وغيره لمعرفة الكثير عن هذه الديانة الرافدينية القديمة وهذا يتطلب مساهمتهم هم والمنصفين والمعنيين بمثل هذه المباحث والدراسات التعريفية بشكل موضوعي. كما أن الحاجة للتوثيق تعد أساس اليوم للوقوف على ما لدى هذه الجماعة الدينية القديمة من موروث مازال معتمداً إلى

اليوم كما كان دونما تغيير كبير وكأن الزمن عندهم توقف في نصها وطقسها.

ويأتي هذا المشروع الذي تدعمه جامعة برمنكهام ليسهم في جانب من توثيق الإرث غير المادي للصابئة المندائيين في العراق ويشمل جوانب من المعرفة والتوثيق مبنية على مصادرها الأصلية من أبناء المجموعة الدينية ذاتها من كان منهم في وطنهم الأساس العراق أو من غادر منه إلى بلدان المهجر.

نأمل أن تتحقق فيه الفائدة المرجوة.

الفصل الأول

الصابئة المندائيون، التعريف والذكر

من هم الصابئة المندائيون؟

الصابئة المندائيون هم من سكان بلاد النهرين الأصليين ومكون أساس من مكونات الشعب العراقي، امتد وجودهم إلى مناطق أخرى في فلسطين وحران وبقي العراق وطنهم الأساس منذ القدم. ولهم وجود ممتد وباق في الجنوب الغربي من إيران أيضاً.

هم أصحاب عقيدة دينية، فلا تشير تسميتهم إلى عرق إثني خاص أو قومية معينة بل إن قوميتهم عراقية أصيلة. عاشوا في وطنهم مسالمين متحابين مع جميع مكونات شعبه، وكان وما زال لهم دور كبير في بناء حضاراته من خلال مشاركاتهم في هندسة الري وشق الترع للزراعة وفي التعليم والهندسة والطب والمهن الحرفية. وقد كسبوا احترام الجميع لتعايشهم السلمي المعروف. ظلوا يعيشون في العراق حتى عُرفوا به وعُرف بهم يوم يذكرون. أما على مستوى شعب العراق عامة فإنه يعرفهم لأنهم:

* سكنوا في أغلب مدنه وخاصة في المناطق الجنوبية.
* كانوا قريبين من عامة الناس وغير منعزلين عنهم.
* مارسوا المهن المطلوبة من قبل المجتمع بما جعل الآخرين على تواصل معهم.

* عملوا في سلك التعليم منذ مراحله الأولى وأثبتوا جدارة في عملهم فظل جميع تلامذتهم يحفظون لهم الفضل والتقدير.
* عرفوا بالطيبة والجيرة الحسنة مع الذين سكنوا معهم فحازوا الاحترام والتقدير والرعاية.
* عرفوا من قبل زملاء دراستهم بتفوقهم ودماثة أخلاقهم فظل الجميع يتذكرهم بخير.
* عرفوا بلباسهم الأبيض في أثناء ممارسة طقوسهم المائية المتميزة طهارة للنفس والبدن.
* عرفوا قديماً بسحنتهم وعدم حلاقتهم شعر وجوههم.
* عرفوا باحترامهم لشعائر إخوانهم المسلمين ومشاركتهم في البعض منها.
* عرفوا بوطنيتهم من دون أن يكون لهم أي مطمع سياسي ولا تنافس يحفز أي ضدية منهم.

هكذا هم أقلية دينية تمثل جانباً أساسياً من التنوع العراقي الذي يحسب له في الرعاية والمحافظة دليل التسامح الديني والحرص الوطني.

تسميتهم العربية والآرامية

تأتي تسميتهم بكلمتين، فهم الصابئة، ويطلق عليهم في العامية العراقية "الصُّبة". وقد اختلف في هذه التسمية كثيراً تأسيساً على

معناها اللغوي. فبعض يراها من معنى الفعل العربي (صبأ) بمعنى ظهر وطلع كما تطلع النجوم، وعلى هذا يرون أن من يصبأ هو من يخرج من دين إلى آخر!

ونرى أن هذا تخريج ضعيف لأن الخروج مجرد عملية، فإن كان الخارج صابئاً فلا يفهم من ذلك أن له ديناً ومن ثم يتساوى الخارج من دين مع الخارج من بيت أو جماعة. وبعض رآها من صب الماء لكثرة صبهم للماء فهم الصابئة، ولكن ليس جميع الصابئة يعتمدون صب الماء في التعميد خاصة. وبعض يرى أنها من (صبع) بمعنى صبغ وهو السائد عند المندائيين حيث يسمون التعميد عندهم الصباغة. وقد يكون هذا المعنى أكثر مناسبة فهم يرون أن التسمية جاءت من أصل الفعل "صبا" في اللغة الآرامية المندائية القديمة بمعنى: اصطبغ وتعمّد، لأن الشعيرة الأساس المعروفة في ديانتهم تقوم على النزول في الماء الجاري والاصطباغ (التعميد) فيه، وبذلك يكتسب الصابئي المندائي صبغة الله من خلال الارتماس في الماء.

والثابت أن تسمية الصابئة اعتمدت من المحيطين بهم بوصفها وصفاً لهم مثلما وصفهم ابن النديم بـ (المغتسلة) لما عُرف عنهم من كثرة الاغتسال في الماء الجاري. وإذا نظرنا إلى أبرز الطقوس الدينية المشهورة والمشاهدة عندهم نجده يقوم على دخول النهر والارتماس في الماء الجاري ونيل رسم الانتماء والتطهر ويسمى

"مَصبوتا" بمعنى الصباغة، وأن الفرد المصطبغ يقول باللغة المندائية الآرامية "أنا صبينا" بمعنى أنا اصطبغت، فيكون من المقبول أن الاسم مشتق وقائم على ذلك. ويكتسب الفرد الصابئي المندائي انتسابه للديانة عن طريق الصباغة بالماء الجاري ورسم الجبين باسم الله الحي الأزلي بعد اليوم الثلاثين من ولادته. وهذا يتطابق مع ما يرد من معنى لكلمة "صبغة" في القرآن الكريم فيما تشير إليه الآية "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون" البقرة 138. ومثل هذا يرد في الإنجيل على لسان السيد المسيح (ع) : "وبالصبغة التي أصطبغ بها تصطبغان".

فإذا كان هذا وراء تسمية الصابئين، فيكون المعنى بعيداً جداً عن معنى كلمة صبأ في العربية في الخروج والتحول من شيء إلى شيء. فالصابئون اسم ديانة لا يقوم على معنى هذا الفعل، بل على مدلولها في ممارستها، وفيما عرف منها في بيئة النبي محمد (ص) حتى قبل دعوته، وحين نادى بما كانوا ينادون بقولهم "لا إله إلا الله" وذكر المعاذ والآخرة، وهذا ما ذكّر الناس في مكة بما عرفوه وسمعوه في ديانة الصابئين، وصاروا يقولون للنبي أنه صابئ ووصفوا جماعته بالصابئين. ونرى أنه لم يكن القصد في ذلك بالخارجين، بل حين يقولون عن النبي أنه صبأ فهذا يعني أنه لم يات بجديد بل اعتمد ديانة الصابئين لأنها ديانة معروفة من قبل قريش. ولأن النبي وجماعته أرادوا أن يعرفوا ويظهروا بالدين

الجديد، فقد كرهوا قولة قريش وسعوا للابتعاد عنهم وذم من يصفهم بها.

أما هم فيطلقون على أنفسهم تسمية (المندائيون) حسبما ترد التسمية في كتبهم. وتقوم هذه التسمية على الفعل الآرامي المندائي "يدا، إدا " الذي يعني: "يعرف، يعلم". وعلى هذا يكون القصد فيها وصفهم "العارفون بوجود الخالق وتوحيده "، وهم يعتمدون هذه التسمية في كتبهم ومناداتهم لبعضهم.

وقد آثروا اعتماد التسميتين فهم الصابئون بعدما تعزز اعتماد الكلمة حين أورد الله سبحانه ذكرهم في القرآن الكريم كما سيمر بنا، وهم المندائيون العارفون بالله كما يرد عندهم. وهكذا، فالصابئة المندائيون هم المصطبغون بصبغة الله رسماً، والعارفون بوجوده، والموحدون له فكراً ومعتقداً.

وبما أن ليس جميع الصابئين هم مندائيين، فهنالك صابئة حران، وهنالك صابئة مصر والهند والروم، عندها تكون كلمة صابئ أعم، وحينها لا ينفع أن يكون الاشتقاق مبني على كلمة (صبا) بمعنى تعمد واصطبغ لأن غير الصابئة المندائيين لا يعتمدون هذه الشعيرة وليست هي الأساس في دياناتهم. ويزداد الاهتمام بالتسمية حين ينظر لكلمة صابئ أنها ليست من أصل عربي أو آرامي، بل هي من لغات أخرى شاعت واعتمدت وصفاً بمعناها، إذ يرد في اللغة الهيروغلوفية أن كلمة صابئ تعني "المهدي" كما أن لفظ (عِلم) في

المصرية القديمة هو (صباو) وهو مشتق من لفظ (صبا) بمعنى الهداية والبعض يشير لهم في ذلك في العقيدة الهرمسية. وأما في اللغة الإغريقية القديمة فيرد الفعل SAB, SAV ومنه كلمة (سوفو) والكلمة يمكن أن تلفظ (صوبو) وهي تلتقي مع كلمة فلسفة لفظاً ومعنى، ذلك أن مقطع (فيلو) في الإغريقية يعني حُب، وكلمة سوفيا تعني المعرفة أو العقل أو الحكمة، ويكون معنى كلمة (فسلفة) هو حب المعرفة أو الحكمة بل وكلمة (معرفة) في اللغة اللاتينية هي ولفظها متفق مع الصابئية.

فإذا كان هذا هو أساس التسمية، وهو ما نرجحه في نظريتنا حول التسمية، فإنه يلتقي من حيث المعنى مع كلمة مندائي القائمة على الفعل (يدا) بمعنى عرف وعلم، ويكون في تسمية (الصابئين) التي وصفتهم تأسيساً على مبادئ ديانتهم المعرفية ملتقية مع تسمية (المندائيين) بل ومؤكدة لها وهكذا اعتمدوا تسميتهم بالصابئين تأسيساً على معنى المعرفة وتميزوا بالمندائيين في معرفتهم ونهجهم الخاص الذي يميزهم عن باقي الصابئين.[1]

---

1 د. قيس مغشغش السعدي. الإسلام والصابئة. كتاب تحت الطبع من قبل وزارة الثقافة العراقية

الصابئون في القرآن الكريم

لا اختلاف في أن القرآن الكريم هو آخر كتب الأديان السماوية، وهو الكتاب المحدد المعلوم نزولاً مكاناً وزماناً، وقد حُفظ من عهد تدوينه ولم يمسه تغيير أو تحريف، مما جعل نصه يُعتمد، دونما شك في اختلاف هذا النص، لأغراض التوثيق. وإذ تعددت شروحاته وتفسيراته فإنما هي قدرات البشر للنظر بالآيات والسور واستلهام النصوص عملاً وأحكاماً وشريعةً. فماذا نفهم من ذكر الصابئين في القرآن الكريم؟

شاعت تسمية الصابئين بشكل أكبر بعد أن وردت في القرآن الكريم في ثلاث سور. وذكرت الأديان الموجودة والباقية في محيط الدعوة تحسباً لما يشرع ويسن بشأن من لا يدخل في الديانة التي دعا لها النبي محمد (ص)، وهي سور مدنية بمعنى أنه لم يحصل نسخ للآيات التي أوردت ذكرهم وهي:

* الآية 62 من سورة البقرة [إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.]

* الآية 69 من سورة المائدة [إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.]

* الآية 17 من سورة الحج [إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيمة إن الله على كل شيء شهيد.]

ولعدم الوجود البارز للصابئين في بيئة ظهور القرآن الكريم الأولى، فقد اختلف في تفسيرهم ووصفهم وذهب بهم مذاهب شتى، وكان السمع والظن وإطلاق العنان للأهواء وراء أغلبها. أما من عرفهم أو سعى للتيقن بشكل أكبر فكان أقرب إلى إنصافهم ومن ثم وصفهم بما يتفق وورود ذكرهم في القرآن الكريم، خاصة وأنهم لم يعودوا أمة كبيرة فتهاب أو تعرف بكبرها، ولا تواجه الآخرين بحسب طبيعتها المسالمة، ولأنهم لا يسعون لبسط الدين بأي وسيلة غير الإيمان الشخصي، وليست لهم أية مطامع سياسية أو تسيد بالدين.

ولكثرة الصراعات التي نشبت بأسباب الدين، فقد آثر الصابئون الانغلاق والبقاء على حالهم طالما أنهم مؤمنون إيماناً ثابتاً بالخالق وتوحيد السبحان. لكن ذلك الانغلاق أوصد باب التعرف عليهم والتعريف بهم، وجعل الآخرين ينحون مناحي الظن بهم، وقد نالهم من ذلك الكثير بسبب الجهل والغبن. حتى إذا ما وجدوا الآن سبيلاً لذلك صاروا يدفعون عن أنفسهم بالتآزر مع العارفين والمنصفين من الأديان الأخرى بالإيمان الموجود أصلاً نصاً وتشريعاً في كتبهم وعبادتهم.

ويفهم من ورود ذكرهم في القرآن الكريم:

1- إن للصابئين ديانة، بل هي واحدة من الديانات المعروفة والمُعلمة، ولذلك يورد الله سبحانه ذكرها في الآيتين من سورتي البقرة والمائدة مع الأديان الثلاثة المعروفة، وفي آية ثالثة مع الأمم الخمس بإضافة أمة المجوس، والذين أشركوا.

2- إن الصابئين أمة ذات شأن استوجب أن يذكرها الله ويشير إليها جنباً إلى جنب مع الأمم الكبيرة المعروفة .ولو لم تكن كذلك لما استحقت ذلك الذكر وبالتسمية المحددة.

3- ابتعاد ديانة الصابئين عن المجوسية ذلك أن الله قد أفرد ذكر المجوس بشكل منفصل في سورة الحج، كما أن استخدام "واو العطف" بين كل فئة وأخرى يفيد، لغة، المغايرة قطعاً.

4- ابتعاد ديانة الصابئين عن الشرك، ذلك أن الله سبحانه أفرد ذكر "الذين أشركوا" بشكل منفصل أيضاً في سورة الحج، ومعلوم أن عبادة الأصنام والأجرام والملائكة وكل ما هو غير الله سبحانه هي من الشرك الذي أبعد الله الصابئين عنه في هذه السورة.

5- إن ذكر الصابئين في سورتي البقرة والمائدة مع الديانات الثلاث، وهي المعروفة بتوحيدها، يدلل بما لا يقبل الشك أن للصابئين ديانة موحدة أيضاً، ولذلك فإن الله يعد في هاتين الآيتين الجميع بوعده ويُلزم قيام الجميع بما حدده والذي عدّ تأسيساً على ما جاء بهاتين الآيتين، أنه مقومات الدين القويم.

6- كرر الله سبحانه الوعد في آيتين وخص بهما الديانات الأربعة بما فيها ديانة الصابئين، أما في الآية التي أورد ذكر الجميع فيها أي "المجوس والذين أشركوا" وعبدوا ما هو غير الله، فلم يذكر فيها سبحانه وعداً، بل أشار إلى أنه يفصل بينهم .ومن ثم فقد سمى البعض الآيتين بآيتي الوعد، أما الآية الأخرى فأسموها آية الفصل . والفرق بيّن ومعلوم بين الوعد والفصل.

7- لم يذكر القرآن الكريم هذه الأديان إلّا لأنها قائمة وموجودة وليست منقرضة، ذلك أن الكثير من الأحداث والأقوام وعباداتها ومسمياتها كانت قائمة قبل الحالة الموجودة والباقية للأديان المذكورة ولكن لم يتم ذكرها أو الإشارة إليها، وحجب الله فيها أي تفصيل وأشار بأنه هو وحده الذي يعلم أمر ذلك.

8- لا يجامل الله في آيتي الوعد من سورتي البقرة والمائدة، ولا يعد المذكورين فيهما أنهم سيحوزون الأجر إلّا بشروطه المنطبقة على الجميع بقوله: "من آمن منهم " ...أي من هؤلاء المذكورين جميعاً.

وآمن بماذا؟ بـ: أن الله واحد أحد، وأن توحيده يجب أن يكون خالصاً، وكذلك باليوم الآخر الذي لا بد منه والذي يكون فيه قضاء الله، فضلاً عن القيام بصالح الأعمال، على أن تكون هذه الشروط والمواصفات الثلاثة منجدلة وليست منفصلة .حينذاك يستحقون وعد الله بأن يكون لهم أجرهم والوعد بالجنة وهو أعظم الثواب،

ذلك أن الله حينما يعد فإن وعده لا يكون إلّا عظيماً، فمن صفات الله الكرم والرحمة وسعة العطاء .ومن ثم فإن الجميع لا خوف عليهم فيما سيأتي ولا هم يحزنون على ما فات وحصل.

تشكل ديانة الصابئة المندائيين

اقترنت أغلب الأديان بأسماء الأنبياء والرسل الذين بعثوا فيها ونقلوا رسالاتها وحثوا على التعليم فيها، وهكذا نرى إشارات لقوم نوح وقوم لوط والديانة الإبراهيمية ثم اليهودية ثم المسيحية ثم المحمدية اقتراناً بالنبي محمد (ص) بل وحتى خارج ذلك في الديانة الزرادشتية والبوذية.. وهكذا. أما بالنسبة لديانة الصابئة المندائية فلا تقترن باسم نبي ولا منطقة جغرافية، وهذا يعد مؤشراً لأقدمية هذه الديانة، إذ لو كانت مقترنة بأي اسم لعُرف زمن ظهور ذلك الشخص ومن ثم تأريخية هذه الديانة. ولا يمكن الاقتناع بأنها من تشكيل جماعة معينة ثم توسعت، ذلك أن مثل هذا الأمر يقع ضمن الحركات الدينية التي ظهرت وما لبثت أن زالت. فأن يكون لها كل هذا التراث المعتقدي والتشريعي والطقسي واللغوي بما يحاكي كل ما لدى الأديان الكبيرة، فذلك لا يكون إلا بوجود كامل وناضج، والتخصص برسالة لها أنبياؤها وتعاليمها. وهذا ما تذكره ديانة الصابئة المندائية في كتبها التي تثبت أقدميتها حين تعد آدم عليه السلام أول نبي لها، ومن ثم في ذريته شيت (شيتل) بن آدم،

ومن ذريته نوح وابنه سام، وأنها تحفظ تعاليمهم في صحفها وتعمل بها، حتى آخر أنبيائها يحيى بن زكريا (يوهانا مصبانا: يحيى الصابغ) المعلم الكبير الذي تثبت أنه أحيا هذه الديانة فظلت باقية إلى اليوم. وما يؤسف له حقاً أن الصابئة المندائيين لم يعنوا بتوثيق تأريخهم ونرى أن ذلك يعود لعدة أسباب أبرزها:

1- إن ديانتهم روحانية وأنهم غير معنيين بأكثر من الإيمان بخالقهم وعبادته بطقوسهم المعروفة، وإن التأريخ جانب مادي من حياة الناس والبشر وهو لا يهمهم كثيراً ولذلك لم يحرصوا على توثيقه.

2- إنهم لم ولا يرغبون بتأسيس كيان سياسي في دولة أو ما شابه بحيث تكون لها مؤسساتها ومتطلباتها المادية في تنظيم أمور الناس غير الدينية والتي منها التوثيق وكتابة التأريخ.

3- إن البيئة التي عاشوا فيها كانت بيئة القصب وبيوت طين، وهذه كانت عرضة للحرائق والفيضانات بما يتلف البيوت، فضاع كثير من كتبهم التي درجوا في بعضها على كتابة حوادث مهمة مرت عليهم لغرض التحذير أو التنبيه أو بيان واقع بخصوص الصلاحيات الدينية للأشخاص في حال تطلب الأمر ترسيمهم في السلك الديني.

4- عملت الديانات التي سعت للتسيد على تغييب ذكر الصابئة المندائيين في المراحل الأولى لظهور هذه الديانات، وكان ذلك سبباً في عدم ذكرهم والإشارة لهم، وخشيتهم هم أنفسهم من أن

يقوموا بكتابة جوانب تأريخية تثبت وقائع وحوادث التصادم والاضطهادات لما قد تثيره ضدهم، واكتفوا بالإشارة إلى ذلك في بعض الوثائق وهو ما يطلقون عليه "الدواوين".

لذلك لم يردنا كثيراً عن بدايات ديانة الصابئة المندائيين وتأريخ ظهور هذه الديانة، لكن الجميع يتفق على أنها ديانة قديمة.

أما عن منشأ هذه الديانة ومكان ظهورها وانتشارها فهنالك نظريتان لم تحسما الأمر في هذا الخصوص هما:

نظرية الأصل الغربي:

وينادي بها عدد من الأكاديميين والمستشرقين الذين درسوا المندائية ويحددون أن بيئة ظهور هذا الديانة هي فلسطين وحوض الأردن تأسيساً على بعض الإشارات أبرزها:

1- تسمية الماء لدى الصابئة المندائية باليردنا وكأنه إشارة لنهر الأردن!

2- اعتراف الصابئة المندائية بأن معلمهم وآخر أنبيائهم هو النبي يحيى بن زكريا (ع) وما معروف لحد الان أن البيئة التأريخية لظهور وعيش هذا النبي في فلسطين.

3- ورود بعض الأسماء للملائكة في كتبهم مما هو معتاد في بيئة فلسطين بإشارة إلى وجود مقطع (يو) الذي يسبق الكلمة للتعظيم

كما في أسماء أو صفات ملائكة عندهم (يوشامن، يوهان، يوخابر، يوزاطق.)..

4- الإشارة في إحدى الوثائق التأريخية للصابئة المندائية (حران كويثا: حران السفلى) إلى هجرة مجموعة منهم حصلت في بداية القرن الميلادي الأول من فلسطين إلى مدينة حران، ومنها إلى العراق.

5- تشابه طقوس التعميد مع مجموعات عاشت في منطقة البحر الميت مثل جماعة (الأسينيين) وانسحاب التعميد منها لدى الديانة المسيحية.

نظرية الأصل الشرقي:

وفيها يتبنى مؤرخون وأكاديميون ومسشرقون أيضا أن بلاد ما بين النهرين هو منشأ الصابئة المندائية، ويستندون في ذلك إلى:

1- تأكيد الصابئة المندائيين أنفسهم على ذلك في كتبهم ومروياتهم المتوارثة بينهم.

2- إن الباحثين والمؤرخين العرب يشيرون إلى وجودهم في بلاد ما بين النهرين أصلاً في كل ما كتبوا عنهم.

3- قيام جميع طقوسهم على الماء الجاري وخاصة في الصباغة (التعميد) بما جعل سكنهم عند ضفاف الأنهار والأهوار ليكونوا

امتداداً لطقوس الماء في بلاد ما بين النهرين حيث يتوفر سيحاً ودون عناء.

4- وجود العديد من الأسماء والمفردات ذات الأصل العراقي والفارسي في لغتهم وعدم وجود أية إشارات لمفردات مما هو معتاد في لغة فلسطين وآراميتها الغربية.

5- جميع المواد المستخدمة في طقوس الصابئة المندائية تعتمد ما متوافر في بيئة بلاد ما بين النهرين، كالقصب في بناء دار العبادة (بيت مندا) وبيت الزوجية (الأندرونا) مع البردي في شريجة وتخت الجنازة. أما الأدوات الطقسية فجميعها من الطين المعروف في هذه البيئة وليس من الحجر السائد في بيئة فلسطين.

6- تشابه الكثير من موروث الميثولوجيا السومرية والبابلية مع ميثولوجيا وطقوس وممارسات ديانة الصابئة المندائية. أبرز ذلك يظهر في أسلوب كتابة النصوص، والنظام الستيني السومري.

7- ورود ذكر الفرات ودجلة ونهر كارون وأسماء العديد من المدن المعروفة في العراق التي ما زال بعضها موجوداً إلى اليوم، وكل الاستشهادات التي يقدمونها تقوم على المقارنة ببابل حصراً.

8- المفردات الشائعة في العامية العراقية لحد الآن والتي أحصينا المئات منها وبحثنا في تأصيلها مما يلتقي وجذورها في لغة الصابئة المندائية الموثقة بكتبهم وبقاموس مفرداتها.

9- التذييلات التي يعتمدها الصابئة المندائيون في نهايات عمليات نسخ كتبهم الدينية تشير إلى مرجعية بلاد ما بين النهرين، وليس بينها أية إشارة إلى امتداد تتابع في سلسلة الناسخين يصل إلى أسماء ناسخين في فلسطين أو إشارة إلى اسم مدينة في فلسطين أو حوض الأردن على حد ما وجد وتم العثور عليه من مخلفات لحد الآن.

لقد بنى أصحاب الأصل الغربي للمندائيين نظريتهم على أهم جانب، من وجهة نظرنا، وهو دفع أي تفكير يقود إلى ترجيح سبق لديانات توحيدية ظهرت قبل الديانة اليهودية. وبما أن نصوص ديانة الصابئة المندائية في الكتب الدينية التي ما زال المندائيون يحتفظون بها تبرز التوحيد صريحاً وواضحاً، وهو ما لا يمكن إنكاره لا من

حيث التثبيت ولا من حيث عمق المرحلة الزمنية وأقدميتها، فقد صار التوجه إلى القطع بإبعاد أصل هذه الديانة عن بلاد ما بين النهرين وحصره في فلسطين، وهي المجموعات التي أطلق عليها فيما بعد بمجموعات العقائد العرفانية أو ما تسمى بـ"الإغنوصية" ذلك أن مدة ظهور هذه المجموعات يتحدد بزمن يمكن تثبيته بحدود بداية القرن الأول الميلادي، خاصة أنه ليس هنالك فرقة أو مجموعة من هذه المجموعات لها أتباع باقون إلى يومنا هذا عدا ما يصرحون به من أن الصابئة المندائيين هم المجموعة الوحيدة الباقية.

وفي رأينا أن رجحان نظرية الأصل الشرقي في رافدينية ديانة الصابئة المندائيين هو السائد اليوم، مع أن الأصلين شريفان وقيمان.

الصابئة المندائيون في التراث العربي الإسلامي

ذكر القرآن الكريم الصابئون في ثلاث سور ضمن الأديان المعروفة، ولم يردنا تفسير وشرح لهذه التسمية ولا للديانة ولا لأتباعها في بداية الدعوة، لعدم وجود أتباعها ضمن بيئة الدعوة المحمدية فلم يكن هنالك تماس معهم لمعرفتهم، كما أنها لم تشكّل تحدياً أو معارضة للديانة الجديدة، فلم يرد تفصيل فيها كما حصل مع الديانة اليهودية مثلًا. وحين أقدم المفسرون على تفسير القرآن الكريم أواخر عصر الدولة الأموية، اصطدموا بهذه الديانة

وتسميتها، ولمجهولية التسمية فقد صار الدوار والخوار حول فعل عربي يمكن أن يكون أساس للتسمية، فذكروا أن فعل صبأ يعني الخروج ومن ثم فالديانة تعني الخروج من دين إلى دين وهذا فهم مغلوط وقاصر كما أشرنا. ولعدم وجود الأتباع للدفاع، فقد أشيع هذا الفهم وتم اعتماده والبناء عليه والإيغال في الشروحات التي بنيت على خطأ لتكون جميعها خاطئة أو قاصرة لسبب بسيط أن الله سبحانه وتعالى قد وعد هذه الديانة شأن الديانات الأخرى المذكورة في الآيات بوعده بأن " لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" إن " آمنوا بالله واليوم والآخر وعمل صالحا"، ولا يوعد الله خيرًا إلا المؤمنين.

ومن أبرز علامات عدم المعرفة بهذه الديانة ولا أصولها ولا أتباعها هو هذا الاختلاف الكبير في بيانها عند تناولها، وليس أدل على ذلك مما جاء في كتاب "تفسير القرآن العظيم" للإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير المتوفى سنة 774 هـ في تفسيره الآية (62) من سورة البقرة التي يرد فيها ذكر الصابئين حيث يبدأ: " أما الصابئون فقد اُختلف فيهم .." ويبقى هذا الاختلاف والتناقض قائماً في كل ما أورده عنهم. ويظهر عدم اتفاق المفسرين بشأن الصابئين من خلال تعدد وصفهم، ومن ذاك: "طائفة من المجوس، عبدة الملائكة، عبدة الكواكب، يعبدون الشمس ويصلون إليها خمس مرات في اليوم، بين اليهود والنصارى يقرون بالله ويقرأون

الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة، قد أخذوا من كل دين شيئاً، إن أصل دينهم هو دين نوح ، إنهم الذين لا دين لهم، إنهم من أهل الكتاب فقد أخذت منهم الجزية التي لا يجوز أخذها إلاّ من أهل الكتاب، إنهم موحدون توحيداً صريحاً بدليل ما ذكروا به في القرآن الكريم". فهل اُختلف في أي من الديانات الأخرى مثل هذا الاختلاف؟.

أما أبرز من كتب في معتقدات الصابئين وحسب تسلسلهم الزمني، وبعضهم موضوعي ومنصف، فهم:

ابن وحشية 318 هـ/ 930 م وخاصة في كتابه "الفلاحة النبطية"، المسعودي 346هـ/ 957 م في كتابيه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، و"التنبيه والإشراف" وهما مصدران أساسيان خاصة وأن المسعودي لم يكتف بما سمع عن الصابئة بل سافر إلى حران وعاش فيها وزار هياكل الصابئين ومجامعهم والتقى علماءهم.

أخوان الصفا وخلان الوفا 372 هـ/ 983 م وهم يثبتون صراحة علاقتهم بصابئة حران بالقول: "إن مذهبنا واعتقادنا هو مذهب صابئة حران".

محمد بن إسحق النديم (383هـ/ 993 م وقد أورد في كتابه الفهرست حكاية من خط أحمد بن الطيب السرخسي في وصف مذاهب الحرنانية الكلدانيين المعروفين بالصابئة حكاها عن الكندي

تعد من الإشارات القيّمة في التوثيق للمعرفة بالصابئين ومعتقدهم التوحيدي.

البيروني 404 هـ/ 1048 م ويذكر البيروني أنه حاول الاتصال بالمندائيين وبالصابئين ممن تبقى في حران للحصول على معلومات منهم مباشرة ولكنه لم يفلح فاعتمد في الكتابة على المصادر الموثوقة وقال: "نحن لا نعلم منهم سوى أنهم أناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح، ويصفونه بالسلب لا بالإيجاب، كقولهم ،لا يُحد ولا يُرى، ولا يظلم، ولا يجور، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً، إذ ليس عندهم صفة بالحقيقة، وينسبون التدبير إلى الفلك واجرامه، ويقولون بحياتهم ونطقها وسمعها، ويعظمون الانوار.

تاج الدين عبد الكريم الشهرستاني 479 هـ/ 1976 م وقد تحدّث في كتابه الشهير "الملل والنحل" عن الصابئين بإسهاب وعقد بينهم وبين الحنفاء مناظرة ليبين فروقات إيمان المذهبين، لكن يؤخذ عليه أنه جعل نفسه ممثلاً عنهما. فمرة يكون في جانب الحنفاء ليقول رأيهم ثم ينتقل ليكون عند طرف الصابئين ليقول رأيهم، وهو بهذا لابد وأن يكون منحازاً حتى ولو لم يقصد.

ابن قيم الجوزية 691 هـ 1292/ م يشير أن الصابئة أمة كبيرة من الأمم الكبار وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً بحسب ما وصل إليهم من معرفة دينهم.

ابـن الـوردي 691 هـ/ 1292 م ويـذكر أن السـريان أقـدم الْأُمَـم، وبالسـرياني تكلـم آدم وَبَنـوهُ وملـتهم مِلَّـة الصـابئين ويـذكرون أَنهـم أخذُوا دينهم عَن شِيث وَإِدْرِيس وَلَهُم كتاب يسمونه صحف شِيث فِيهِ محَاسِن أَخْلَاق كالصدق والشجاعة والتعصب للغريب وَاجْتنَاب الرذائل.

أما الصابئون بنظر الإئمة الخمسة أصحاب المذاهب فنتبينها مما ذكروا:

فهذا الإمام أبو حنيفة النعمان يثبت أن الصابئة "ليسوا بعبدة أوثان، وإنما يعظمون النجوم كما نعظم الكعبة ولذلك أقر أخذ الجزية منهم ومؤاكلتهم ومناكحتهم[2] .

والمذهب المالكي أجاز إقرارهم بناء على أن الجزية يجوز أن تضرب على الكتابي أو غير الكتابي.

والمذهب الشافعي أقر أيضا أن الصابئة يجوز أن تعقد لهم الذمة بالجزية، على القول إن وافقوا النصارى في أصل دينهم ولو خالفوهم في فروعه، [3]

والمذهب الحنبلي ذكر أن الجزية تؤخذ منهم، إن كانوا من جنس النصارى أو إنهم من جنس اليهود. كما أن ابن قيم الجوزية وهو

---

2 الآلوسي تفسير روح المعاني.

3 مختصر المزني في فروع الشافعية، أبو إبراهيم المزني، وضع حواشيه محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية بيروت1

حنبلي المذهب وتلميذ ابن تيمية قال: الصابئة أحسن حالاً من المجوس فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة [4] وأما في المذهب الجعفري فيفاد من ابن الجنيد تصريحه بأخذ الجزية منهم، كما أن الإمام أبو القاسم الخوئي قد افتى بأن "الصابئي كان من أهل الكتاب كما هو الظاهر"[5]. أما آية الله علي الخامنئي فقد عمد إلى دراسة معمقة بخصوص الصابئة قدمها عام 1999 بعنوان "تحقيق في حكم الصابئة" وقد شملت محاور عديدة وكانت موضوعية المنحى في أغلبها وهو يعارض فيها من سبقه حتى من أئمة الشيعة بإشارته إلى أن "عمدة الإشكال في حكمهم ناشئ من عدم المعرفة بحالهم وحقيقة دينهم واعتقادهم" فالحكم في أمرهم يجب أن يكون قائماً على العقائد المقبولة لديهم وهي التي تشكل أصول دينهم ونحلتهم". وهو بعد استعراضه لآراء جميع من سبقوه يثبت أن "هذا الإعراض وقلة الإتمام في إحراز الموضوع جاء نتيجة لعدم الابتلاء كثيراً بحكمه، لاسيما لأمثال فقهائنا الذين كانوا بمعزل عن الحكم وإدارة شؤون المجتمع وغير مبتلين بمسألة أخذ الجزية من الكافر أو محاربته، لا في العمل ولا حتى في الإفتاء وبيان الحكم". وهو بعد أن يعمل المسؤولية في كل

---

4 الموسوعة الفقهية ج 26 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية U الكويت الطبعة الأولى 1992.

5 غضبان رومي، الصابئة

ذلك يخلص فيها إلى القول: "والمتحصل مما ذكرنا أن الاستدلال بالآيات الثلاث على أن الصابئة في عداد أهل الكتاب مما لا بأس به بل ولا غبار عليه"[6].

الصابئة المندائيون في دراسات المستشرقين

بعد سقوط بغداد، حاضرة الدولة العباسية ،على يد هولاكو وسيطرة التتار على البلاد وتحكمهم فيها عام 1258 ميلادية، لم يعنوا كثيراً بالجانب الديني حتى أن كثيراً من المحتلين اعتمد الإسلام ديناً لأنه لم يأت بعقيدة دينية ولا يهمه أمر الدين بمقدار ما كان مهتماً بالسيطرة على البلدان وغلبتها وحكمها وجعلها تابعة لإمبراطوريته الممتدة فضمنوا بإعلانهم الإسلام مقبوليتهم من قبل المجتمع. هكذا حصل في أول عهد الأتراك ومن ثم أسلموا وحكموا. وقد ذكرنا بأن استقرار الصابئة المندائيين في العراق كان في المناطق الجنوبية وفي مناطق الأهوار بعيداً عن الحواضر وصراعات السلطة ولم يشكلوا بطبيعتهم أي إثارة سلطوية أو مطمع دنيوي يجعلهم يميلون إلى سلطة هذا أو ذاك من الحكام ولا يحسبون عليهم .كما أن الصابئين الذين قدموا من حران لم تبق منهم بقية بعد سقوط بغداد على يد التتار وأغلب الظن أنهم التجؤوا إلى الصابئة

6 السيد علي الخامنئي: تحقيق في حكم الصابئة، مجلة التقريب 1997

المندائيين واحتموا بما يحتمون به. وأما بقية الصابئين في مدينة حران فقد تفرقوا شأن تفرق أهلها بعد الدمار الذي أصابها جراء احتلالها من قبل هولاكو، فهرب من هرب ونفي كثير من أهلها إلى الموصل ومادرين ولم يعد للصابئين شأن ولا ذكر هناك.

هكذا بقي الحال بعد أن خبت الحضارة وغلب على البلاد الفقر والرزوح تحت أنواع من السيطرات المتحكمة، وحيث تأثرت الديانات ذات الأتباع الكثيرين فكيف حال ديانة الصابئة ذات الأتباع القليلين؟ ولم توثق أي تدوينات تأريخية خلال تلك المرحلة لسببين نعيد ذكرهما: في أنهم ليسوا ذوي شأن سياسي أو عددي ليذكروا بما لهم، ولا هم ممن يحبذ كتابة التأريخ وتدوين أحداثه طالما أن الأحداث مادية ضمن مجريات الحياة.

كما أن إتلاف وحرق الكتب الذي حصل على أثر احتلال المغول كان سبباً مضافاً في ضياع ما كتب عنهم وفي توقف أية كتابات وتدوينات لاحقة من قبلهم أو من قبل الآخرين. وأول ذكر لهم بعد تلك المرحلة يدون من قبل الرحالة والمبشر المسيحي الإيطالي ريكولدو دي مونتي 1243 -1320ميلادية الذي بعثه البابا نيقولا الرابع إلى الشرق وتجول في فلسطين وأرمينيا والعراق ما بين الموصل وبغداد حوالي عام 1290 ميلادية. وقد وجدت إشارة يذكرها عن الصابئين فيما كتب من توثيقات عن أسفاره في الشرق يصفهم فيها بأنهم "شعب غريب ومتميز في طقوسه يعيش في

المناطق البرية القريبة من بغداد ويدعون بالصابئين. هم ليسوا مسلمين ولا يهوداً ولا مسيحيين. زارني العديد منهم وطلبوا مني بإلحاح زيارتهم. إنهم أناس بسطاء للغاية وهم يصرحون بأن لهم تعاليمهم الخاصة بالخالق يحفظونها في كتبهم الجميلة التي يعتنون بها بشكل فائق، وهم يوقرون يوحنا المعمدان كثيراً. إنهم يعيشون بالقرب من الأنهار فقط ويغتسلون في النهار والليل لكي يكونوا طاهرين ويرتدي كهنتهم زياً خاصاً أبيض ويحترمون نساءهم وزوجاتهم بشكل ملحوظ"[7] . وبعد هذا التأريخ لم يتم العثور على أية وثيقة تذكرهم، حتى دخل المبشرون البرتغاليون العراق في القرن السادس عشر الميلادي عن طريق البصرة. وجد المبشرون في الصابئة المندائيين شعباً مختلفاً في سحنة الشكل والزي والطقوس، وفي اللغة الخاصة، وعادات الطعام وغير ذلك مما جلب الانتباه لهم. ولأنهم جاؤوا بأغراض تبشيرية حتى بين المسلمين، فقد وجدوا في هذه المجموعة ضالة وفرصة لهم للتعامل الخاص معهم، خاصة وأنهم عرفوا معاناتهم واضطهادهم من قبل الأتراك وغيرهم من المحتلين والحاكمين. وحاول المندائيون كسب الأمان والعون فمالوا لهم، وصار المبشرون

7 Edmondo Lupieri The mandaeans, the last Gnostics. William B. Eerdmans Publishing Company. Cambreidge, U.K 2002.

يطلقون عليهم مسيحيي القديس يوحنا، لما عرف عنهم بأنهم ينظرون إلى يوحنا المعمدان نظرة إكرام وتوقير. وبعد محاولات عديدة لإدخالهم في المسيحية ذهبت جهود المبشرين وترغيباتهم هباءً بعد أن اصطدمت بإصرار المندائيين أنهم أصحاب ديانة قديمة وهم ليسوا مسيحيين ضالين. وهكذا تخلت الكنيسة الكاثوليكية نهائياً عن فكرة كون المندائيين فرقة مسيحية.

وفي الوقت الذي لم تقدم تلك المرحلة إضافات كثيرة عن حياة الصابئة المندائيين ولا معتقداتهم ولا ظروفهم المعاشية، إلا أنها أفادت في نقل بعض النسخ من كتبهم إلى أوروبا، ومن خلال ذلك تعرف الأكاديميون على لغتهم وما تحتويه كتبهم. وما شدهم أكثر هو تعلقهم بيوحنا المعمدان في وقت رفض فيه علماء اللاهوت والعهد الجديد إمكانية إرجاع تقاليد المندائيين إلى التقاليد الفلسطينية التي كانت معاصرة ليوحنا المعمدان، فصار التوجه نحو الإقدام على معرفة جديدة من هذه الديانة. وربما حصلت دراسات وزيارات بشكل معني أو عرضي ولكنها لم توثق أو لم تقع تحت النظر والاطلاع لحد الآن.

أما أول الزيارات الأكاديمية الموثقة فقد كانت للمستشرق الألماني هنريك بيترمان [8] عام 1853 حيث قام بزيارة المندائيين في منطقة

8 H. Petermann: Reisen im Orient. Band 2. Walter de Gruyter GmbH & Co. KG

سوق الشيوخ[9] وعايشهم لمدة حوالي ستة أشهر واطلع على أحوالهم، وتعلم لغتهم، ونقل معه كتابهم الأساس(گنزا ربا: الكنز العظيم) وكتب عنهم فصلاً كاملاً في كتابه(رحلة نحو الشرق)، ثم قام بطباعة كتابهم وسعى لترجمته ولكنه لم يكملها. وتوالت بعد ذلك اهتمامات الأكاديميين وخاصة الألمان والبريطانيين فوضعوا كتباً عنهم وترجموا عدداً من كتبهم وزارهم آخرون وأبرزهم الليدي دراور التي عايشتهم تفصيلاً ولمدة قاربت الثلاثين عاماً منذ عشرينيات القرن الماضي وقامت بوضع كتاب عنهم وترجمة العديد من كتبهم إلى اللغة الإنكليزية، وكذلك كورت رودولف، ورودولف ماتسوخ الذي زارهم في إيران. وزادت الدراسات التي تتناولهم اليوم من قبل عديد الباحثين والدارسين الذين عملوا أبحاثهم على مستوى الماجستير والدكتوراه.

الصابئة المندائيون في الدراسات الحديثة

لقد إزداد الاهتمام بدراسة الصابئة المندائيين في الوقت الحاضر لأسباب عديدة أبرزها:

---

9 مدينة سوق الشيوخ من المدن القديمة في جنوب العراق يرجع البعض تسميتها إلى العصر السومري، وظلت تحتفظ بوجود الصابئة المندائيين وإلى اليوم في محلة معروفة خاصة تسمى باسمهم .وهي مسقط رأس المؤلف.

1. بقاء أتباع هذه الدين إلى اليوم ووجودهم في العراق وإيران ومن ثم انتقالهم إلى دول المهجر مما نبه بشكل ملحوظ لهم فصار مسعى الدارسين للوقوف عليهم وعلى ديانتهم ووجودهم.
2. كثرة اهتمام الدارسين في حقل الأديان، والدين المقارن وأنثروبولوجيا الدين والدراسات الاجتماعية، والتعايش الديني والحرية الممنوحة من قبل البلدان والمجتمعات التي تعيش فيها وإن اختلفت الأديان فيها.
3. كثرة وسائل الإعلام وبحثها عن مادة إعلامية مثيرة ومختلفة التي وجدت في الصابئة المندائيين ميداناً خصباً وغير معروف، فأقدمت للتعرف والتعريف فأنبه ذلك إلى وجودهم وأوضاعهم. كما أن وجود الإنترنيت قد ساعد في التعريف بهذه الديانة والاهتمام بمتابعتها خاصة أنها قد ذكرت في القرآن الكريم وقد كان يظن البعض أن أتباعها لم يعد موجودين اليوم.
4. المعاناة التي عاشتها الأقليات الدينية في العراق وخاصة بعد الاحتلال الأمريكي عام 2003 حيث أصبحوا عرضة لتهديدات المليشيات الأصولية الإسلامية وأبرز مثال ما تعرض له الإيزيديون على يد داعش، فتنبّه المجتمع الدولي لهذا الأمر وصار الإقدام على دراسة هذه الأقليات الدينية بشكل أكبر.

5. قيام جامعات عالمية رصينة برصد مشاريع للبحث والمتابعة الدينية والإثنية والإنثروبولوجية في المجتمع العراقي خاصة مع توجه ملحوظ للأقليات الدينية والديانة المندائية هي أقل هذه الأقليات عدداً، رغم أنها أقدمها وجوداً. وقسم من هذه المشاريع جاء بأسباب مناشدات دولية أو ضمن توجهات الأمم المتحدة كما في يوم اللغة للشعوب الأصيلة وتوثيق الإرث غير المادي للشعوب الأصيلة.
6. إقدام العديد من الكفاءات الأكاديمية من الصابئة المندائيين على التأليف والكتابة عن أنفسهم وشرح مبادئ ديانتهم وطقوسهم بشكل صحيح وموضوعي مما ساعد على الوقوف بشكل صحيح على ديانتهم.

هذه العوامل وأخرى غيرها كانت وراء اهتمام ملحوظ أنتج العديد من ترجمات كتبهم الدينية إلى اللغة العربية بعد أن كانت محدودة وحكراً على الألمانية والإنكليزية، وكذلك قيام العديد من المؤلفين من عراقيين وعرب وأجانب بكتابة الكتب عنهم، وازدياد إقبال طلبة الدراسات العليا على تناولهم في مباحثهم ودراساتهم والتخصص فيها فأنتج كثيراً من المباحث التي تتطلب المراجعة، ذلك أن ليس جميعها كانت بمستويات عالية من حيث الصحة ودقة المعلومات أو البيانات وحتى الأغراض أحياناً.

ويأتي هذا المشروع الذي تموّنه وتشرف عليه جامعة برمنكهام واحداً من علامات الاهتمام بالصابئة المندائيين في العراق.

الفصل الثاني:
المعتقد في ديانة الصابئة المندائية

قدر إيماننا بأن عموم الأديان التوحيدية تلتقي في النتيجة النهائية بموضوعة المعتقد بالخالق، إلا أنها يمكن أن تتباين في جوانب تفصيلية في البداية، والوجود، والظهور، والإيحاء، بما يشكل خصوصية معينة لهذه الديانة أو تلك. وقدر تعلق الأمر بديانة الصابئة المندائيين فإننا سنعمل على عرض الجوانب الأساس في معتقد ديانتهم لأنه في ضوء ذلك تنبني الجوانب الأخرى في المقومين الآخرين وهما الطقوس والأساطير.

نرى أنّ المعتقد المندائي يقوم على ثلاث ركائز جوهرية تتمثل في: الإيمان المطلق بوجود (الحي الخالق) ، والضياء والنور، وخلود النفس. وتتأسس هذه الركائز على أن الخلق قائم بوجود الخالق وينتهي بإرادته. ومع أنه منه، لكنه لا يرتقي إلى كمال الخالق بل يسعى للاقتداء بذلك الكمال. وهذا مبعث الصراعات بين الأضداد حتى يتغلب النور بإرادة ملك النور. وأن كل ما في الكون حي، لأنه من الحي، ومن ذاك أن النفس (الروح) قبسٌ من الحي حلت في الجسد تحييه إلى أمد ثم تعود إلى عالمها (عالم النور) عند مغادرته. وفيما يأتي بيان لهذه الركائز في المعتقد المندائي.

أولا: وجود الخالق

تؤمن ديانة الصابئة المندائيين بوجود الخالق الحي إلهاً واحداً أحداً انبثق من نفسه ولا شريك له. وأول ما تبدأ شهادتها بكلمة "إكا هيي" بمعنى الحي موجود. واسم الخالق عندهم "الحي" إظهاراً بأنه حي بكينونته ولا يحتاج إلى أي شيء سواه في حيويته المستمرة التي لا يعرف كنهها ولا كيفيتها، ويكون هو الباقي على الدوام ولا تعرف للحياة فيه بداية.

ولأنه حي فمن صفته الحياة، ويكون كل شيء منه حياً ويبقى هكذا بإرادته، فهو علة الوجود ومسبب أسباب الحياة، وهو واهبها وقابضها ومانعها.

وتؤكد ديانة الصابئة المندائيين على ذلك وتردفه بكل ما يعزز الإيمان بتميز الخالق عن أي مماثلة ولذلك نرى أن جميع النصوص الدينية تبدأ بالبسملة "بشميهون اد هيي ربي: بسم الحي العظيم" وهي تماماً مثل عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" التي ترد في مستهل سور القرآن الكريم . وترد البسملة عندهم بصيغة الجمع للغائب "بشميهون: بأسمائهم" وهي أعلى صيغ التفخيم في المخاطبة للمفرد، ثم تكون كل صفة مقترنة به بصيغة الجمع أيضاً تفخيماً.

والإيمان بوجود الخالق والتسليم له يعني التوحيد. فإذا كان التوحيد إحدى النقاط الأساس التي تحدد سماوية الأديان وخصها بذلك

القرآن الكريم، فهذا مقتضى البيان في هذه الديانة. ويشتمل التوحيد عند الصابئة المندائيين على: توحيد الربوبية في أن الله ربُّ كل الخلق الذي هو مربوب له، وتوحيد الألوهية في أن الله هو إله الناس وهم مألوهون له وعليهم عبادته، وتوحيد الصفات في أن الخالق يختص بالكمال والإتقان الذي ليس له حدود، فهو غير معروف، وما هو غير معروف لا يمكن وصفه ولا حدّه.

والصابئة المندائيون في شهادتهم يثبتون النص: "إكا هيي، إكا ماري، إكا مندا اد هيي" . وكلمة (إكا) هي عينها كلمة (أكو) العراقية المشهورة التي تعني موجود. والموجود هو (هيي: الحي)، فالله هو الحي الموجود وهو الذات المنبثقة عن نفسها العلية القائمة بوجودها، التي لا يعرف كنهها.

ثم تأتي كلمة "ماري: الرب" ويتطابق معنى الرب هنا مع ما يرد في شرحها بأنه سيد كل الخلق في الأكوان والمخلوقات. وأما كلمة "مندا اد هيي: العليم" فهي متشكلة من كلمتين هما "مندا و هيي" بينهما حرف" إد " الذي يعتمد أداة إضافة، فيكون المعنى "عارف الحي أو العليم " وهي التي تحدد الألوهية، ذلك أن من يعرف الله هو صاحب العقل الذي إما أن يستهدي بعقله أو يستلم التعليم فيعلم، وعلى هذا تختص الألوهة بالإنسان العاقل دون سواه من المخلوقات. وأما توحيد الصفات فالمعروف والمشهود عند كل من كتب عن الصابئة المندائيين أنهم ينزهون الخالق غاية التنزيه،

وحين يذكرونه يقرنون ذكره برفع النعوت ويصفونه بسلب الصفات لأنه لا وصف له.

ونرى أنه من المفيد هنا ذكر نص من تسبيح التوحيد الذي يبدأ به كتابهم "گنزا ربا " لنقف بما يبتّ على خاصية التوحيد في إيمانهم:

(بسم الحي العظيم، مسبح ربي بقلب نقي .هو الحي العظيم، البصير القدير العليم، العزيز الحكيم، هو الأزلي القديم، الغريب عن أكوان النور، الغني عن أكوان النور، هو القول والسمع والبصر، الشفاء والظفر، والقوة والثبات، هو الحي العظيم، مسرة القلب وغفران، الخطايا.

يا رب الأكوان جميعاً، مسبح أنت مبارك ممجد معظم موقر قيوم، العظيم السامي، الحنّان التواب، الرؤوف الرحيم، لا حد لبهائه ولا مدى لضيائه، المنتشرة قوته، العظيمة قدرته، هو العظيم الذي لا يرى ولا يحد.

لا شريك له في سلطانه، ولا صاحب له في صولجانه، من يتكل عليه فلن يخيب، ومن يُسبّح باسمه فلن يستريب، ومن يسأله فهو السميع المجيب.

ما كان إن ما كان ولا يكون إن لا يكن، خالد فوق الأكوان، لا موت يدنو منه ولا بطلان.)...

ثانيا: الضياء والنور

مع أن الله الخالق لا يعرف كنهه ولا تدركه الأبصار، إلا أن التأكيد في الديانة المندائية أن إدراكه يكون بعظمة ما يصدر عنه، في أنه الضياء ومصدره القائم والباقي، ومن الضياء النور. ويكون تلمسهُ في الشمس دالة تنير بما وهبت ومحكومة بما قدر لها، بينما هو ينير بما لا يعرف ولا يُقدر له قدر ولا يشمله حد. وفي هذا يرد في نصوصهم:

"إنه الضياء الأزلي والنور الذي ليس له حدود".

" لم يكن لو لم يكن الضياء، ولم يكن لو لم يكن النور، ما صار إلا بوجود الحي العظيم".

وفي النور البيان والظهور والتعليم والحياة التي نشأت وكانت من الماء الذي جرى أولاً في عالم الخلق الأول، العالم العلوي الذي انعكس فيه الضياء فكان النور. إن أول إظهارات الخالق كانت ماديات فيزيقية تمثلت في انبثاق الإشعاعات الضيائية، والماء المرآة العاكسة للضياء لكي يظهر النور ويبقى. ومن النور وللنور تكوّن عالم النور. ثم خلقت الحيوات بملائكتها والأثريون الذين فيها، وحكمت بإرادته، هو ملك النور، وما أفاض به على الأثريين والملائكة في ذلك العالم الذي منه كل الفضائل في الحق والخير والجمال.

ومع كل الفضائل، إلا أن بذرة الشر تظهر من الخلق الثاني الحياة الثانية في عالم النور إشارة إلى أن الواحد الأحد هو الخالص النقي، وأن من الخلق الثاني تتشكل نزعة اللحاق بالأول والسعي لأن يكون لها ما للأول، فيقودها هذا النزوع إلى أي فعل حتى لو صار فعل شر ولا شك.

وعلى هذا فالأول كله خير، أما الثاني فهو وإن كان ملائكياً لكنه لا يبلغ مبلغ الأول الواحد، وهذه حكمة الخالق في أنه "ليس كمثله شيء" ويقابل عالم النور عالم الظلام في الشر والسوء. ويقترن هذا في الديانات العرفانية أو ما يطلق عليها "الأغنوصية" ونظرتها لما في الكون من ثنائيات متلازمة كما في النور والظلام، والحياة والموت، والخير والشر، والجسد والروح، والنهار والليل .. وهكذا. وفي هذه التقابلات الثنائية تضاد وسعي من هو أدنى للنيل مما هو أسمى. فنجد أن الظلام يسعى للنيل من النور ويكون في صراع معه، لكن النور ينتصر في النهاية لأن الخالق باعثه ومصدره وإرادته، وما وجود الظلام إلا نتيجة لإنحسار الضوء، فليس له من إقدام، بل نراه ينكسر إنْ أقدم النور عليه.

والإنسان بطبيعة خلقه يشتمل على الاثنين، فهو من جهة جسده، ومادة الجسد الطين وطبيعته الفجة، ينقاد إلى الشر والسوء والرذيلة، ومن جهة نفسه(الروح) الحالة فيه، التي هي قبس من ضياء الحي،

يكون له شرف السعي للحق والخير والجمال ويظل يسعى بالعقل المميز.

وفي هذا الخصوص يرد في نصوص ديانتهم الكثير من جوانب الصراع بين المكونين الأساسين للإنسان وحث النفس على الصبر والاحتمال ومقاومة الشر وتحجيم شهوات البدن ونزعاته وكل ذلك يكون بالإيمان الحق وبالعمل الصالح والأخلاق الصحيحة.

ومما يرد في نصوص الديانة:

"الماء لا يختلط بالقار، والظلام لا يحسب على النور".

"سيظل النور والظلام يتصارعان، وسيقاتل الكفر الإيمان، ما عاش على وجه الأرض إنسان، هكذا يمتحن الإيمان".

ولأن منشأ النفس من عالم النور فهي مبعث النور في الإنسان، تضيؤه رغم توقها وأملها في العودة إلى موطنها لتنعم بالنور الأبدي كما وعدت.

ثالثا: خلود النفس

النفس وتسمى باللغة المندائية "نِشمثا: النسمة" هي قبس من الحي، ولذلك لا يعرف كنهها أيضاً غير الحي ذاته، وموطنها من عالم النور، أحلت قسراً في الجسد لكي تحييه وتنيره وتجعله يتقبل التعليم والإيمان فيحظى بالطمأنينة والأمان، وبمغادرتها له يسقط وينتهي ويعود إلى مصدره طيناً. والنفس لا شك في مغادتها البدن

وإن طال عمر الإنسان فقد وعدت بالعودة إلى موطنها لأنها خالدة باقية لا تموت. مثل هذا الإيمان يلتقي مع الجانب الأساس الذي يرد في الآيات القرانية من حيث تحديد وحدانية الأديان حين يلزم بالإيمان باليوم الآخر. وما اليوم الآخر إلا المعاد بعد أن تعود النفس / الروح إلى مثواها الأخير وهناك تحاسب.

إن إيمان المندائيين بذلك أملى أن يكونوا حريصين بشكل كبير على أخراهم من أجل عودة آمنة للنفس، وقرنوا ذلك بالإيمان بخالقهم وبالعمل الصالح وتقديم الصدقات. وقد تخصص الجزء اليسار من كتابهم گنزا ربا في وصف ذلك فضلاً عن مخطوطة قديمة عندهم (ديوان اباثر) تتحدث عن عودة النفس ومحطات الحساب والتطهير التي تمر بها وكيفية محاسبتها وتطهيرها.

وتأسيساً على الركائز الجوهرية الثلاث التي ذكرناها يمكن إجمال متضمنات المعتقد في الديانة المندائية وما يترتب عليها من إجراءات في عباداتها وطقوسها بالنقاط الآتية:

1- الإيمان المطلق بوجود خالق وراء كل الخلق العلوي والسفلي هو الحي. ولأنه حي فقد أضفى من صفته الحياة على جميع العوالم فصارت عوالم حية.

2- وحدانية الخالق وعدم الإشراك به، فهو الفرد المتفرد الغني عن كل ما سواه وهو الغالب عليها جميعاً.

3- خلق العالم العلوي سابق لخلق العالم السفلي.

4- العالم العلوي هو الأقدس وكل ما فيه منزه، أما العالم السفلي (العالم الأرضي) فهو عالم خرب وفيه الطمع الذي يقود إلى ما هو سيئ وشرّ، لأنه مبني على ضرورة إشباع الكائنات التي تعيش فيه لجميع حاجاتها.

5- العالم العلوي هو الثابت والباقي والأزلي، والعالم السفلي زائل ويمكن أن يتعرّض للدمار كما تعرّض في مراحل سابقة كان آخرها الدمار بالطوفان.

6- العالم السفلي يتأثر بالكواكب والأبراج وما ينجم عنها من نقص في كل المناخات والتقلبات بحكم ما يحصل فيها لأنها غير كاملة الإتقان، في حين أن عالم النور كامل لا تأثير ولا حكم عليه إلا من ملك النور.

7- الخلق السفلي يسعى لمناظرة الخلق العلوي في الماء والشجر والحياة من خلال (النظير) بإشارة إلى أن كل ما على الأرض له قرينه في عالم النور، لكن ما على الأرض يبقى قاصراً ويتوق إلى الاقتران بالأعلى حتى الإنسان نفسه.

8- الخالق الحي كان وراء الانبثاق الأول للخلق وكل ما حصل بعد ذلك بإرادته، وخلقَ الأثريين والملائكة وأوكل لهم مهاماً محددة وزودهم لذلك بقدرات لا تقهر، وهم على ما لهم من قيمة، لا يجوز أن يرتقوا على خالقهم.

9- الإرادة الأولى والخالصة هي إرادة الحي، وحين حصلت الكثرة ظهرت بوادر الشر بدءاً من الحياة الثانية. وفي هذا إشارة إلى أن الكثرة تقود إلى التنافس وهذا يقود إلى الصراع الذي يقود بدوره إلى الشر.

10- النور سابق للظلام ومتقدم عليه، ووجود النور يعني انحجاب الظلام، والصراع بين النور والظلام قائم إلى ما شاء الحي.

11- وسطاء عالم النور هم الأثريون والملائكة، في حين أن وسطاء عالم الظلام هم الشياطين.

12- يحتل الماء قيمة مقدسة كونه أصل الحياة وسرها، وقد جرى أولاً أنهاراً وجداول في عالم النور، ومنه نزل إلى العالم السفلي.

13- الإنسان مكون من نفس/ نسمة، وجسد. جُبل الجسد من طين الأرض، وأنزلت النفس قبس ضياء من عالم النور، فنصف الإنسان مادته شريفة ونصفه الآخر مادته أرضية دنيئة.

14- أنزلت النفس من عالم النور لتحل في الجسد دون إرادتها، ولذلك هي مجبرة عليه ومحبوسة فيه إلى أمد معلوم يحدده الخالق لكل نفس على حدة، أو بإرادة عامة كما حصل في فناء الجنس البشري في ثلاث مراحل سابقة وبقي من كل جيل زوجان رجل وامرأة فعمرت الدنيا بهما من جديد نقية من الشر.

15- صُنع جسد الإنسان على أحسن تقويم وبأكمل وجه وأحسن صورة ليكون مهيأً لاحتواء النفس ولائقاً بها. ومتى يصير غير أهلٍ وغير سليم تغادره.

16- الروح[10] هي القوة المحركة لإشباع متطلبات الجسد من أجل العيش، وتظهر بشكل حاجات أساس تشبع بما هو من مادتها الأرضية كالحاجة للماء والهواء والطعام والجنس. ولكي تشبع هذه الحاجات فإن هنالك ضرورة لوجود قوة روحية تدفع الجسد للسعي والحركة. وقد ارتبطت هذه الروح برغبات وميول جعلت الناس متشابهين في نوع الإشباع مختلفين ومتباينين في درجته، واقترن ذلك بحاجات أخرى غير بايولوجية صار منها التنافس محبة أو عداءً.

17- دور النفس المحايدة: نشمثا، هو السيطرة على الروح وشهواتها، وهي في صراع معها في ذلك، وإشباعها يكون عاطفياً من خلال التسبيح والصباغة والصدقة والحث على كل ما هو حي. فكلٌّ يسعى لأن يشبع من مادته، النفس من النور والسماء، والروح من الأرض. والإنسان الصالح هو الذي يستطيع ضبط حاجاته والسيطرة عليها كي لا تسحبه الروح إلى مواقف لا تحمد عقباها.

---

10 يختلف مفهوم الروح في الديانة المندائية عما هو سائد، فهي تقترن بما يرّوح الجسد

18- الموت حق وأمر محتوم ومعلوم. وهو يمثل انعتاق النفس من حبسها بعد أن تؤدي دورتها. وما يموت هو الجسد حيث يعود إلى الأرض مصدره، أما النفس فتبقى حية لأنها خلقت من الحي وتعود، بعد مفارقة الجسد، إلى موطنها الأصلي عالم النور.

19- تصعد النفس بعد الموت وتحاسب عن مدة وجودها في العالم الأرضي من خلال مرورها بسبع موقفات ومطهرات "مطراثا" تعبرها الواحدة تلو الأخرى. فإن كانت أعمالها تؤهلها للعبور تعدّتها، وتقترن أبدياً بنظيرها ثم تجتاز المياه الفاصلة بين عالم الظلام وعالم النور لتستقر هانئة في الأخير.

20- الصباغة(التعميد) سُنّة اختطت في عالم النور أولاً لتكون كساء نورانياً وسلاحاً للنفس، وأول من نالها من الملائكة هو الملاك هيبل زيوا (جبرائيل الرسول). واقتداءً بما دار في عالم النور صار على النفوس أن تقيم الصباغة على الأرض.

21- الماء الأول في عالم النور صار من الحي (مخلوق منه)، ومنه النور، وكله نقاء وحياة. أرسل خيط منه إلى الأرض فأحيا الماء الأجاج عليها وصارت به مياه الأنهار الجارية حية. وصار وجوباً أن تجرى الصباغة في الماء الجاري لأن الماء غير الجاري مقطوع، وهو ميت لا حياة فيه.

22- الزواج سُنّة لكي تستمر الحياة، وبه يتكاثر الخلق البشري. والعازف عن الزواج والإنجاب مقطوع في الدنيا والآخرة.

23- حلت المعرفة والعلم الرباني لدى الإنسان وحياً وإلهاماً من صوت الحي الأقدم أو كشفاً وتجلياً، وهذا يكون بصيغة التعليم أو الرسل والأنبياء الذين يتحملون الرسالة فتُنقل المعرفة. والملاك "مندا اد هيي" هو أول رسول موكل بالمعرفة لكل ما في عوالم النور والعالم الأرضي. وأول من أتاه العلم من البشر هو آدم، ثم شيتل، ثم سام، ودنانوخت، وآخرهم النبي يحيى بن زكريا. من هنا صارت تعاليم هؤلاء هي تعاليم الديانة المندائية.

24- السعي للكمال ديدن الإنسان، فالمندائية تقوم على كمال الخالق في كل القيم والممارسات. ويتجلى كمال الخالق بالسعي لتمثيل ذلك في مخلوقاته ودقة وإتقان الخلق. والإنسان أرقى الخلق، وقد جُبل على أرقى وأكمل وأتقن ما يكون في الجسد. ومع ذلك فقد ظل الجسد مسجى لولا الإرادة الإلهية التي تكشف سر إعجاز الحياة الذي تمثل بإدخال النفس فيه، وبها صار حياً، ولا يفسد إلا بمغادرتها إياه .ولكي يبقى الجسد صالحاً فإن النفس تسعى معه للصلاح بأسباب توقها للاقتداء بالكمال. فالإنسان، بحسب العقيدة المندائية، خيّرٌ بطبعه وما جُبل عليه محايد. ولذلك نجد أن العقيدة المندائية تغذي هذا وتحض عليه في وصاياها بالصلاح، وحثها في التعليم، ودقتها في الطقوس والشعائر ودرجة النظافة والالتزام فيها إلى حد غارق في الرمزيات والتفاصيل.

اعتقادهم بالأنبياء والرسل

الله الحي عالم عليم وبدون أن يكون كذلك لن تكون قيمة للخلق على تنوعه أثيرياً بالأثيريين، وملائكياً بالملائكة ،وإنسياً بالإنسان. فالجميع مُيز بالعقل لكي يكون عارفاً. والعلم الرباني لا يُحاط، وصار عند المندائيين أقنوماً مقترناً بالحي من خلال ذكرهم "إكا مندا اد هيي" بمعنى أنه العليم الموجود.

إن وجود العقل عند الإنسان دليل على العقل الأكبر والعلم الأكبر الذي عند الخالق الذي لا يحد بحد، وما عندنا إلا ذرة محدودة مما يملك فهو الغني بكل شيء. وقد خص أكرم خلقه الإنسان لأنه سبحانه أراد أن يكون خليفته في الأرض عارفاً مستبصراً فكان أن وهبه العقل مميزاً له. وكان ذلك مناداة وصوتاً، ولذلك تذكر النصوص المندائية في مستهلاتها"هذا هو الصوت الأول، وهذا هو التعليم الأول" الذي أتاه الله المختارين الصادقين فعرفوا وآمنوا.

كما أبلغه سبحانه تجلياً ووحياً للأنبياء والرسل من أجل أن ينقلوه إلى عامة الناس عقيدة وشريعة، فيرد عندهم "لا يوحي إلا الحيّ العظيم". ولولا وجود العلم والمعرفة في ماهية الخالق لما احتاج الإنسان إلى العقل لكي يستلم شيئاً من هذا العلم ويتعامل به معرفة. وأول المعرفة معرفة الله والاعتراف به.

ولكي يتم نقل وتبليغ ذلك إلى الخلق، كان لا بد من اعتماد الرسل المبلغين والمعلمين. من هنا نقف على تأكيد الديانة المندائية أن

هذا العلم الرباني هو الرسول الأول وتحدده بـ "مندا اد هيي" أنه الرسول الأول، وتبقى النفس متعلقة به لأنها فطنت على المعرفة والعلم، وتتوق إليه مخلصاً لها أيضاً.

أما أول من أتاه العلم والمعرفة الربانية من البشر فهو آدم (ع) وكان لا بد لآدم أن يعترف لربه لأنه خلق وليس من قبله بشر، وهذا ما تثبته أحد النصوص في ديوان العالم الرئيس العظيم حيث يرد:

"حين خلق آدم وعم نوره الدنيا، نهض ووقف وقال: أنا ملك بلا نظير، أنا سيد كل العالم. ثم تجوّل حتى وقف على جبل ونظر أمامه، فرأى ماءً يجري تحت الجبل، حينها انكفأ على وجهه وقال: إن لم يكن هناك من هو أعظم مني وأقوى، فمن أين إذن أتت هذه المياه المنورة التي تجري لا حد لها ولا عد؟ وشعر بقلق، وتأمل وقال: أأنا قلت أن ما من ملك أعظم مني؟ لقد علمت الآن بوجود من هو أعظم مني، وهأنذا أصلي له وأدعوه وأقتدي به وأتخذه رفيقاً".[11]

وأول التعليم معرفة الخالق والإيمان به، وهذا ما يرد أيضاً عندهم فحين أرسل الملاك إلى آدم، أمرهُ الله:

,,اذهب ونادِ آدم وزوجه حواء بصوت سني، علّمهما كل شيء عن ملك النور السامي، رب الأكوان جميعاً، ذي الحول الشامل والكبير الذي لا يحد ولا يبطل، وعن الملائكة القائمين والمسبحين بلا

11 العالم الرئيسي العظيم/ آلما ريشايا ربا. مخطوطة مندائية

انقطاع، وعن عوالم النور التي لا يمسها البطلان .علم آدم ليستنير لبه، وقوّمه لكي يستنير فكره وعقله وحنانه ... وعلّم المعرفة لآدم وزوجه حواء وذريتهما لكيلا يضعفوا ولا يغويهم الأشرار والشياطين ..علّمهم الصلاة والتسبيح ليقيموها ويسبحوا لملك النور العلي"؟

بهذا يكون آدم (ع) أول من عرف وعُلِّم، وأول نبي ورسول لأول دين عرفته البشرية معترف بوجود الخالق والخضوع له ساجداً مسبحاً بحمده. وامتد التعليم حسبما يرد عندهم إلى ابنه شيت الذي أقام شعيرة الصباغة الأولى ودعا الناس لأن يصطبغوا بصبغة الله ويمسح جبينهم باسمه دون سواه تباركاً.

وبعد أن حصل الطوفان وأبيدت البشرية أوكل التعليم لسام بن نوح لكي يقوم ويدعو الناس للإيمان بالله الحي وكان ذلك من خلال ملاك هبط عليه.

أما آخر من جاءه التعليم عندهم فهو النبي يحيى بن زكريا الذي يعدون رسالته مباركة بإحيائه رسم التعميد وتشديده على صباغة الناس بصبغة الله الحية وأن يتقبلوا الرسم الطاهر ويتوبوا. ولذلك صار المندائيون مقترنين اليوم باسمه رغم أن ديانتهم أقدم منه بكثير، فهو من أحيا ديانتهم، ولدوره أيضاً في بث المعرفة فيهم بتعاليمه التي يحفظونها بكتاب سُمّي على اسمه عندهم. ويحيى (ع)

قد ذكرته جميع الأديان، وأخص الذكر ما جاء في آي القرآن الكريم.

يحيى بن زكريا (ع)

يحيى بن زكريا، (يهيا يوهانا) النبي المحبوب لدى جميع الأديان ولدى البشرية عامة منذ ولادته وحتى اليوم، وسيبقى هو الحياة لأنه هبة الحي، وهو الحنان كما اسمه، وهو النداء والماء. هو تضرع ودعاء زكريا الأب، وصلاح حال ورحم إنشبي (إليصابات) الأم، إعجازٌ زرع في رحمها. فالأب نبي عجوز جاوز التسعين من العمر عُرف بإيمانه وتقواه، والأم شيخة عاقر جاوزت الثمانين من العمر عُرفت بأصلها وخشوعها، ولم يتعاشرا زوجان لسنين قبل الحمل. ويحيى النبي الأكثر إعجازاً بين الأنبياء في ولادته، وفي تبنيه من الملائكة لرعايته، وفي احتجابه ومن ثم عودته شاباً يافعاً مصبوغاً برسم الحي، متعلماً أبجدية اللغة، ممتلكاً معرفة الله ودينه الحق وشريعته للبشر بكتاب. شخصية بمثل هذا الإعجاز، كان من الطبيعي أن يلتم الناس حولها ويجتمع المتفرقون عندها يطلبون التقرب والتوبة للرب على يديها بعد أن كثر في الأرض الفساد واضطُهد العباد بتجبر السلطة الدينية والمدنية.

وأدرك يحيى أن ما يحتاجه الناس هو التوبة، ولا توبة دون طهارة. وبما أن الله سبحانه جعل الماء أطهر خلقه، فقد اعتمده يحيى وسيلة ينزلهم فيه فينزلون، ويتلو عليهم اسم الحي فيتباركون،

يصطبغون ويرددون "مبارك هذا الاسم المنطوق علي". هكذا أحيا يحيى رسماً سماوياً ما زال يمارس حتى اليوم.

ويحيى مثال في الزهد عن ملذات الدنيا، وفي الموقف الحازم لتطبيق أوامر الله على الأرض. إعجاز في صعود نفسه النقية الطاهرة إلى باريها على اختلاف روايتي الوفاة، قتلاً كما ساد تأريخياً لوقوفه بوجه الملك هيرودس من أجل تطبيق الأحكام الأخلاقية، أو رفعاً على يد الملاك العظيم "مندا اد هيي" كما يرد في التعليم الموثق عند الصابئة المندائيين.

تقدر البشرية ليحيى تعليمه ومواقفه ودعوته الجميع للتوبة لرب العالمين وصباغته في الماء الجاري التي اشتهر بها، فهي أكثر من ارتماس لأن الفرد يكتسب فيها صبغة الله الحي تكسوه شفافة طاهرة تثبت الإيمان والحنان .حينها يشعر براحة النفس والجسد حيث يزيل الماء منه كرب الدنيا وهمومها وخطاياها، ويستمتع بالاعتراف لربه بالتوبة وسلوك السبيل القويم .هكذا أحيا يحيى رسماً يشتمل على شعائر قيمة، حافظ عليها الصابئة المندائيون وإلى اليوم ارتماساً كاملاً في الماء الجاري، ولدى المسيحيين اقتداء بطلب عيسى المسيح التعميد (الصباغة) على يد يحيى اعترافاً وتباركاً.

ويحيى عند الصابئة المندائيين نبي ورسول يعظمونه ويعدونه المعلم الكبير الذي أحيا ديانتهم برسمها السماوي الصباغة في الماء الحي وتعليمه، ولا يختلفون في ولادته من الأب الشيخ ومن أمه

التي اسمها عندهم إنشبي. بعض من تعاليمه ترد في كتاب الصابئة المندائيين الأساس گنزا ربّا، كما ترد فيه قصة قبض نفسه ورفعها من قبل الملاك العظيم مندا اد هيي، ذلك أن الروحانيين العظام يُرفعون عند الموت ولا يقتلون. وهكذا رفعت نفس يحيى بناء على رغبته وهو على جرف النهر يقوم برسم الصباغة (التعميد) كما مثبت في كتابهم الأساس. ويحتفظون أيضاً بكتاب لديهم أسموه على اسمه تعاليم يحيى يحتوي على فصول من تعليمه. ويفتخرون ويتباهون بهذا النبي الجليل المحبوب، صوت الرب للسلام وللدين الحق، ويعدونه آخر نبي ومعلم لهم.

والمسيحيون، يمنحونه مكانة عظيمة، ويرون فيه السابق الذي سبق المسيح وممهد الدرب لهم والموكل بالتوبة بالتعميد الذي وصلت قيمته أن يأتي عيسى المسيح طالباً إياه منه وراغباً بالارتسام به على يد ابن خالته يحيى.

والإسلام منح منزلة عظيمة للنبي يحيى، وأشار إليه في ثلاث سور في القرآن وبآيات غاية في بلاغة المعنى، في الرجاء والطلب، واستجابة الرب، والصيرورة، والتربية، وختام الحياة في الدنيا، نقرأ ذلك في سورة مريم الآيات 13 12 ، 14 "يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً. وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً. وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً " وفي الآية 39 من سورة آل عمران

".. إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين. ..".

ويحيى (ع) في كتب الصابئة المندائيين ومنها كتاب تعاليم يحيى، تزوج بعد أن أمر بذلك ورفض تحججه بأن الزواج يمكن أن يلهيه ويشغله عن عبادته لخالقه. وهذا ينافي ما تثبته المصادر التاريخية أنه عاش أعزبا، ولا تفسر كلمة (حصوراً) التي وردت بوصفه في القرآن الكريم أنها الابتعاد عن النساء، بل المعنى أنه معصوم من الفواحش.

فالثابت لدى الصابئة المندائيين أنه طلُب إليه الزواج وتأسيس أسرة. وهكذا تزوج وأنجب ولم يبق راهباً، فلا يحق لمن أريد له أن يُحيى أن يكون هو سبباً في قطع نسل الحياة، وهذا ما يفهم ويؤكد في دعاء زكريا حسب ما يرد في القرآن الكريم حين قال: "هب لي من لدنك ذرية طيبة" أي ولداً تكون منه ذرية ونسل وعقب، فكيف يكون هذا النسل إن عزف يحيى عن الزواج؟ ثم إن الله سبحانه لم يحبذ الرهبنة، فكيف يجعل من نبيه عازفاً ولا يكون له نسل، وكيف يتحقق النسل بدون زواج. بل إن انشغال يحيى بجموع الناس وتعليمه وتعميده لهم، جعله ينسى نفسه. ولذلك يرد في كتاب تعاليم يحيى، أن يحيى قد نُبه وأُسمع الخطاب.

ولا يتفقون مع ما يذكر في رواية قتله، بل يرد في كتاب گنزا ربا أنه قد توفي ورفعت نفسه من قبل ملاك عظيم هو "مندا اد هيي"

الذي جاءه بهيأة طفل بعمر ثلاث سنوات ويوم، وطلب من يحيى أن يصبغه بالماء.. ويستمر النص في محاورة بين يحيى وبين الملاك دون أن يعرفه، وبعد أن يعرفه يطلب منه يحيى مرافقته فيبلغه أنه إن رافقه ستنفصل نفسه عن جسده، فوافق يحيى، وهكذا تصعد نفسه بإكرام وحنان.

بعض من أقوال وتعاليم يحيى بن زكريا (ع):

يرد في باب تعاليم يحيى في كتاب الصابئة المندائيين گنزا ربا:

بسم الحي العظيم

* إذا كنت قوياً فكن صادقاً، فكل فضيلة هي سلاح تعين المخلصين بالإيمان، والاستقامة، والمعرفة، والحكمة، والتعليم، والرجاء، والصلاة والتسبيح، والصدقة، والتواضع، والإتقان، والنقاء، والرأفة، والحنان، ومحبة الحق.
* رأس الإيمان أن تؤمن بأن الله مقيم في الفضائل جميعاً.
* رأس الاستقامة أن تدين نفسك.
* رأس الرجاء أن تتعلم كلام الله وتعلمه.
* رأس ثباتك أن لا تغير كلمتك.
* رأس الصدقة أن تطعم الجائع وتسقي العطشان.
* رأس عبادتك أن لا يقع اسم الله من فمك.
* رأس نقائك أن تنزه نفسك.

* رأس التسبيح أن تسبح المقام الذي منه أتيت.
* رأس التذكر أن لا تنسى الموت.
* رأس المحبة أن تشارك أخوتك في محبة ربك.
* العادل ميزان، العادل قاض صادق، المؤمن فلاح مثمر، العارف بنّاء منظم، الثابت جبل لا يتزحزح.
* من يضاعف صلاته وتسبيحه يضاعف أجره عند ربه.

الكتب الدينية عند الصابئة المندائيين

يقترن بالرسالة والنبوة وجود التعليم، الذي يتطلب أن يُبلّغ ويشاع لكي يُعمل به. وقد ذكرت الصحف التي نزلت على آدم والأنبياء الأولين كيف أن هذه الصحف حُفظت بما احتوت في صدور من بُلغوا، ذلك أن التدوين لم يصل إلى ما يجعلها مكتوبة بيد الناس. ثم مع تقدم البشرية وتمكنها من ذلك قامت بالتدوين. وكلما كان التعليم الديني قديماً كلما تأثر حفظه بعامل الزمن، وهذا أمر طبيعي خاصة في تفاصيل العبادات والشرائع. أما المبادئ الأساس فهي مما يسهُل حفظه لأهميتها ولمحدوديتها. ولذلك نجد أن عموم الأديان تشترك في المبادئ الأساس للدين، لكنها تتباين في التفصيل، ومع دقة تدوين القرآن الكريم إلا أنه يذكر بعض التباين في النسخ الأولى حسب قراءاتها.

والصابئة المندائيون يقرون بأن التعليم الذي نزل على آدم ومن بعده الأنبياء المعتمدين من قبلهم تم تدوينه وحفظه في كتب وهي:

1- كتاب گنزا ربا، ويعني الكنز العظيم وهو كتابهم الأساس ويقع بقسمين: القسم اليمين ويتضمن النصوص التي تتعلق بالحياة من حيث التوحيد والتسبيح للخالق والاستغفار وبعض من وصايا النبي يحيى بن زكريا (ع) وتعاليم الديانة ووصاياها ونظرتها للخلق والتكوين الأول والصراع بين عالم النور وعالم الظلام والتشريع في كل ما يتعلق بالحلال والحرام. وهذا القسم هو القسم الأكبر ويشتمل على 18 كتاباً. أما القسم الثاني فهو القسم اليسار، فيتناول موضوعة الموت الذي هو حق وخلاص للنفس (الروح) التي حبست في الجسد إلى أمد. وأول ما يرد فيه العبرة في خلاص آدم بعد أن عاش وعمّر. ويتضمن هذا القسم أيضاً نصوص الأدعية والمواعظ بشأن حسنات النفس وعملها الصالح وصدقاتها التي هي زوادتها وبها تعان في الصعود والارتقاء وتخطي محطات الحساب لكي تصل إلى موطنها الأصلي عالم النور. ولتمييز القسمين عن بعضهما تم تعمد وضع أحدهما مقلوباً عن الثاني رغم أنهما بكتاب واحد كبير، فالحياة عكس الموت.

تعد الصيغة التي كتبت بها نصوص الكتاب قديمة فهي تشابه طريقة كتابة الأدب البابلي، وتتضمن المعلومات والمفردات ما يشير إلى

أصلها الرافديني، واحتوت تكرارات ضمن النصوص إما للتأكيد أو بأسباب التدوين والتجميع. وجميع الكتب عندهم مكتوبة باللغة المندائية وأبجديتها الخاصة كما سيمر بنا في بابه. أكثر ترجمة معتمدة اليوم هي ترجمة عالم الساميات مارك ليدزبارسكي التي تمت في ألمانيا عام 1925 وفي عام 2001 تمت ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية من قبل رئاسة طائفة الصابئة المندائيين في العراق ووضعت بصياغة مناسبة للغة العصر والتأثير الروحي لكتاب ديني. وفي العام 2012 م قام الدكتور قيس السعدي بالاشتراك مع أخيه الأستاذ حامد السعدي بترجمة الكتاب إلى اللغة الإنكليزية وطباعته ونشره. وفي كل الترجمات تم التأكيد على أن النص المندائي الأصلي يبقى هو المصدر ومرجع الاعتماد حفاظاً على روح النص وتحسباً لأن أي ترجمة لا تصل إلى أصل النص.

2- تعاليم يحيى: دراشي اد يهيا، ويعد الكتاب الثاني لدى الصابئة المندائيين، وهو مهم وقيم لاحتوائه على فصول في جوانب الخلق والصراع الذي دار في عالم النور بين الخير والشر وغلبة الخير وتمكنه من تقييد الشر وتحديده ودفعه بعيداً، والعبرة في كل ذلك انتصار إرادة الله في الخير. ويعرض الكتاب نبوءة ولادة يحيى بن زكريا وتأثر اليهود من هذه النبوءة، وكذلك الأمر الذي جاء يحيى لصباغة عيسى، والأمر أيضاً بزواجه. كما يشتمل على دروس

ومواعظ قدمها النبي يحيى، وإجاباته على المحاسبة والعقوبات إزاء الخطيئة والسلوك غير القويم دينياً وأخلاقياً. كما يعرض الكتاب جوانب تتعلق بالصراعات التي عانت منها المندائية مع الأديان الأخرى وخاصة مع اليهودية، ودور المخلّصين والمنقذين والحافظين لهذه الديانة الذين أرسلوا من عالم النور. لغة الكتاب مندائية/ آرامية، الكثير من نصوصها بمستوى الصياغات الشعرية. ترجم الكتاب إلى اللغة الألمانية عام 1920 م وإلى العربية والإنكليزية أيضاً.

3- كتاب الأنفس: سيدار اد نشماثا، وهو كتاب يتضمن الطقوس الدينية وكيفية إقامة شعائرها. وعلى رجل الدين أن يحفظ هذا الكتاب من حيث نصوصه وطرائق ممارسة الطقوس فيه لأنه مطلوب منه تأديتها للمندائيين.

4- كتب أخرى هي عبارة عن مخطوطات تسمى "دواوين" كتبت لتتضمن الأدعية والتراتيل التي تتعلق بالصلوات والطقسيات المعتمدة وشروحات وتفاصيل إضافية في بعض المبادئ الأساس في الديانة، وكذلك الأسئلة والاستفسارات التي تتعلق بالحلال والحرام والإجراءات الطقسية ومعالجة الأخطاء التي قد تحصل فيها وسبل نيل الطهارة، وأبرزها:

ديوان الإنياني (الترانيم) للصلوات والتراتيل. ديوان القلستا لمراسيم وترانيم الزواج. ديوان حران كويثا: حران السفلى وهو الوثيقة الوحيدة التي تتضمن سرداً لبعض الأحداث التأريخية. ديوان مصبتا اد هيبل زيوا أي صباغة الملاك هيبل زيوا وفيها نصوص وقراءات الصباغة. ديوان أباثر وفيه نصوص تتعلق بمسيرة النفس بعد الموت والمحطات التي تمر بها وجوانب في محاسبة النفوس المخطئة. ديوان العالم الرئيس الكبير والصغير. ديوان ترسر وألف شيالي أي ألف و 12 سؤالاً وهو يتعلق باحترازات رجال الدين والأخطاء التي يمكن أن يقعوا فيها ومعالجتها فضلا عن أمور أخرى تتعلق بتفسير الجسد المادي ومعلومات عن الأبجدية المندائية.

أغلب هذه الدواوين ترجمت للغة الإنكليزية والعربية.

الفصل الثالث

العبادة، طقوسها وشعائرها

ترد كلمة (أبد) في اللغة المندائية مطابقة للعربية وبالمعنى نفسه أي أطاع وانقاد، وكذلك بمعنى عمل وخدم. وأنْ تكون عبداً أي خادماً، فإنّ هذه الخدمة بالأساس للخالق يقوم بها العبد محبة ورغبة في نيل الرضا من أجل الراحة بعيش سعيد في الدنيا وأمل في الآخرة. وآدم أول من عبد الخالق حينما خرَّ ساجداً بعد أن قام ورأى ما على الأرض، وظل مسبحاً لخالقه. وما من عبادة في ديانة الصابئة المندائيين إلا لله الحي الواحد وهذا ما يرد في كتابهم كنزا ربا: "عبدُ الحي أنا، عبدُ الغريب الذي ليس له شبيه، القوي الحبيب مريد محبيه ومعين مجتبيه ".

ويرد أيضاً في كتاب تعاليم يحيى: "ألا فاعلموا أن ربنا هو ملك النور المتفرد، الواحد الأحد، باسمه نشهد، وله وحده نعبد" .

وكذلك حين يستحلف اليهود يحيى (ع) يقولون له:

"يا يحيى، نستحلفك بملك النور الذي تعبد، أجبنا "

فالتسليم إذاً أن العبادة إنما خالصة صادقة لله الحي ولا لأحد غيره.

أركان العبادة

تتعدد الأسس التي تقوم عليها العبادة عند الصابئة المندائيين بما يشكل أركاناً لها، وعلى الفرد المؤمن القيام بها مجتمعة ذلك أن بمجموعها يتحقق الإيمان، خاصة وأنها تقود إلى تكامل الإخلاص وتحقيق السعادة في عيش رضي وفي أمان وأمل في الفوز بنعيم عالم النور. وأركان العبادة في الديانة المندائية خمسة سنستعرضها بما يوفر معرفة بها ويبقى التفصيل فيها شأن من يرغب بمزيد في مراجعه.

أولا: الشهادة

وتسمى باللغة المندائية "سهدوثا" أي الشهادة للحي وترد كما يأتي: "بسم الحي العظيم، الحي الرب العليم قائم وموجود .أشهد للحي وأشهد لملك النور السامي، الإله العظيم الذي انبعث من ذاته، الذي لا يبطل اسمه أبداً ".

يردد الصابئي المندائي هذه الشهادة في العديد من الطقوس والممارسات الدينية التي يقوم بها. وتقترن الشهادة للحي بالوجود وتأكيدها على ذلك بعبارة "إكا هيي، إكا ماري، إكا مندا اد هيي: الحي موجود الرب موجود العليم موجود" ودائماً تذكر في الحالات التي يجب أن يقر فيها الفرد وجود الحي وغلبته في كل الأمور، وكأنها تلاقي عبارة "لا حول ولا قوة إلا بالله". أما في

التبارك وبيان قدرة الخالق فيذكرون عبارة "بريخيت ماري مشبيت: أبارك وأسبح الرب" وهي تلاقي عبارة "ما شاء الله" . وفي كل الأحوال يوصى بأن يكون ذكر الله الحي دائماً من المؤمنين، فيرد في تعليم يحيى "رأس عبادتك أن لا يزول اسم الله من فمك"، كما يرد عندهم "اسمي بفمكم أنا معكم ". وعلى هذا فإنهم في أي دخول وخروج وأي ابتهاج أو اندهاش أو تدشين أو تناول طعام أو غير ذلك يجب أن يقولوا البسملة وهي" بشما اد هيي ربي: بسم الحي العظيم" . وهذه العبارة تلازم عموم الطقوس والإجراءات التي يقوم بها الفرد الصابئي المندائي حين يقول: "اشما اد هيي واشما اد مندا اد هيي مدخر إلي: اسم الحي، واسم العليم منطوق علي".

ثانيا: الصباغة (التعميد)

وتسمى باللغة المندائية "مصبوتا"، وتتأسس الكلمة على الفعل الآرامي (صبا) والذي يرى البعض أن كلمة صابئة مشتقة منه. والتعميد ركن أساس من أركان الديانة المندائية به يكون الانتساب للدين، ولذلك يوصى بأن تتم صباغة الطفل الرضيع بعد مرور ثلاثين يوماً على ولادته بوصفه رسم انتساب، ثم يصطبغ حين يستطيع ترديد القراءات الدينية بنفسه. وللصابئي المندائي أن يصطبغ ما شاء من المرات، ذلك أن الصباغة طهارة للنفس من

الخطيئة وللبدن من الأدران والنجاسات. وقد تميزت الديانة المندائية بهذا الطقس وعرفت به لأنه طقس علني مشاعي ويجرى في الأنهار، وهي أماكن عامة، فتعرّف عليهم المحيطون بهم والباحثون عنهم من خلالها.

والصباغة عندهم ليست مجرد ارتماس في الماء فقط، بل تبدأ بالنية الخالصة للتطهر والاستغفار وتنتهي بالمباركة بين الصابغ والمصطبغ بعهد للحي الخالق. ولأهمية هذا الموضوع فسيتم تناوله لاحقا بمزيد من التفصيل.

ثالثا: الصلاة

تسمى الصلاة في اللغة المندائية "براخا" أي المباركة والتبارك بذكر الله الخالق. كانت تجرى عندهم خمس مرات، ويذكر أن النبي يحيى (ع) جعلها ثلاث مرات في اليوم في أوقات الفجر مع بزوغ الشمس، وعند الظهر في منتصف النهار، وعند المغرب قبل غروب الشمس. والصلاة فرض واجب على كل صابئي مندائي وصابئية مندائية، الغاية منها التبارك بذكر الله سبحانه والتقرب إليه واقتطاع وقت تعيد فيه النفس ارتباطها بباريها والمكان الذي جاءت منه فتحس بالراحة والانتماء. والصلاة عندهم فردية يقوم بها الفرد لنفسه.

وقبل كل صلاة على الفرد أن يقوم بغسل جميع أعضاء جسمه المكشوفة كاليدين والوجه كاملاً والفم والأنف والعينين والمنخرين والأذنين والركبتين والقدمين لكي تكون هذه الأعضاء نظيفة. وتتشابه الديانة المندائية والإسلامية في هذا بطقس الوضوء. وفي أثناء غسل هذه الأعضاء يقرأ الفرد أدعية خاصة بكل عضو.

فهو حين يغسل يديه مثلاً يذكر: أطهر يدي بالحق وشفتي بالإيمان وأتكلم بكلام النور، وحين يغسل الفم يقول: ليمتلئ فمي بالتسبيح والدعاء، وحين يغسل الأذنين يقول: أذناي تصغيان لصوت الحي، وعند غسل القدمين يقول: قدماي سالكتان في طريق الحق والإيمان ... وهكذا.

تسمى هذه الشعيرة في اللغة المندائية "الرشاما" وتعني إقامة الترسيم.

وبعد الرشاما يقف الفرد باتجاه القبلة[12] ويقوم بأداء الصلاة وقوفاً. والصلاة واجبة، فيرد في كتاب گنزا ربا:

"علمهم الصلاة والتسبيح ليقيموها ويسبحوا لملك النور العلي"

والصلاة إنما التبارك بالحمد للخالق بترديد عبارة: مبارك اسمك أيها الحي.

12 القبلة عند الصابئة المندائيين ليست مكاناً أرضياً بل هي التوجه نحو الشمال الجغرافي حيث يعتقدون أنها بوابة عالم النور

تبدأ بالشهادة ثم يستمر الفرد بقراءات دينية لتسبيح الخالق واستغفاره والانحناء قليلاً حين يذكر اسم الحي للاحترام، فلا سجود على الأرض في أثناء صلاتهم.

وأما النصوص التي تقرأ في كل صلاة فهي في صلاة الفجر:

بسم الحي العظيم، قوموا، قوموا أيها المختارون الصادقون، قوموا أيها الصالحون المؤمنون، قوموا اسجدوا وسبحوا للحي العظيم، سبّحوا لملك السلام، وسبّحوا السر العظيم الذي منه كان الضياء، وسبّحوا الشعاع العظيم، وسبّحوا ذلك السيماء الذي منه كانت كل العوالم، وسبّحوا السر الذي منه صار كل شيء .إني أسجد وأسبّح لملك النور السامي العظيم الذي كله رحمة.

يا رسول النور الطيّب، أيّها المُرسل إلى دار مُحبيه، أقبل واجعل قولي ثابِتاً وفمي ينطق بالتسابيح، فأسبّحُ للحي العظيم دائماً وأبداً.

وأما في صلاة الظهر فيقال:

بسم الحي العظيم، أنا للحي أسجد، ولربي العليم أسبّح، لذلك السيماء العظيم ذي الوقار، الذي من نفسه انبعث.

وأما في صلاة المغرب فيقال:

بسم الحي العظيم، الأذان، حان أذان الرحمة، وحان أذان سيد الأدعية. وصل موقظي هيبل، وواعظي شيتل، ومثبت تراتيلي أنش،

وصابغي بصباغتي شلمي، ومقوّم أدعيتي ندبي[13].
رسول النور الطيب الذي يذهب إلى بيت الرحمة، جاء وثبت كلماتي وفتح فمي بالتسابيح، لأسبّح للحي العظيم دائماً.
أنا للحي أسجد، ولربي العليم أسبّح، لذلك السيماء العظيم ذي الوقار، الذي من نفسه انبعث.
وللفرد أن يدعو ما شاء من الدعوات الصالحة في أثناء صلواته.
وقد حددت الديانة المندائية موقفات إقامة الصلاة، وهي جميعها تتعلق بحالة الفرد حين يكون غير نظيف حيث لا يكون مؤهلاً للقيام بالصلاة ومن ذاك الحالات الآتية:
1- مدة الحيض والطمث لدى المرأة، فعليها أن تتوقف عن القيام بالصلاة خلالها ولا بد من الاغتسال بعد الانتهاء من فترتها.
2- أسبوع الزواج للعروسين، فهذا أسبوع تماس غير نظيف دينياً، ولذلك تتوقف فيه إجراءات الرشاما والبراخا. وعلى الزوجين أن يذهبا بعد انقضائه إلى رجل الدين لينالا مراسيم الصباغة هما والأدوات التي استخدماها.
3- مرحلة الولادة والنفاس لدى المرأة ولمدة شهر، حيث تكون فيه المرأة بوضع لا يسمح لإقامة الطقوس الدينية.

13هذه أسماء ملائكة موكلين كل بدور لمخاطبة النفس وتذكيرها ومتابعتها بما عليها حسبما يرد في ديانتهم

4- الجنابة والاتصال الجنسي بين الزوجين يوجب أن يعقبه القيام بالاغتسال، ولا يمكن القيام بالرشاما والبراخا إلا بعد الطماشا (الإرتماس بالماء).

5- مس الميت، فهذا الأمر يوجب الاغتسال بعدها، ولا يحق لمن يمس الميت القيام بالرشاما والبراخا إلا بعد قيامه بالطماشا أولاً.

ولكي تقام الصلاة لا بد من القدوم بنية خالصة للحي الخالق ملك النور السامي، والالتزام بالموعد المحدد وتوقيته فلا يتم الجمع بين صلاتين، والقيام بالوضوء دون أن ينقضها شيء، وتغطية الرأس بقطعة قماش بيضاء عمامة للرجل وشال للمرأة، الوقوف على شيء نظيف وعدم الانتعال أو لبس حذاء، والوقوف باتجاه الشمال الجغرافي حيث بوابة عالم النور.

وعند القيام بالصلاة يجب مراعاة أنها تبطل في حال عدم توفر شرط من شروطها السابقة، كالتحدث أو الإنصات إلى الآخرين أو الضحك في أثناء تأديتها، أو الأكل أو الشرب في أثناء تأديتها، أو خروج أي شيء من الجسم من ريح أو دم أو بول أو غائط أو سائل منوي. مثل هذه الأمور تبطل الصلاة وتملي القيام بها من جديد هي ورشامتها (وضوؤها).

رابعا: الصوم

الصوم لغة الإمساك عن فعل أو قول، والترك والصمت والامتناع وكل ما يشير إلى التوقف عن أمر محدد. وترد الكلمة في اللغة الآرامية باللفظ والمعنى نفسه "صوما". واشتهر الصوم في الإسلام بالإمساك عن الطعام والشراب من طلوع الشمس وحتى غروبها وتحدد بشهر قمري كامل هو شهر رمضان. ويشار إلى أن عموم الأديان عرفت الصوم ومارسته في حياتها وعباداتها، ولذلك يرد في القرآن الكريم "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون" البقرة 183 وفي هذا إشارة إلى أن الصوم في الإسلام إنما كتب على المسلمين كما كتب على الذين من قبلهم ليكون سنة إلهية.

ولدى الصابئة المندائيين نوعان من الصوم: الأول ويسمونه الصوم الكبير، وهو صوم العقل والضمير عن كل سوء ومنكر وفاحشة. وفي هذا الصوم ترد التوصيات في كتابهم گنزا ربا:

"صمّوا أعينكم عن الغمز واللمز،
صمّوا آذانكم عن التنصت لأبواب الآخرين،
صمّوا أفواهكم عن قول الكذب والزيف،
صمّوا ضمائركم عن ظنون السوء،
صمّوا أيديكم عن ارتكاب القتل والسرقة،
صمّوا ركبكم عن السجود للشيطان،

صمّوا أرجلكم عن السعي في السوء...".

ولا شك في أن هذا الصوم يقوّم النفس ويقوي الأخلاق بالنهي عن الفحشاء والسوء، وكل ما يضر بالفرد والمجتمع. ولم تكتف الديانة المندائية التنبيه في الصوم فيما حددت، بل شرعت من الأحكام والعقوبات التي ستنال الفرد في حال لم يلتزم بذلك وهو ما سيمر بنا في باب أخلاقيات الديانة.

أما الصوم الثاني، فهو الصوم الصغير، ويكون في 36 يوماً متفرقة على أيام السنة يصوم فيها الصابئة المندائيون عن تناول اللحوم وكل طعام فيه روح، كما تتوقف فيها إجراء الطقوس الدينية من قبل رجل الدين للآخرين.

ويرجع السبب في ذلك، كما يعتقدون، أن أحداثاً كبيرة غير مستحبة حصلت في هذه الأيام أملت التحرز فيها. وبعض يذهب إلى أن ذلك مقترن بموروث رافديني بقي يمارس بعد أن درست أسبابه ولم تدون.

خامسا: الصدقة

وتسمى في اللغة المندائية "زدقا" الصدق، والغاية أن تصدق نفسك أولاً وتصدق دينك وإيمانك وربك، وهي ركن أساس من أركان ديانتهم. فعلى الصابئي المندائي أن يلتزم بالتراحم مع أخيه من خلال مساعدة الفقراء والمحتاجين محبة وإيماناً. والصدقة تعني

الاعتراف بفضل الله الواهب، وأن على القادرين أن يهبوا مما وهبهم تقرباً له واقتداء به. وتقديم الصدقات يسجل للفرد الصابئي المندائي حسنات تشهد له في الآخرة ويجازى عنها في غفران الخطايا. ويرد في كتابهم گنزا ربا:

"إن تمدوا يمينكم، فيميني ممدودة معكم. إذا رأيتم أسيراً مؤمناً صادقاً فافتدوه . وإذ تهبون صدقة يا أصفيائي لا تُشهدوا عليها . لا تعلم يمينكم بما وهبت شمالكم، ولا شمالكم بما وهبت يمينكم . بئس من وهب صدقة فأفسدها بالتشهير. إذا رأيتم جائعاً فأطعموه، وإذا رأيتم عطشان فاسقوه، وإذا رأيتم عارياً فاكسوه. الصدقة واجب على كل إنسان. هبوا صدقة للعاني، هبوا الخبز والماء والمأوى للمحتاجين من الناس. هب صدقة للمحتاج وكن دليلاً للأعمى. وإن وهبتم الصدقة فلا تجاهروا بها، فإن وهبتم بيمينكم لا تخبروا شمالكم، وإن وهبتم بشمالكم فلا تخبروا يمينكم" .

ولأهمية تقديم الصدقات فإن هنالك نصوصاً دينية عديدة تحث الصابئي المندائي على تقديمها وكيف أن النفس حين تقف أمام باريها يتم سؤالها عن الصدقات التي قدمتها في الحياة الدنيا ابتغاءً لوجه الله تعالى وليس من أجل التباهي أو الجاه فيرد في تعاليمهم: إن قدمتم الصدقات فلا تطلبوا شهادة عليها. حسانتي قدّامي، وأعمالي تسبق أقدامي.

ومن وصايا النبي يحيى (ع) في كتابه:
رأس صدقتك ونعمتك أن تطعم الجائع وتسقي العطشان.
يا تلاميذي تريثوا واهدأوا، كونوا رحماء بعضكم لبعض، أعطوا الصدقة العظيمة التي هي أفضل من الزوج والأبناء.
الصدقة تُطلب في الطريق فهي كاليد للفم، الصدقة ترتجى في الطريق فهي كالدليل للأعمى، فإذا انعدمت الصدقة ليس هناك أجر ولا رفقة.
ويل للذين يتناسون الصدقة ولم يمنحوها، ويل لمن نسوا أمر الخالق بأدائها.
وحين تقف النفس في محطات الحساب تحاسب عن أعمالها والصدقات التي قدمتها هي بيدها تكون شاهدة لها. ولا ينفعها أن يكون أبوها أو أمها قد قدما الصدقات، فكل يقدم عن نفسه وتكون له في سجله.

الطقوس والشعائر الدينية وإجراءاتها

كلمة طقس معربة، لها أصل في اللغة المندائية والسريانية حيث ترد على "طاكسا" بمعنى النظام والترتيب، ومنها انسحبت إلى العامية العراقية بمفردة "امتكس" بمعنى مرتب[14]. وكذلك ترد في اللغة

14 د. قيس السعدي، طقوس الصابئة المندائيين رموز ومعاني، دار درابشا ألمانيا 2015

اليونانية على Takista وهي بجميع اللغات تعني النظام والترتيب. فالطقس الديني هو مجموعة الإجراءات المنظّمة والمرتّبة المرتبطة بمعتقد معين التي يتم إجراؤها بشكل ثابت ودوري من أجل إظهار المشاعر والأحاسيس وتعابير النفس الإيمانية إزاء أحداث وحالات أساس في حياة الفرد والجماعة. وقد قاد ذلك أن يسعى الدين لإقران المعتقد بأسلوب ممارسة (سلوك طقسي) كما في الوضوء والصلاة مع ديمومة منتظمة مقصودة، بل واستغلال مناسبات واقعة في حياة الفرد وإضفاء معانٍ معينة عليها لتمارس فيها الطقوس تكريماً لها ولقيمتها من جهة، وتعزيزاً للمعتقد وطقوسه من جهة أخرى. أبرز ذلك مندائياً، حالات ثلاث هي: الولادة، والزواج، والوفاة، وسنتناولها لاحقا.

كما صنعت الأديان أعياداً من مناسبات معينة، التي باستمرار ممارساتها الطقسية والاجتماعية وما تحققه من راحة، تصبح شيئاً ينتظر، بل وحاجة نفسية يسعى الفرد لإشباعها لاقترانها بالفرح والبهجة الجماعية كما في صيام شهر رمضان والحج عند المسلمين. فالذي اعتاد الصلاة يتحسس حاجتها وتنبهه الساعة البايولوجية في جسمه لمواقيتها.

وتكتسب الطقوس الدينية أهميتها لأنها تخاطب الروح، بل وتخرج منها في العواطف والانفعالات. وهكذا أنشأت كل ديانة نظامها الطقسي الذي تحرّك به وجدان تابعيها طالما أن جميع معتقدات

الأديان تلتقي في الإيمان بالخالق وباليوم الآخر والقيام بالعمل الصالح.
وديانة الصابئة المندائيين لها من الطقوس التي أوجبت القيام بها طهارة وتزكية للنفس من أجل حياة أفضل وتزوداً بها للمآل حين تغادر هذا العالم وتلزم بالحرص عليها سعياً للاقتداء بكمال الخالق. ولأهميتها سنتعرض لها تفصيلاً في الفصول القادمة.

متطلبات إجراء الطقوس الدينية

تحرص الديانة المندائية على إجراء الطقوس التي تعبر بها عن إيمانها والتزامها بالدين محبة بالخالق واقتداء به من أجل تنقية النفس والبدن ليعيش حياته في هذه الدنيا طاهراً هانئاً متحاباً متعاوناً آمناً، كما أن ذلك يكون عوناً لنفسه في الارتقاء بعد أن تفارق الجسد صاعدة إلى عالم النور موطنها الأول. ولذلك نرى ديانتهم تتشدد كثيراً في هذه الطقوس إلى الحد الذي تظهر وكأن الديانة طقسية بالدرجة الأساس. وقد حددت كثير من الشروط والإجراءات وألزمت بأن أي نقص فيها يؤدي إلى توقف إجرائها ويملي إعادتها. كما أن أي خطأ في بعضها يشكل خطيئة يتطلب التكفير عنها بإجراء طقوس عديدة من قبل رجل الدين القائم عليها وتستنفد وقتاً وجهداً، وما ذاك إلا لسعي المخلوق من أجل الكمال اقتداء بكمال الخالق.

ولكي يتم تأدية هذه الطقوس والقيام بها فإن هنالك متطلبات ملزمة يجب توفيرها بالمستوى المؤهل للممارسة. وقد وجدنا من المناسب عرضها لأهميتها.

أولا- رجل الدين

يعد رجل الدين عنصراً أساساً في إقامة الطقوس الدينية فهو صاحب المعرفة المندائية، وهو الأساس في إقامة الطقوس الدينية التي لا يقام أغلبها إلا بوجوده ومن خلاله. وتحرص الديانة المندائية بأن يكون رجل الدين صالحاً وليس فيه أي عيب خَلقي أو خُلقي، ولذلك فلا يحق لأي فرد صابئي مندائي أن يكون رجل دين، بل لا بد من أن يكون من أسرة سليمة النسل دينياً، وقد تمتد سلامة النسل إلى الجد السابع حرصاً على السلامة والأهلية. والتزمت في ذلك يلزم المندائيين بالأصول الصحيحة بما يبقي على نقاء السريرة وصلاح النفس والبدن . ولكي يصبح المندائي رجل دين، فإن هنالك إجراءات طويلة ومعقدة لذلك. وعندما تتوافر هذه

المواصفات في الشخص، تأتي مرحلة الإعداد والتهيئة المسبقة التي قد تطول حتى يتمكن الفرد من القراءة والكتابة باللغة المندائية ومعرفة النصوص وحفظها والقدرة على إجراء الطقوس وممارستها بشكل صحيح. ثم تأتي الخطوة الأخيرة في ترسيمه الذي يستمر لمدة سبعة أيام بنهاراتها ولياليها بما تتضمنه من صباغات وقراءات تصاحبها احتفالات دينية يحضرها عامة المندائيين في المنطقة احتفالاً بهذا الحدث السار الكبير وتختتم بعد ستين يوما بقيام المرشح بتعميد معلمه الذي أشرف على تكريسه.

الدرجات الدينية

يشتمل السلك الديني على خمس درجات، يشترط لمن يسعى نيلها أن تتوفر فيه شروط محددة والقيام بطقوس ملزمة. كما أن هنالك أعمالاً مناطة يجب أن تقام من قبله لكي يتحقق له نيل الدرجة. وهذه الدرجات هي:

1- درجة شگندا[15] وهي أولى المراتب الدينية التي تتطلب ممن يريد نيلها أن يكون سليم النسب لا تشوبه شائبة، وأن تتم صباغته

15 يرد معناها المعجمي" الرسول"، وقد نظرت إلى المعنى تأسيساً على التركيبة اللغوية للكلمة وتجزئتها إلى مقطعين "شگا" ويعني الخطأ، والفعل "ندا" الذي يعني الطرد والإبعاد. فمعنى الكلمة يمكن أن يكون مبعد الخطأ .وهذا هو الدور الفعلي لمن يقوم بهذا العمل، إذ عليه مراقبة من يساعده دفعاً لأي خطأ أو زلل .بل إن هذا

ويكون ملتزماً بجميع الضوابط الدينية من حيث عدم قص شعر الرأس واللحية، والالتزام بشروط المأكل والمشرب، وإقامة الشعائر والفروض الدينية. وبناءً على هذا يكون الشگندا مؤهلاً للترشيح والتكريس لمرتبة ترميذا. والشگندا له دور أساس في إجراء الطقوس الدينية من حيث مساعدة رجال الدين فيها ويكون شاهداً على إقامتها، وبدونه يتوقف إجراء العديد من هذه الطقوس.

2- درجة ترميذا، وتعني المتعلم الممارس، وينال المرشح هذه الدرجة بعد إجراء طقوس التكريس الخاصة له من قبل عدد من رجال الدين. وبعد إكمالها يحصل على الدرجة وعلى الأدوات الطقسية التي ذكرناها.

3- درجة گنزبرا، وهذه درجة متقدمة وأساس. ومن أهميتها أن طقس تكريس رجل دين جديد، وترقية الترميذا إلى درجة أعلى، وطقس الزواج، وطقس الارتقاء لا تقام أساساً إلا بوجود رجل دين بهذه الدرجة. وتفرض هذه الدرجة على من يطلب نيلها حفظ جميع الكتب الدينية والقدرة على شرحها وتفسيرها، كما أن لها طقوساً دينية خاصة لغرض نيلها.

4- درجة ريش إما، وتعني رئيس أمة. يحصل على هذه الدرجة من هو بدرجة گنزبرا وقام بتكريس ما لا يقل عن سبعة رجال جدد لنيل

يتطابق ودور الرسول في أنه الهادي والمعلم الذي يدفع خطأ وزلل الناس عن الإيمان الحق بالخالق.

درجة ترميذا. وهذا العدد، فوق أنه عدد اعتباري، فإنه يشير إلى طول المدة الزمنية التي يقضيها رجل الدين وهو بدرجة گنزبرا ليتمكن من تكريس سبعة رجال دين جدد، وقد لا يحصل ذلك.

5- درجة الربّاني، وهذه المرتبة هي أعلى المراتب الدينية التي يمكن أن يصل إليها نفر من البشر، وهي تمثل درجة النقاء والانتقاء، فمن يصل إليها يؤهل لأن يكون بمنزلة استلام التعليمات الموحاة من الملائكة، وبالمرتبة الأدنى لمرتبة الملائكة. والرباني تعني المعلم والمربي الذي توكل له مهام التعليم والتربية لأمور الدين بين البشر. ولا يصل إلى هذه المرتبة إلّا من تم اختياره لمهام كبيرة أمثال الرَّبَاني يحيى بن زكريا.

ثانيا- الماء الجاري: (يردنا)

الماء أول خلق الله، وأهم خلقه المادي، وفيه يتمثل إعجاز الحياة. جرى أولاً، بحسب المعتقد المندائي، في عالم النور أنهاراً وجداول، ثم أنزل إلى الأرض بعد أن صُلبت وجرى فيها. ويرد عند المندائيين أن ثمانية أتساع الماء الموجود على الأرض أجاج غير حي وغير صالح للشرب، والجزء التاسع هو الحي لأنه جاء من السماء وهبط من عالم النور فجعل ماء الأنهار حلواً فراتاً. ولأنه ماء مقدس فقد تقدّس ماء الأنهار وتميز عن ماء البحار والمحيطات الذي ظل أجاجاً. وهكذا يصبح الماء حلقة الوصل بين عالم النور

والأرض، فالنصوص المندائية تقرن دائماً بين النور والماء والحياة. فلا غرابة أن يكون الماء هو العصب الأساس لإجراء عموم الطقوس الدينية إلى الحد الذي لا يمكن تصور ديانة الصابئة المندائيين من دون وجوده. ومن أجل هذا سكنوا بالقرب من الأنهار ولم يفارقوها. فلا صباغة بدون الارتماس بالماء الجاري، ولا تطهر إلا بالارتماس بالماء، ولا وفاة صحيحة دون أن يسكب الماء على المحتضر قبل وفاته، وبعد الاتصال الجنسي بين الزوجين، وللأم بعد ولادتها، وللغسل والتطهر قبل عملية الذبح وبعدها، ولتطهير الأواني والأدوات الطقسية والمنزلية. وتقدم جرعات منه في أثناء رسم الصباغة ويسمى حينذاك "ممبوها" ويعتمد لعمل الشراب الذي يقدم إشارة للصحة والإخصاب[16].. وغير ذلك، ناهيك عن الحاجات المتعددة المعروفة له. ومن قيمة الماء عندهم أن جُعل له ملاكان حارسان هما "شلماي وندباي" لكي لا يتسلط الشر عليه.

ومن أبرز النصوص التي نقرأها في كتاب گنزا ربا عن الماء:

"مع المياه تدفقت الحياة، الحياة مع المياه تدفقت، منها انبثقت، وفيها أشرقت، فأقام في أضويتها اسم التعليم الحي، وفيه ثبت. "

16 شراب مكون من منقوع العنب والتمر في الماء وهو غير مخمر يقدم في طقس الزواج علامة للإخصاب

"من بيت الحي جيء بالماء الحي . دفقة من الماء الحي جيء بها من بيت الحي، وألقيت في العالم".

ثالثا- بيت العبادة (بيت مندا)

تطلق كلمة (بيت مندا)على دار العبادة الذي تقام فيه الطقوس واللقاءات بين المندائيين . وكلمة (بيت) ترد كما بمعناها العربي، أما كلمة (مندا) فتشير إلى المعرفة بحسب معنى الفعل "يدا" في اللغة المندائية.

وغالباً ما تعرف هذه الدار عند المندائيين بال "مندي". والأساس في بيت مندا، هو بناء على شكل كوخ قصبي ليس كبيراً يبنى بمحاذاة النهر، وتكون فيه باب واحدة في الجنوب بحيث يواجه الداخل منها اتجاه الشمال. وتكون بمحاذاته قناة ماء مرتبطة بالنهر. وهذا البناء يتم تكريسه بطقوس دينية في أيام الفرونايي (أيام الخلق) ليكون جاهزاً لإجراءات دينية وخاصة الإجراء المرتبط بطقس الارتقاء للمتوفين، وطقس إرتقاء رجال الدين من درجة دينية إلى أخرى .

وصارت هذه التسمية تطلق أيضاً على البناء المخصص لالتقاء المندائيين بشكل مجتمع في الأعياد والمناسبات وكذلك للتداول في شؤونهم الحياتية واستقبال الآخرين، ثم صار المكان مَعلماً يُعلِم بموقع وجود الصابئة المندائيين كما الكنيسة والجامع. وأبرز

المنادي من حيث البناء والأهمية هو المندي الكبير الذي بناه الصابئة المندائيون في مدينة بغداد عام 1985 ، ثم مندي الشيخ دخيل الشيخ عيدان الذي افتتح في أستراليا عام 2012 .

رابعا- القبلة

"إنّه البهيّ الذي يقيم في الشمال القصي" گنزا ربا.

يحرص الصابئة المندائيون على استقبال عالم النور عند إجراء طقوسهم الدينية. وهم يعتقدون بأن الشمال الجغرافي هو بوابة هذا العالم فهو رأس الاتجاهات الأربعة، ولذلك صار الشمال وجهتهم وقبلتهم خاصة وأنهم لا يقدسون شيئاً مادياً على الأرض. في النهار يحددون الشمال قياساً على طلوع الشمس، يقفون بحيث يكون الشروق على يمينهم فتكون وجوههم مصوبة نحو الشمال. أما في

الليل فيستدلون على ذلك من خلال النجم القطبي[17] ذلك أن هذا النجم لا يغيب في السماء ولا يغير موقعه طيلة أيام السنة، وقيمته بذلك جغرافية وليست دينية.

واحتراماً لذلك فإن جميع الشعائر والطقوس الدينية تملي بأن يكون التوجه فيها إلى جهة الشمال، فباب بيت العبادة تكون بجهة الجنوب ليكون الداخل متجهاً نحو الشمال، ويجلس المصطبغون في أثناء طقس التعميد باتجاه الشمال أيضاً، وكذلك العروسان في عقد القران، والمحتضر يوضع باتجاه الشمال، وحين يُدفن المتوفى يوضع في القبر بحيث يكون وجهه مواجهاً للشمال عند الوقوف، وتتم عملية الذبح بعد أن يجلس الذابح ووجهه باتجاه الشمال، وحين تتطلب بعض الطقوس الدينية نصب الراية المندائية وهي شعارهم فإنها تثبت باتجاه الشمال أيضاً. بل يُفضل أن النائم حين ينام يكون وجهه باتجاه الشمال، فإن وافته المنية وهو نائم يكون قد حقق شرطاً من شروط ديانته، كما أن استقبال الشمال في النوم أفضل من استقبال الجنوب حسبما يرد عندهم.

17 ربما البعض اعتمد هذا ظناً خاطئاً أن الصابئة المندائيين يعبدون النجوم أو الكواكب!

خامسا- الراية (درابشا)

تعتمد الراية في عدد من الطقوس المندائية وتحمل معاني قدسية لأنها تمثل أسرار النور والضياء والوقار، ولذلك فإن مكوناتها ومواصفاتها وطريقة إعدادها محددة بمعانيها. وهي تتكون من أربعة أجزاء أساس:

الجزء الأول: عمودا الضوء، وهما قضيبان من القصب، الأول عمودي طوله حوالي متر ونصف، والثاني أفقي طوله حوالي متر واحد، يكون مثقوباً أفقياً من الوسط ، وهناك ثقبان عموديان في كل طرف من طرفيه ليمرر من خلالهما خيطان من الحرير يربطان بأسفل القضيب العمودي حتى لا يتحرك القضيب الأفقي. هكذا يتم تثبيت القضيبين بشكل علامة (+).

والجزء الثاني: هو حلة الضياء، عبارة نسيج من الحرير الخالص الأبيض بطول ثلاثة أمتار ونصف وبعرض 60 سنتيمتراً وينتهي بأهداب بطول 15سنتيمتراً، وينسج من 60 خيطاً لكل مقطع من

مقاطعه وتمثل 60 سراً وهو ما يشير إلى التكامل، وكأنها عيون للضوء والوقار. يلف هذا النسيج على جانبي القضيبين المتعامدين من اليمين إلى اليسار بحيث تتدلى الأهداب على جهة اليسار منه، ويكون الجزء المشرشب مقابلاً ليمين الشخص المواجه له والجهة اليسرى تكون مطوية ويشكل نصب الدرابشا فكرة عكس النور على المكان الذي ينتصب فيه وعلى الأفراد الذين يحضرون الطقس الديني. ولقيمته الكبيرة فهو لا ينصب إلّا في المناسبات الدينية الكبيرة والعامة.

والجزء الثالث: هو الآس حيث توضع سبعة أغصان من نبات الآس في الأعلى عند مكان التقاء القضيبين.

والجزء الرابع: هو التاج حيث يتوج الراية بأربعة خيوط من الحرير تربط من الوسط بحلقة من الذهب، يوضع نصف الخيوط باتجاه اليمين والنصف الآخر باتجاه اليسار.

سادسا- الاسم الديني (ملواشا)

وهو الاسم الديني الذي يتم اختياره للفرد المندائي على أساس (طالعه) في ساعة الولادة والشهر الذي حصلت فيه الولادة ويضاف لها المقطع الأول من اسم والدته. أما ساعة الولادة فلقيمتها بوصفها حدثاً، وأما شهر الولادة فلقيمة الأشهر وأبراجها وتأثيراتها. ونرى أن كلمة "ملواشا" مركبة من كلمتين هما "ميلا، شايتا" الكلمة

الأولى تعني: دخول، والكلمة الثانية تعني الساعة، وعلى هذا يكون المعنى دخول الساعة، أي الساعة التي كان فيها دخول المولود إلى الدنيا لقيمة هذا الحدث وتوقيته في أن يكون طالعه في الدنيا.

ويقترن اسم المولود عند الصابئة المندائيين باسم أمه حصراً ذلك أن الأم هي التي تحمل سر الولادة. وهو اعتراف بالفضل لمن حملته وغذته تسعة أشهر وستقوم على رعايته. وبعد أن صار المولود يتسمى باسم مدني، صارت (الملواشا) تعبيراً عن الاسم الديني للشخص المندائي تذكر عند إجراء جميع الطقوس الدينية بوصفها تسمية لصاحبها من الأحياء والأموات، ولا يتم الطقس الديني المقام للأفراد إلا بذكرها.

سابعا- اللباس الديني (رستا)

وهي اللباس أو الحلة الدينية التي يلبسها جميع المندائيين سواء رجال دين أو النساء والرجال في أثناء إجراء الطقوس الدينية في

الصباغة والزواج والوفاة. وكلمة "رستا" تعني الاستقامة والصدق. وهي رداء أبيض يرمز إلى كساء النور الذي يغطي الأنفس يتساوى في لبسها الفقير والغني. تتكون من خمس قطع من القماش الأبيض للشخص المندائي العادي بما يكفي لتغطية أعضاء الجسم كافة، ومن سبع قطع لرجل الدين وهي:

1- القميص، ويخاط مثل الثوب العربي بردن كاملة، ويكون طوله بطول الفرد تقريباً. وتخاط في أعلاه من جهة اليمين لفتحة الصدر قطعتان صغيرتان من القماش تشكلان معاً ما يشبه الجيب توضع فيهما قطعتان صغيرتان جداً من الذهب والفضة عند الوفاة إشارة رمزية إلى الروح والنفس، أو لوضع قنينة زيت السمسم في ملابس المحتضر في أثناء المراسيم المعتمدة في ارتقاء رجل دين من منزلة ترميذا إلى منزلة كنزبرا.

2- النصيف أو القابوع، وهو قطعة غير عريضة من القماش نفسه تلقى على الكتفين بطول متر ونصف تقريباً تقطع بحيث يكون جانب منها محاك بحسب حياكة القماش ويترك الجانب الآخر مقصوصاً مهدباً من دون خياطة فالنهايات في المعتقد المندائي تكون مفتوحة دائماً لأنها ليست بيد الإنسان بل بإرادة الخالق.

3- السروال، وهو كما البنطلون يكون طويلاً بطول الساقين، وواسعاً من جهة المقعد ويلبس تحت القميص. ويكون فيه حزام

وهو شريط من القماش نفسه يخاط مجوفاً ويمرر بجيب في أعلى قطر السروال.

4- العمامة، وهي قطعة قماش أبيض عرضها حوالي نصف متر وطولها يصل إلى مترين تقريباً بما يكفي لتغطية الرأس بعد لفه بها ثلاث مرات.. ويكون ذلك بفتل الطرف الأيمن ولفه على الرأس من اليمين إلى اليسار بعكس عقارب الساعة ويدس الطرف في اللفة ذاتها، أما الطرف الأيسر فيترك مدلى على الكتف الأيسر إلى حد الحزام تقريباً لتعمل على إنارة جهة اليسار. والعمامة بالنسبة للمرأة تربط بشكل مختلف عما هي لدى الرجل، فهي تكون بشكل شال يغطي الرأس وتسمى "شيالا".

6- الزنار "هميانا"، وهو نسيج مجوف من صوف خروف ذكر حي، يحاك بطريقة خاصة من 60 خيطاً والخيط الـ 61 يتم النسج به[18]. يبلغ طول الهميانا 2 - 3 متراً. إحدى نهايتي الهميانا تتشكل بشكل حلقة تسمى عروة وتشير إلى منبع الماء لأنها تكون كعين الماء أو عين الضياء، والنهاية الأخرى تترك مشرشبة غير مخيطة وتسمى "كركوشا" وتشير إلى جداول الماء المنسابة من العين أو أشعة الضياء. وللهميانا قدسية متميزة في اللباس الديني فبدونها لا يؤخذ

18 فما يؤخذ من ميت يعد نجساً وميتاً، خاصة وأن قيمة الهميانا عالية في اللباس الديني وتشكيلها من 60 خيطاً بحسب النظام الستيني المعتمد في الديانة وأساسه بابلي بإشارة إلى مكونات بدن الإنسان.

عهد، وهي تحفظ لابسها من شرور الدنيا، والرجل الورع يقوم بلبس الهميان حتى في يومه الاعتيادي خلال النهار. وحرصاً على صحة ربط الهميان يقوم رجل الدين بنفسه بعملية الربط لمن يريد لبسه أو يتأكد من عملية الربط، ذلك أن أي خطأ في الربط يجعل الطقس المقام ناقصاً وغير صحيح. ويرد أيضاً:

"ويل لمن لا يربط الهميان وويل لمن يربطه ولا يعرف معناه"

أما رجل الدين فيتميز في لباسه فضلاً عما سبق بالقطع الآتية:

+ التاج وهو حلقة مجوفة منسوجة من الحرير أو القطن الأبيض، ذلك أن رجل الدين حينما يتم تكريسه في السلك الديني يتوج ملكاً، وعلامة ذلك هذا التاج الذي يمنح له في مراسيم التكريس. يضع رجل الدين التاج عند البدء بإجراء طقوسه وهو يمثل تاج النور حيث يوضع تحت العمامة. إن سقوطه من على رأس رجل الدين أو انزلاقه من يده يحتم عليه أن يصطبغ من قبل ثلاثة رجال دين.

+ الصولجان "مرگنا" وغالباً ما يكون من شجر الزيتون وبطول مناسب قد يصل إلى أكثر من متر ونصف. ولأن المرگنا من النبت فيمكن أن تعد رمزاً للماء الحي في الوقت الذي تعد فيه الرستا رمزاً للنور. ويعتمد كل رجل دين المرگنا الخاص به.

+ الختم، وهو عبارة عن حلقة من الذهب الخالص يلبسه رجل الدين في خنصر يده اليمنى ليكون في أقصى اليمين، وتكتب على

وجهه عبارة "شوم ياور زيوا: اسم عظيم الضياء" بشكل مقلوب لتكون كالختم الذي يختم به رجل الدين الماء والأشياء فتظهر الكتابة بشكلها الصحيح. ولا يجوز خلعه في أثناء إجراء الطقوس الدينية، ويفضل لبسه باستمرار.

ولأن هذه الأشياء الثلاثة خاصة برجل الدين دون سواه فهي تلازمه طيلة حياته وعمله الديني، وتبقى معه حتى بعد مماته، ولذلك يوصى بأن تدفن معه في قبره.

ثامنا- إكليل الآس (كليلا)

ينظر المندائيون إلى نبات الآس على أنه سر من أسرار عالم النور، ولذلك يصنعون من أغصانه إكليلاً يعتمدونه في عدد من طقوسهم

الدينية. وحيث بعد التاج رمزاً للضوء وأنه سر نقاء الأبوّة كنقاوة الذهب، فإن الإكليل يعد رمزاً للنور وهو سر نقاوة الأم كنقاوة الفضة. وهو غصن طري من نبات الآس تنزع بعض أوراقه من الأسفل ويشق إلى نصفين ثم يلف الطرف الأيمن ثلاث مرات ويلف الطرف الأيسر مرتين، ثم يقوس الغصن الملفوف حول نفسه ليشكل حلقة صغيرة أشبه بالخاتم طرفها المورق يبقى ممتداً . والإكليل أساس للمصطبغ في مراسيم الصباغة، حيث يلازمه طيلة إجراء هذا الطقس. يلبسه أولاً في خنصر اليد اليمنى، ثم ينزعه رجل الدين بعد الغطس في الماء ويضعه تحت عمامة المصطبغ. وبعد انتهاء مراسيم الصباغة يقوم المصطبغ برميه في الماء الجاري تأكيداً للتعميد بالماء وإشارة لديمومة الحياة. وفي مراسيم الزواج يعتمد الإكليل أيضاً لكل من الزوجين ليمثل سر الإخصاب واخضرار حياتهما دائماً. ويتم الحرص على أن لا يتوفى الشخص إلا بعد أن يوضع إكليل الآس الذي يعمل باسمه الديني على جبينه الأيمن وتحت عمامته للإيمان بأن ذلك سينير طريقه في مسيرة ارتقائه.

التقويم والأعياد والمناسبات الدينية

التقويم وحدة قياس دورة الزمن للأيام والأسابيع والشهور. وقد حسب إنسان وادي الرافدين المدة ما بين غروبين للشمس وسماها

يوماً. أما حساب الأسابيع والأشهر فقد اقترن بالقمر منذ بداية ظهوره هلالاً وتغيُّر شكله كل سبعة أيام، وحسبوا ذلك من بداية كل شكل له فكان7 ، 14 ، 21 ،28. هكذا استند التقويم العراقي في تحديد مدة الشهر للمدة الزمنية ما بين هلالين متتاليين، وقد سميت هذه المدة شهراً. والشهر في اللغة يعني الإعلام والإظهار وقد اقترن بظهور الهلال بوصفه علامة وإشهار، بل إن القمر يسمى شهراً أيضاً لشهرته وظهوره. والشمس علامة على بدء اليوم فهي تظهر في الصباح من كل يوم، أما الهلال فعلامة الشهر لأنه يظهر مرة واحدة كل 29 أو 30 يوماً. فإن اعتمدت الشمس لتمييز النهار ويومه، فإن القمر اعتمد لتمييز الشهر. والحاجة لتمييز الاثنين مطلوبة ولذلك عرفت المناسبات الأساس في العبادات بحسب تواريخها القمرية. وصارت عبادات اليوم محددة مراحل النهار من الشمس. ولقيمة الشهر صار المندائيون يحتفلون بمقدمه ويعدون اليوم الذي يبدأ فيه رأساً للشهر ويكون يوماً طاهراً، كما أن أيام غياب القمر يمكن أن تكون أيام نحس ينصح بالتحرز فيها.

التقويم شمسي عند الصابئة المندائيين، وقد اعتمدوا السنة المعتدلة المكونة من 360 يوماً مقسمة على 12 شهراً بواقع 30 يوماً للشهر الواحد بتكامل الدائرة. وهذا العدد يقل عن عدد أيام السنة بالحساب الشمسي الذي يكون 365 يوماً وربع اليوم، وهي المدة التي تقطع الشمس فيها الفُلك بدورة واحدة. وحَسبَ الصابئة

المندائيون الأيام الخمسة المتبقية زمناً منفصلاً قائماً بحد ذاته وخارجاً عن التوقيت الزمني لسنتهم، لإيمانهم بأن تجليات صفات الخالق حدثت فيها، وهي حصة عالم النور في العالم الأرضي. ومثل هذا كان سارياً لدى بلاد فارس الذين سنتهم 360 يوماً أيضاً، وأفردوا الأيام الخمسة الزائدة وسموها المسترقة، وكبسوا الربع في كل مائة وعشرين سنة ليكون شهراً. ومثلهم فعل الفراعنة في التقويم المصري الذي أيام السنة فيه 360 يوماً مقسمة على 12 شهراً والأيام الخمسة أيام عيد لا تدخل في زمن السنة يسمى "عيد شم النسيم"، وما زالوا يحتفلون به إلى يومنا هذا. ومشكلة هذا التقويم في ربع اليوم الذي صار يكبس في السنة الشمسية كل أربع سنوات بيوم واحد يضاف إلى شهر شباط فحلت بذلك مشكلته تقريباً. أما التقاويم الأخرى فقد تغيرت التوقيتات فيها.

وقد زحفت المواعيد عن توقيتاتها لدى الصابئة المندائيين، وتغيرت مواعيد المناسبات الدينية المحددة بزمن معين حسب تأريخ وقوعها والاحتفاء بمناسبتها من حيث الفصول المختلفة، وأصبحت كل مناسبة تتقدم يوماً واحداً كل أربع سنوات مما جعل هذه المناسبات ليست في مواقعها قياساً بالتقويم الشمسي الأول. وبقدر الحاجة لتثبيت التوقيتات تأسيساً على أصلها ومناسباتها حتى من حيث التوقيت الفصلي المناخي في بلاد ما بين النهرين، إلا أن المندائيين لم يقدموا على ذلك لحد الآن!

ويرى البعض أنه طالما كل شيء في الكون متحرك فالزمن كذلك، ذلك أن كل ثابت فاسد حتى الزمن. وتظهر نتائج عدم التثبيت في أن أصل الاحتفال برأس السنة لدى الصابئة المندائيين يجب أن يكون في بداية شهر شباط الميلادي، في حين نجده اليوم يأتي في منتصف شهر تموز الميلادي.

وتقسم السنة المندائية إلى أربعة فصول هي الشتاء "ستوا"، يليه الربيع "بهار"، ثم الصيف "كيطا"، وتنتهي بفصل الخريف "فايز"، وكل فصل مدته ثلاثة أشهر: أول الفصل وأوسطه وآخره.

الأعياد والمناسبات

لأن الديانة المندائية ديانة روحانية، فإن مناسباتها الدينية لم تُقرن بأحداث دنيوية أو شخصية، بل تتحدد هذه المناسبات بأحداث حصلت في العالم العلوي، عالم النور، ذلك أن عقيدتهم لا تعطي قيمة للأرض، وتعدها خلقاً متأخراً قياساً بما حصل في عالم النور. وما يقترن بها من موجودات وأحداث إنما هو هبوط من عالم النور من أجل الإصلاح والازدهار. وترد الإشارة في كتبهم وتعاليمهم أن هذه الأحداث صارت بأزمان معينة في عالم النور.

وتتمثل هذه المناسبات في تجلي الخالق عن نفسه، وفي خلق وتكوين أول أثيري مثّل الحياة الثانية، وفي الخلق والتكوين العلوي وتكامله، وفي الصباغة الأولى في عالم النور، وفي هبوط الملاك

جبرائيل (هيبل زيوا) لتعمير الأرض وإزهارها. وقد اقترنت هذه الأحداث بطبيعة المناخ على أرض بابل فتمثلت بسمات الفصول على الأرض وصار في تعاقب هذه الفصول ذكر لها. ولقيمة هذه المناسبات، بأحداثها، شكلت قدسية كبيرة أوجبت العقيدة المندائية الاحتفاء بها وإحياءها، ونصّت على ذلك ذكراً وتقديساً مقترناً بالفرح والبهجة، فصارت أعياداً. والعيد عندهم يتميز بالإجراءات الطقسية وبالفرح والبهجة والسرور الملازمين للمناسبة.

ومن الأمور المثيرة أن فلسفة العقيدة المندائية تقوم على مناظرة فكرة تجسد الخلق العلوي الكبير الذي حصل في عالم النور بخلق الإنسان خلقة صغرى في العالم الأرضي، لذلك يمكن أن تتابع هذه المراحل في مراحل تكون ونمو الإنسان مضغة وجنيناً في رحم الأم حتى تكامل أعضائه وولادته، ومن ثم صباغته (تعميده) بعد اليوم الثلاثين والاحتفال بكل مرحلة من هذه المراحل عيداً يماثل مراحل الخلق العلوي.

وفيما يأتي عرض للأعياد بحسب معانيها ومناسباتها من السنة المندائية:

1- العيد الكبير (دِهبا ربّا)

وهو عيد رأس السنة المندائية، ويكون في الأول من شهر شباط المندائي. يرد عندهم أن هذه المناسبة هي ذكرى بداية الخلق

وتجلي الذات العليا بهيئة العقل العظيم، فصارت بداية السنة عند المندائيين احتفاء بمناسبة مرتبطة بخلق العالم العلوي.
وجدير بالذكر أن المندائيين لا يحتفلون في مناسبة العيد الكبير بخلق الخالق لنفسه، ففي ذلك معارضة لفلسفة الدين التي ترى أن الذات العليا هي قبل الزمان ووجودها أقدم وسابق لكل مدركات العقل. أما العقل الكبير (مانا ربا كبيرا) فصار من الحي. وتتم ممثالة هذا الحدث العظيم ببداية تشكل الجنين ليكون الإنسان كخلقة صغرى في العالم الأرضي. ويقترن زمن الاحتفال الأول بها بنزول قطرة المطر الأولى التي تحيي الأرض في بلاد ما بين النهرين.
لقد دأب الصابئة المندائيون على الاحتفال بهذا العيد بشعائر متميزة عرفوها وعُرفوا بها في المجتمعات التي عاشوا بينها، تتمثل بالاعتكاف في منازلهم مدة 36 ساعة هي 12 ساعة ليلة السنة المنتهية و24 ساعة يوم السنة الأولى فيكون المجموع 36 ساعة تسمى عندهم "الكرصة". وهذه هي مدة الصيرورة الأولى ومشابهتها في اجتماع الزوجين ذكراً وأنثى في الخلوة المعتادة ليلاً. ولأن هذا الصيرورة تكون في البويضة الملقحة (بيتا) فإن على المندائيين أن يلزموا البيت الذي يتطابق اسمه مع اسم البيضة فكلاهما (بيتا). وعليهم أن يتحددوا بما في هذا البيت من مؤونة حتى الماء الذي يجب أن يكون مخزوناً في المدة التي تسبق

الاعتكاف، بإشارة إلى أن الخلق لم يخلق بعد، وما كان من ماء موجود هو ماء أجاج فلا يوصى باستخدامه مماثلة.

يستعد الصابئة المندائيون للاحتفاء والاحتفال في اليوم الأخير من السنة ويسمونه يوم "كنشي وزهلي" بمعنى يوم اللقاء والنقاء، فيقوموا بتنظيف البيوت وجعلها مؤهلة لاستقبال العام الجديد مثلما يتم استقبال أي قادم محبوب مرغوب فيه. وهم يحرصون في هذه المناسبة على الاجتماع بأسرهم وفي مناطقهم. وتتمثل في هذا اليوم مباهج العيد التي تبدأ برسم الاغتسال بالماء، كما يتم فيه نحر الخراف أو الطيور ويمكن أن تجرى فيه طقوس الصباغة. وقبل أن تبدأ الشمس بالغروب يتجمع الصابئة المندائيون على ضفة النهر الموجود في مناطق سكناهم، ينزلون النهر يرتمسون ويغتسلون ليتطهروا. وبسبب عدم تواجدهم اليوم قرب الأنهار، صار يكتفى بإجراء هذا الرسم داخل المنزل ومن مياه الأنابيب الجارية مع قراءة الأدعية للتبارك. وبعد القيام بهذا الطقس يلتزم المندائيون البقاء في بيوتهم ولا يغادروها إلا في صباح اليوم الثاني من اعتكافهم أي بعد مرور الـ 36 ساعة المذكورة. وهم يقضون هذه المدة بالتعبد وذكر الخالق الحي العظيم والابتهال له بالحفظ والرعاية والسلامة. وفي الوقت عينه يحرص رجال الدين والمتبحرون على القراءة والتعمق في الكتب الدينية، والسعي لاستطلاع فأل وطالع السنة الجديدة من خلال تحديد يوم دخولها

من بين أيام الأسبوع وبرج الدخول. كما يكون الحرص التام بعدم لمس أي شيء من الأشياء الدنيوية من ماء وحيوان ونبات. ويكون الشرب والأكل من المياه والمواد الغذائية التي تم تخزينها قبل غروب شمس يوم الاعتكاف، وهذه إجراءات تحرزية. ومع بداية صباح يوم جديد هو اليوم الثاني من بداية السنة المندائية يخرج الصابئة المندائيون ليتزاوروا ويتبادلوا التهاني ويقيموا الأفراح.
هكذا صار العيد الكبير إحياء لذكرى الخلق الأول، واقترن بتكوين الجنين في رحم الأم علامة على بداية خلق جديد. ولأنه بداية خلق جديد، صار بداية لسنة مندائية جديدة.

2- العيد الصغير (دِهبا هنينا)

موعد هذا العيد، بحسب التقويم المندائي، في الثامن عشر من شهر أيار مندائي، ويعرف بعيد النماء والازدهار، وذكراهُ تمثل الاحتفال بعودة الملاك الرسول جبرائيل "هيبل زيوا" إلى عالم النور بعد أن أنجز مهمته بتعمير الأرض وإنمائها وإزهارها. ولم يكن ذلك سهلاً، بل إنه قام بعمل جبّار دحر فيه جميع كائنات الشر والظلام ونشر النور، فازدهرت الأرض بالنبت ودب فيها الحيوان وسخرت جميعها لمنفعة الإنسان. ويتمثل هذا الازدهار والدبيب باكتمال تشكل الجنين في رحم أمه وبدء حركته بعد أربعة أشهر، ذلك أن المدة بين بدء التكوين العلوي في رأس السنة وبين الازدهار هي

ذاتها بين أول تكون للجنين في الرحم وبين تكامل نموه جنيناً. ومثلما تدب الحركة في الجنين بعد هذه المدة، فإن الملاك "هيبل زيوا" أُمر بالهبوط إلى الأرض لكي يعمل على أن تدب الحياة فيها فيزدهر الزرع، ويدر الضرع.

يقيم الصابئة المندائيون في هذا اليوم رسماً معهوداً ومعروفاً هو تناول الرز المطبوخ مع اللبن صباحاً ويسمى" التمن والروب". وربما يكون هذا الرسم معتمداً من قبل الشعوب المحيطة أيضاً وليس حكراً على المندائيين فقط، ولكنه من جهة أخرى يمكن أن يشير إلى حالة الازدهار والنماء المقترنة بهذه المناسبة فيكون في أكل الرز دليلاً على تناول شيء من زرع الأرض، وفي تناول اللبن دليلاً على تناول شيء من ضرع الحيوان، ولون كلاهما أبيض وهو اللون السائد والمعتبر مندائياً.

وفي هذا اليوم يتبارك المندائيون بإقامة طقس الصباغة أيضاً والتزاور فيما بينهم وإقامة الأفراح ويكون يوماً للاجتماع والتلاقي وطيب النفوس.

3- عيد الخليقة (فرونايي)

يقع هذا العيد بعد نهاية الشهر الثامن (أيلول) من السنة المندائية، ويتمثل باكتمال نمو الجنين في رحم أمه وجاهزيته للولادة، كما يتمثل دنيوياً باكتمال النبتة وإثمارها قياساً على فصول السنة.

وتسمى هذه المناسبة بعيد الخليقة تأسيساً على معنى الفعل "فرا" في اللغة المندائية الذي يرد بمعنى التكثر والازدياد والإثمار. والفرونايي، بمعنى التكثر، هي خمسة أيام شاعت تسميتها بين المندائيين بـ "البنجة" وهي كلمة فارسية تشير إلى العدد خمسة. يعتقد الصابئة المندائيون أن في هذه الأيام تجلت من الخالق صفات في الخلق إن كان في عالم الأنوار، أو العالم المادي المحسوس وإتمامه. وتتمثل هذه المحسوسات والمدركات كما في تكوّن الجنين واكتمال نموه في رحم الأم وولادته فكأن في ذلك ولادة العالم. كما تتمثل أيضاً باكتمال حواس الإنسان ليكون قادراً على تحسس كل ما موجود، واكتمال تشكل الدماغ أداة العقل والإدراك.

وتأتي المناسبة تسلسلاً بعد هبوط الملاك جبرائيل "هيبل زيوا" لتنفيذ ما عهد إليه بتجهيز العالم الأرضي المادي. ويعتقد الصابئة المندائيون أن الخلق قد بلغ تمامه في هذه الأيام ولذلك على الجميع الاحتفاء بها ملائكة وأثريين في عالم النور، وبشراً على الأرض تباركاً وتسبيحاً للخالق. ولأنها زمن خاص بالخلق فهي لا تدخل في حساب السنة وزمنها، بل هي زمن خاص بذاته تأتي بعد نهاية شهر، ويعقب أيامها الخمسة بداية شهر جديد.

إن سنة المندائيين 360 يوماً كما مر بنا، وهذه الأيام الخمسة هي زمن محسوب بنفسه. ولا تحسب أيامها على أساس النهار والليل،

بل إنها امتداد نور حتى في الليل وكأنها نهار دائم، كما أنها المناسبة الوحيدة التي يحق إجراء جميع الطقوس الدينية طيلة أيامها الخمسة في النهار والليل على حد سواء بما في ذلك طقس الصباغة الذي يحرص المندائيون على نيله في هذه الأيام المباركة. ولا يقام فيها طقس الزواج لأن هذا الطقس يقترن بالتزاوج والمضاجعة، وهذا غير مسموح في هذه الأيام النورانية مطلقاً.

4- عيد الديمومة (دِهبا اد دايمانا)

ويقع في الشهر المندائي العاشر (مشروان)، وموقعه الزمني هذا يشير إلى ضرورة صباغة الطفل بعد ولادته، ذلك أن اكتمال الطفل وولادته في الشهر التاسع يلزم، بحسب التعاليم المندائية أن تتم صباغته بالصباغة الأولى بعد مدة ثلاثين يوماً من ولادته، وبه ينتسب إلى المندائية. ولذلك يكون موعد هذا العيد، الذي يُعتمد للصباغة، في الشهر العاشر من السنة المندائية. ويشار إلى أن هذا العيد هو ذكرى صباغة آدم وجميع الآباء الصالحين شيت وأنوش وسام ويحيى بن زكريا (ع) . وتعد الصباغة في هذا العيد مباركة وأن قيمتها تعادل 60 صباغة من التي تجري في الأيام الاعتيادية، ولذلك يحرص المندائيون صغاراً وكباراً على إجرائها. ومدة هذا العيد يوم واحد تقام فيه الاحتفالات والأفراح والمهرجانات.

يتضح مما تقدم أن أعياد الصابئة المندائيين هي إحياء لمناسبات ذات قيمة روحانية مقترنة بأحداث قيّمة يمكن متابعة توقيتاتها مع مراحل تكون الجنين الشهرية حتى ولادته ومن ثم صباغته بعد شهر من الولادة. وتعتمد الصباغة في هذه المناسبات جميعاً طهارة للنفس والبدن وإحياءً للذكر والتبارك بخلق الخالق ومزيد التعبد والفرح. وهي مناسبات يجتمع فيها المندائيون لأنها تتضمن طقوساً جماعية توجب المشاركة والاحتفال.

مناسبات احتفالية

لدى الصابئة المندائيين ثلاث مناسبات أخرى يحيونها ويحتفلون بها وهي:

1- عيد شوشيان

وهي مناسبة لاستذكار مرحلة من مراحل الخلق العلوي وتأتي بعد ستة أيام من بداية السنة المندائية التي يحتفل فيها بالعيد الكبير، ويطلق على مناسبة شوشيان أيضاً اسم رأس السنة الصغيرة. وعلامة على الابتهاج والتبرك، يعلق المندائيون إكليلاً من نبات الصفصاف على أبواب بيوتهم بهذه المناسبة. يُجدل الإكليل من قبل رجال الدين وهو رمز بداية وحياة جديدة تُبث في هيكل البيت الذي يُرمز إليه بالجسد ليدوم به الاخضرار.

2- مناسبة أبو الفل

يرد في اللغة العامية العراقية تعبير "فَللّه" إشارة إلى كل ما هو حلو وطيب ولذيذ. وتقترن المناسبة برأس أحد الأشهر الذي يسمى شهر أبو الفِل. والفِل عبارة عن كرات صغيرة تصنع من التمر (غالباً ما يكون من النوع الزهدي) بعد أن يدق مع السمسم المقلي بحيث يختلط المكونان ثم تعمل منه الكرات. ومذاق هذا الخليط حلو بحلاوة التمر وأكله لذيد الطعم. ويشار إلى أن التمر هو نتاج النخل أول الشجر وأعزه، والسمسم هو نبات مزروع في عالم الأنوار. وهما نباتان متعادلان غذائياً، وكلاهما يمنح سعرات حرارية بموادهما السكرية والزيتية. فالتمر هو نتاج سر خلق الأرض، أما السمسم فيرمز إلى لبّ الإنسان وبخلطهما يندمج السّران. أما مناسبته فتكون في شهر أيار المندائي، وهي قبل العيد الصغير بـ 18 يوماً.

3- مناسبة أبو الهريس

اعتاد المندائيون إحياء هذه المناسبة في اليوم الأول من شهر تموز المندائي ذكرى لأرواح من غادر هذه الدنيا من المحبين. يتم طبخ وهرس سبعة أنواع من الحبوب بضمنها القمح ويؤكل هذا الطعام صباحاً. وترد هذه المناسبة، بأنواع الحبوب المستخدمة فيها وبطريقتها، في ثقافة شعوب منطقة الشرق عامة منذ العصر السومري وحتى العاشورية لدى المسلمين. وقد تضاربت

التفسيرات فيها، فبعض يرى أنها استذكار لأرواح من غرق في الطوفان، وآخر يرى أنها ترحمٌ على أرواح الثلاثمائة وخمسة وستين رجل دين مندائي الذين قتلهم اليهود في أورشليم بحسب ما يرد في بعض التدوين المندائي، وبعض ثالث يرى أنها تقام ترحماً على من غرق من أتباع الفرعون في قصة انشقاق البحر وعبور موسى! والأرجح أنها تقام تخليداً لانتهاء الطوفان وبدء دورة حياة جديدة تقوم على نجاة نوح وسام وزوجته. وأن مواد هذا الطعام هي ما تبقّى لدى نوح من حبوب أو هي من الزرع الأول للأرض بعد انحسار الماء عنها. وفي كل الأحوال فالمناسبة مفرحة حيث يعد فيها هذا الطعام فجراً ويتم تناوله مع إضافة الدبس والزيت إليه.

طعام الصابئة المندائيين ومأكولاتهم

لأن الصابئة المندائيين شعب رافديني أصيل، فقد ظل محافظاً وحريصاً على المأكولات التي كانت شائعة في بلاد ما بين النهرين. وأبرز ذلك اعتماده الخبز في غذائهم إكراماً للقمح أكثر من الرز. وهم وبسبب قرب سكنهم من الأنهار فقد اعتمدوا الأسماك بمختلف أنواعها الشائعة في العراق غذاء لهم[19] ويعدونها بطرائق مختلفة أشيعها الشواء في التنور، وكذلك مقلياً بزيته أو طبخه مرقاً،

19 لكنهم لا يأكلون سمك الجري ولا الأسماك التي ليس لها حراشف.

كما يعتمدونه مجففاً بما يسمى "المسموطة"[20]. وأما من الطيور فالمحلل لهم منها طيور الماء البرية والبط والبش[21] والدجاج[22]، أما الحمام والعصافير فغير معهودة ولكن لا ضير في تناولها. ومحرم أكل كل طائر جارح أو آكل للحوم والأسماك.

وهم عامة ميالون لأن يعتمدوا الخضروات في طعامهم، ولذلك لا يفضلون عملية الذبح. وكانوا يقتصرون في تناول لحوم الطير على مناسبة رأس كل شهر إحياء لذكره وتمييزه، وفي أيام الأعياد. أما من الحيوان عامة، فالمسموح لهم ذبح وتناول ذكر الغنم "الخروف" فقط [23].

---

20 درج في بلاد النهرين على تجفيف الأسماك في مواسم كثرتها كوسيلة لحفظها غذاء، ويتم استخدامها فيما بعد من خلال سلقها (سمطها) بالماء الحار ومنه أخذت تسميتها، ثم تطبخ مرقاً وقد يضاف لها خضار البامية وأحياناً قليل من حبات العالوجة أو الطرشانة (مجفف العنجاص أو المشمش) مذاقها لذيذ، وهي في الغالب أكلة شتوية.

21 كلمة بشا تسمية لنوع معروف من الطيور وقد يسمى بط في بعض الدول العربية والكلمة أكدية الأصل "بشو" واعتمدتها المندائية في لغتها.

22 لا يعتمد الدجاج في الوجبات الطقسية ربما لأنه مولد وليس أصيلًا مثلما لا يعتمد الرز ولا التفاح أيضاً للسبب نفسه.

23 محرم عندهم ذبح الأنثى لأنها تعتمد للتكاثر، كما يخشون من أن يكون في بطنها جنين عند الذبح.

وفي مجتمعاتهم الأولى ظل المندائيون يحرصون على عدم مؤاكلة الآخرين في طعامهم بأسباب الالتزامات الدينية المفروضة عليهم التي تلزم بعدم إدخال شيء غير نظيف إلى الجوف أو لاحتوائه ربما على مواد كيماوية. ويبدو أن ذلك انسحب على عدم مؤاكلة الآخرين خشية من انتقال الأمراض ثم تحولت إلى صيغة الحرام.
وبالمقابل عانى الصابئة المندائيون من تحريم المجاورين مؤاكلتهم فصار كل طرف يتحاشى ذلك وخاصة المتزمتين منهم. وإلى الآن يتحدد رجال الدين ومن هم في السلك الديني بعدم مؤاكلة عامة المندائيين حتى من أفراد أسرهم هم أنفسهم إلا إن كانوا بأهلية كاملة. والزوجة لا تأكل مع زوجها رجل الدين ولا تعد له الطعام إلا إن كانت نظيفة وغير نفساء وليست في مرحلة الحيض، ففي هذه الحالات يجب أن تنال الصباغة أو الاغتسال لتتطهر.
وعلى هذا، فالغالب أن رجال الدين يقومون بعمل طعامهم بأنفسهم. كما أنهم ما زالوا لا يشربون الماء إلاّ من النهر، وهم يتحملون العطش كثيراً في أثناء السفر بالطائرات حيث أصبح ممنوعاً إدخال ماء خارجي إلى الطائرة مع المسافر.
وعلى الفرد الصابئي المندائي أن يغسل يديه قبل الأكل وأن يذكر اسم الله الحي بالبسملة (بشميهون اد هيي ربي)، وأن يكون متأنياً في تناوله للطعام، ويشارك أسرته في طعامه ويقدمها على نفسه ويفضل أن تجلس الأسرة جميعها للطعام فلا تمييز بين الذكور

والإناث، بل إن رجل الدين تصاحبه زوجته دائماً في تناول طعامه إن كانت في مرحلة طهارة. وحين ينتهي الجميع من الطعام عليهم أن يشكروا الله على نعمته بالقول: "فرواه ماري: الحمد لله"، ثم وجوب غسل اليدين والفم بحيث لا يبقي فيه طعاماً.

الأضاحي والنذور

"من يقدم الضحايا والقرابين لمعابد الأصنام والأوثان تعقد خطاه في جبل الظلام فلا يرى نور الله، أما من آمن واتقى فله من النور مرتقى حتى يبلغ بلد النور "گنزا ربا.

لا توصي الديانة المندائية بالنذور وليس هناك تقرب أو طلب رحمة من الخالق بالقرابين، لكن الأضاحي تُعتمد في المناسبات الدينية وبعض الطقوس الأخرى كما في طعام الغفران وإقامة طقس الارتقاء. ففي جميع المناسبات الدينية يتم نحر الخراف أو الطيور إن كان ذلك ممكناً وميسوراً، أو الاكتفاء بالأسماك والمأكولات النباتية. وفي طقس طعام الغفران يفضل التضحية بحمامة كما يمكن أن يقام الطقس من لحم الخروف الذكر، والأسماك. أما في الطقس المعتمد في تكريس المعبد (بيت مندا) أو طقس الارتقاء، فيلزم ذبح حمامة وأخذ قطعة منها للطعام، وأحيانا نحر خروف ذكر وتناول بعض من لحمه ومن شحم أليته على الرغم من أن هذا ليس شرطاً.

عملية الذبح وتحضيراتها

ذكرنا بأن الديانة المندائية تحلل أكل لحم الخراف الذكور ولحم الدجاج وبعض الطيور بعد أن يتم ذبحها بطريقة خاصة نظيفة وصحيحة. أما الطريقة التي تتم بها عملية الذبح، فإن التوصيات تقضي بأن يتم فحص الطير أو الخروف والتأكد من أنه غير مريض، وسليم وخال من أي نقص أو زائدة، ويتم تنظيفه والتعامل معه برأفة. ويوصى بأن يشرب الطير أو الخروف الماء قبل الذبح، وأن لا يرى السكين لكي لا يروع.

والذبح يمكن أن يتم في جميع الأيام عدا تلك الأيام المبطلة والمثبت فيها أنه لا يجوز الذبح وأكل اللحم. ويجب أن يتم في النهار وقبل غروب الشمس إلا في أيام الفرونايي حيث يمكن إجراء الطقوس نهاراً وليلاً كما مر بنا.

ولغرض القيام بالذبح يجب القيام بشعائر خاصة ملزمة وهي:

1- الشخص المسموح له بالذبح يجب أن يكون سليم النسب الديني خاصة إذا تطلب أن يكون الطعام لإجراءات طقسية. واليوم صار الفرد المندائي العادي يقوم بذلك أيضاً.

2- في حالة كان القائم بالذبح طاهراً، فإن عليه أن يلبس اللباس الديني.

3- يجب أن يحضر عملية الذبح شخص آخر يكون شاهداً على القيام بذلك بشكل صحيح، ويلتزم بوضع غطاء (غترة) على رأسه[24]، ويقف وراء الذابح.

4- تنظيف الأجزاء الأساس من جسم الذبيحة من الأوساخ كالأرجل، وغسل المنقار بالنسبة للطيور.

5- يتم الذبح بسكين حادة من الحديد لكي لا يحدث تعذيب.

6- أن يقوم الذابح بغسل يديه بالماء قبل الذبح، ونطق نص ديني في أثناء الذبح، والتحلل من خطيئة الذبح بعد الانتهاء بقراءة نص أيضاً.

طريقة الذبح

في حال كانت الذبيحة خروفاً، تهيأ فرشة تفرش على الأرض وغالباً ما تكون من القصب وسعف النخيل بكمية مناسبة، فلا يجوز الذبح على الأرض مطلقاً. أما طريقة ذبح الخروف، فبعد أن يوضع على الفرشة يتم ربط أطرافه الأربعة بشكل متداخل بحبل عادة ما يكون مصنوعاً من خوص سعف النخيل. ويتم توجيه رأس الخروف نحو جهة الشمال حيث القبلة. يجلس القائم بالذبح ويحدد المنطقة في الرقبة التي سيتم منها الذبح عند الحنجرة،

24 لا يفضل أن يكون الراس حاسرا للرجال والنساء سواء، ولذلك يكون تغطية الرأس ملزما أثناء تادية الطقوس والشعائر الدينية.

ويقف خلفه من الجانب الأيمن الشاهد الذي يغطي رأسه بغطاء ويضع يده اليمنى على الكتف الأيمن للذابح. ويتم الذبح بسكين حديد حادة ومن مرة واحدة حتى لا تعاني الذبيحة أو تتألم. ويبقى الذابح ماسكاً برأس الخروف حتى يخرج منه الدم كله. يُرش قليل من الملح مع تمرير النار المشتعلة بقصبة أو طرف سعفة يابسة على منطقة الذبح بما يشابه التعقيم مع ذكر اسم الحي. ثم يتم فتح الرباط، وتنفخ الذبيحة بالفم عن طريق قصبة توضع ما بين الجلد واللحم من جهة الرجل لعزل الجلد عن اللحم، ويتم بعد ذلك السلخ وإخراج الأحشاء الداخلية، وتقطيع اللحم والعظام.

أما في حالة الطير، فلا يحتاج الأمر إلى فرشة، بل يجلس القائم بالذبح القرفصاء متجهاً نحو الشمال، ويقف الشاهد أيضاً على جهته اليمنى ماداً يده اليمنى على الكتف الأيمن للذابح، ثم يتناول القائم بالذبح الطير ويمسكه بيده اليسرى من جناحيه، ويقلبه بحيث تكون منطقة البطن إلى الأعلى والظهر إلى الأسفل، ويمسك برأس الطير بإصبعي الإبهام والسبابة من اليد اليسرى ذاتها ويسحب الرأس نحو الأسفل بحيث تبرز منطقة حنجرة الطير، ثم يقوم بإمرار السكين الحادة على المنطقة ويتم الذبح. يظل الذابح ماسكاً بالطير حتى يخرج كل الدم منه، ثم يلف الرأس بين الجناحين ويقدمه للشخص صاحب الطير، أو يضعه في الإناء لأغراض متابعة عملية نتف الريش وتنظيف الأحشاء والطبخ.

وعند إمرار السكين على الرقبة يجب أن يذكر الذابح اسم الحي ويقول أيضاً:
"ليكن ذبحُك طاهراً، ولتكن القوة والعافية لكل من يأكل منك، اسم الحي العليم منطوق عليك".
وبعد أن ينتهي الذابح من عملية الذبح يقوم بالتطهر بغسل اليدين وكذلك السكين التي تم الذبح ليتحلل من خطيئة هذه العملية وهو يقول: "أنا الذابح والرب الغافر."
ويرد في كتاب گنزا ربا النص الصريح "بارك واذبح بسكين واغسل وطهّر واطبخ وكل". ويرد أيضاً "ولا تأكلوا ولا تشربوا من هياكل الكواكب والأبراج فكلها مملوءة بالدنس والمكر." فالذبح لا يكون إلا بذكر اسم الله سبحانه ولغرض الطعام وليس لأي غرض آخر.
إن ما ذكرناه بخصوص طعام الصابئة المندائيين وطريقة الذبح وأصوله هو ما يعتمد بحسب التوصيات الدينية. أما اليوم، ولأسباب عديدة تتعلق بالعيش واختلاف الظروف والبيئات، فلم يعد بإمكان عموم المندائيين الإلتزام بذلك، وصار كثير منهم يتناول طعامه في المطاعم حسبما يُعد، ويشتري اللحم من السوق، وربما لا يلتزم بنوع الأسماك المحددة. ومع ذلك فإن غالبيتهم لا يجلبون لحم البقر إلى بيوتهم ولا يطبخونه، كما أنهم لا يجلبون مطلقاً لحم الخنزير ولا يطبخونه، وهم ما زالوا يحرصون كل الحرص على

الرجوع إلى الأصول الدينية في غذائهم في أثناء الأعياد والمناسبات الدينية خاصة.

الفصل الرابع
طقوس الولادة والزواج والوفاة

الولادة، والزواج، والوفاة ثلاث مراحل أساس في حياة الإنسان ووجوده، ولأنها كذلك فقد اقترنت مناسباتها بطقوس وشعائر وإجراءات اعتمدتها أغلب الأديان احتفاء بها وبقيمتها. والصابئة المندائيون يخصون هذه الأحداث الثلاثة بالذكر والاحتفاء الطقسي وهو ما سنقف عليه إزاء كل حدث.

أولا: الولادة

حدث كبير وبارز في حياة الأسرة حينما ترزق بمولود هو ثمرة زواج مبارك يرى النور، وبه يعلن وجود كيان في الحياة يناظر وجود الخلق ذاته.

أما الإجراءات الطقسية التي يتطلبها هذا الحدث فهي على حالين: الأول، يتعلق بالوالدين، والثاني يتعلق بالمولود. أما ما يتعلق بالأب الوالد فيرد في تعليم كتاب گنزا ربا أن بزر البنوة مزروع في الرجل يعطيه للمرأة وهو المسؤول عن جنس المولود. وأما الأم الوالدة فهي التي تحمل الجنين في جوفها. ونموه يكون بحسب أسرار أبيه وأمه وغذاؤه من أمه حتى يولد بأوجاع الخاصرة وبالقوة

الناصرة. وعندهم تصبح الأم بعد ولادتها مباشرة في مرحلة عزلة مع وليدها من حيث مأكلها ومشربها لأنها تكون في حالة ضعيفة واهنة وتتطلب رعاية خاصة، كما أنها تكون نفساء نتيجة الولادة، ويقدم لها الطعام والشراب لوحدها بأدوات تخصص لها. تستمر على هذه الحال مدة ثلاثين يوماً، وبعد انقضاء هذه المدة يجب عليها أن تنال الطهارة بإجراء طقس الصباغة (التعميد) لكي تعود إلى الحال الطبيعي وبدونه لا تكون المرأة نظيفة دينياً.

سكين اد دولا

وأما ما يتعلق بالمولود، فيجب بعد ولادته وقطع الحبل السري أن يختم مكان السرة بختم "سكين اد دولا"[25]، وتبقى هذه الأداة في مهده وسريره خلال الأيام الثلاثين الأولى. ويتم استخراج الاسم

25 سكين مرتبطة بختم بواسطة سلسلة. أما الختم فهو عبارة عن قرص دائري من الحديد منقوش عليه بشكل بارز أربعة رموز هي الحية التي تشير إلى الماء، والعقرب الذي يشير إلى التراب، والأسد الذي يشير إلى النار، والدبور الذي يشير إلى الهواء. وهذه هي العناصر المادية الأربعة الأساسية في الطبيعة. والرمز هو لصد الشر الذي يمكن أن يأتي من كل عنصر بالرمز المثبت مقابله.

الديني له ويكون ذلك من قبل رجل الدين أو أحد العارفين كما مر بنا. وليس هنالك من تمييز بين المولود إن كان ذكراً أم أنثى، ولم تعرف المندائية وأد البنات ولا الحزن على ولادتهن، ولا التمييز بينهن وبين الصبيان على أي أساس كان. والتوصية أن تتم صباغة الطفل بعد مرور ثلاثين يوماً، وهنا تكون الصباغة البكر من أجل انتساب الطفل إلى الديانة المندائية برسم جبينه بالماء وهو رسم الحياة والمباركة بذكر اسم الله الحي، ويكلل رأسه بالآس اخضراراً، ويمسح جبينه بالسمسم علامة صحة وشفاء. ولأن الطفل غير قادر على الكلام فيقوم والده أو من يتوكل بالأمر بالترديد نيابة عنه، على أنه يجب أن ينال صباغة أخرى[26] حينما يصير بعمر مناسب وغالباً ما يكون ذلك بعد دخوله سن الرابعة.

ومن النصوص القيمة التي تظهر الاهتمام بهذا الأمر وتبين حرص الأب على القيام به ما يأتي:

(بسم الحي العظيم ما الذي عمله أبوك من أجلك أيها الإنسان في اليوم العظيم الذي ولدت به؟

أخذني وعمدني في الماء الجاري

وصعد بي إلى ضفة النهر وقومني

نطق باسم الله وأطعمني

---

26 نشير إلى أنه في المندائية يستطيع الفرد أن يصطبغ/يتعمد ما شاء من المرات وليس الأمر محدداً بتعميد واحد كما في المسيحية.

بارك قدح الماء وسقاني
وضعني بين ركبتيه ونطق اسم الحي علي)

ثانيا: الزواج

وهو اقتران الرجل والمرأة بخصائصهما الذكورية والأنثوية التي خُلقا بها ليتكاملا من أجل أن يكون منهما الشتل والزرع، ويكون الأبناء الذين يشكلون بمجموعهم الأسرة التي هي قوام الذرية. وهو حدث أساس وملزم أوصت به الديانة المندائية.

يرد في كتاب تعاليم يحيى:

"وجاء ليحيى الصوت: يا يحيى اتخذ لك زوجاً، ولتقر نفساً ".

ويتزوج يحيى فيقول:

"سعيدٌ من يتزوج، ومهيبٌ من ينجب أبناء".

وعن لسان سام بن نوح (ع) يرد:

"تزوجت ورعيت أطفالاً كما هو الدأب في هذا العالم، ورعيت ابني كما رعاني أبي".

فالزواج بين الرجل والمرأة شريعة الحياة وطبيعتها، وقد نصت عليه جميع الأديان ونظّمت قيامه اقتراناً بين الذكر والأنثى، ووضعت له شروطاً وطقوساً والتزامات. ومما نقرأ في كتابهم گنزا ربا:

* وأمرناكم أن اتخذوا لأنفسكم أزواجاً لكي تعمر الدنيا بكم.

* الرجال الزاهدون بالنساء، والنساء الزاهدات بالرجال كذلك يموتون، ومصيرهم الظلام حين من أجسادهم يخرجون.
* لا تكونوا كالنبت الرديء يشرب الماء ولا يعطي الثمر.
* إذا اتخذتم لأنفسكم أزواجاً فاختاروا من بينكم وأحبوهن وليحفظ أحدكم الآخر واعتنوا ببعضكم عناية العيون بالأقدام.

وغاية الزواج الإنجاب لتعمر الدنيا ولذلك تأتي التوصية:

* أيها الرجال الذين تتخذون نساءً أنجبوا، فإن لم تنجبوا ذهبت ذريتكم.

ولا توصي الديانة المندائية بالعزوبية، بل إن من يبق عازباً سيحاسب، وفي مقدمة أولئك رجال الدين الذين عليهم أن يتزوجوا وينجبوا، حتى أن رجل الدين في مرتبته الأولى (ترميذا) لا يحق له أن يرتقي للمرتبة الأعلى (گنزا برا) ما لم يكن متزوجاً ومنجباً.

وتوصي المندائية بتسهيل الزواج وأن لا تعيقه شروط أكثر من اتفاق الطرفين. وأهم شرط ألّا يكون الزواج إلا بعد سن البلوغ الذي يتحدد بدءا بسن 15 عاما، وأن يتم برضا وموافقة الفتى والفتاة وباتفاق الأسرتين، ذلك أن في الزواج تقوم الأواصر بينهما.

والزواج بين الأقارب ابن وبنت العم/ العمة، وابن وبنت الخال/ الخالة أمر غير محرم. أما المحرمات في الزواج فهي:

الزواج من الأبوين، الزواج بين الإخوة (سواء كانا من الأبوين أو من الأب أو من الأم) ومن ذريتيهما، ابن زوجة الأب، ابن زوج

الأم، ابنة زوجة الأخ، زوجة الخال، أرملة الأخ، أو طليقته، الزواج من الأختين إذا كانت الأولى على قيد الحياة أو غير مطلقة، ويجرى التحريم على الخالة والعمة أيضاً.

وتوصي الديانة المندائية في كتاب گنزا ربا بعدم الاقتران بغير المؤمنين:

"إن الذين يزوجون بناتهم من أبناء الكافرين والمشركين وعبدة الأوثان، أولئك بسياط النار يجلدون، يعذبون بالنار الآكلة والبرد والحريق، وفي الظلام يحشرون، لا ينفعهم حزنهم ولا ندمهم حين يندمون، كلما قُدمت إحداهن قرباناً لمعابد الأصنام أو ركعت لمنجمين سُئلت نفس أبيها عنها، فكيف من ذنوبكم تتنصلون".

ورجل الدين لا يحق له الاقتران بفتاة غير سليمة النسب الديني، كما لا يحق له الاقتران بفتاة غير باكر أو غير تامة الخِلقة، ومن ثم فوجود عاهة جسمية لدى الفتاة تبطل تفكير رجل الدين بأن يتخذها زوجة له حتى وإن كانت من أسرة سليمة النسب الديني. ويحق للفتى رؤية الفتاة قبل الزواج والتعرف إليها، كما تسبق الزواج مرحلة خطوبة يتفق عليها وغالباً ما تكون قصيرة، ويحق للفتى أو الفتاة فسخها فيبطل بذلك اتفاقهما على الزواج.

مكانة المرأة

للمرأة مكانة متميزة في مجتمع الصابئة المندائيين، وتقديرها يبدأ بفكرة مثيرة ترد في أساطيرهم تنص على أن أبناء آدم لم يتزوجوا من أخواتهم، بل جيء بفتيات لأبناء آدم من عالم الحق ويسمى "مشوني كشطا"[27] ليقترنوا بهن، فتزوجوا. وعلى هذا فهن، بوصفهن نساء، لسن من هذا العالم المادي. ومع أن هذا الأمر أسطوري لكنهم يجدون به حلا لعقدة زواج أبناء وبنات آدم فيما بينهم، تأسيساً على أن عالم الحق فيه نظير لكل ما في عالم الأرض ولكن بصيغة أنقى، ولذلك نرى أن اسم المولود والمولودة الديني يقترن باسم أمه وليس باسم أبيه. ومن مكانة المرأة نجد إشارات في كتاب گنزا ربا تذكر أنها نالت درجة دينية ضمن السلك الديني، وقد ذكرت أسماء الكثير منهن بوصفهن ناسخات للكتب الدينية المقدسة. وأكثر الدلالات عن قيمة المرأة نقرأها في كتاب تعاليم يحيى حين ترد التوصية والتوضيح لسام بن نوح حول الزوجة وقيمتها حيث يقول:

---

27 مشوني كشطا عند المندائيين يعني عالم الحق أو مثيل الحق، وهم يعتقدون أن في هذا العالم ما يناظر الموجود في عالمنا الأرضي من كائنات ولكن بشكل أثيري، حتى أن نفس المتوفى حينما ترتقي تصعد إلى هذا العالم وتلتقي بنظيرها الأثيري أولاً قبل العروج إلى عالم النور.

"فلو لم تكن الزّوجة في العالم لما كانت أرضٌ ولا سماوات. ما صارت أرضٌ ولا سماوات، ولا تكثفت في الماء الكثافات. لو الزّوجة في هذا العالم لم تصير، لن تشرق الشّمس ولا القمر يُنير. لو الزّوجة في هذا العالم ما كانت، فالمياهُ الحيّة إلى هنا ما جاءت، ولا زرع ولا نباتات نبتت، ولا رِيح الأثير هنا هبّت، لما وُجدت النارُ ولا الهواءُ في كلِّ شيء وفي جميع الأنحاء. إنما مثلُ الزّوجة كما السّماوات والأرضِ في هذا العالم صارت".

الصباغة (التعميد)

الماء إعجاز الخالق وسمة الحياة مسببها ومديمها. وتؤمن الديانة المندائية أن الماء جرى أنهاراً في عالم النور العلوي أولاً، و انسحب خيط منه إلى الماء الأجاج على الأرض فأصلح ماء الأنهار وحلاها. ولحيويته وقدرته اكتسب قيمة سامية فأملت تعاليم هذه الديانة أن يكون صبغة يصطبغ بها الإنسان فتكسبه الحياة والطهارة والتبارك بأعز ما خلق الله. وهي ترى أن رسم الصباغة بدأ في عالم الأنوار واصطبغت به الملائكة قبل الإنسان.

فيرد في كتاب گنزا ربا:

"آمنت الحياة بصباغتها الذاتية .. قالت: أنا الصابغة الأولى المؤمنة بالعهد وبهذه الصباغة، كل من آمن بالعدل والصباغة صار نقياً ونزل منزلاً عليا".

ومن التوصيات بخصوصها يرد:
"هيئوا الماء واصطبغوا، اصبغوا نفوسكم بالصبغة الحية التي أنزلها عليكم ربكم من أكوان النور".
والصباغة، وإن تجرى غالباً في مجاميع الناس، لكنها صباغة فردية بمعنى أن كل فرد ضمن المجموعة ينال صباغته بمفرده وباسمه الديني. كما أن علانية الطقس تدعو إلى إشهار اسم الحي والتبارك به من خلال الارتماس بالماء وإكمال المراسيم حسب إجراءات محددة. وتقوم فلسفة الصباغة على أنها رسم الانتساب للمندائية حيث يتبارك الجبين بالماء ويمسح بزيت السمسم وينطق على الطفل الصغير أو الشخص المصطبغ اسم الحي ويوسم بوسمه. كما أنها الطقس الأساس للاستغفار من الخطايا [28] التي حرمها ونهى عنها الدين، أو تلك التي يؤنب الفرد ضميره عليها ويحتاج فيها إلى الراحة. ويقوم الطقس على قدرة الماء ليس في غسل الجسم مما يعلق فيه وحسب، بل والنفاذ إلى الروح والنفس ليحررها مما علق بها.

28 تعتمد الصباغة تكفيراً للأخطاء غير المقصودة التي يقع فيها رجال الدين في أثناء حياتهم أو ممارسة طقوسهم ويتباين عدد مرات الصباغة بحسب نوع الخطأ وقد يصل عدد الصباغات التي يجب أن ينالها رجل الدين إلى 360 صباغة عن خطأ جسيم واحد.

ولذلك يوصى أنه كلما أحس الفرد بخطأ، أو تضايقت نفسه وتكدرت، عليه أن يلجأ إلى الصباغة التي تزيل عنه العناء والحصر، فتعود نفسه نقية منتعشة لحياة جديدة.

والغالب أن الصباغة تجرى في أيام الآحاد، ذلك أن يوم الأحد يعد رأس أيام الأسبوع وله قدسية مميزة، كما أنها تجرى في الضوء منذ الفجر وإلى حد مغيب الشمس، ولا تجرى ليلاً إلا في الأيام الخمسة لعيد الخليقة. ولا يجوز إجراؤها في الأيام المبطلة التي مر ذكرها، ولا تجرى للمرأة الحامل ولا التي في مرحلة النفاس، كما لا يجوز الجمع بين صباغة الرجال والنساء في وقت واحد، بل بعد أن تنتهي مجموعة الرجال أو النساء يتم الإجراء للمجموعة الأخرى أو يتم الأمر بوجود رجلَي دين واحد للرجال والثاني للنساء في الوقت والمكان نفسه. ولا تقام الصباغة إلا من رجل دين كامل الأهلية، وهو لا يحق له صباغة نفسه لأن الصباغة تتطلب أخذ العهد بين الصابغ والمصطبغ، ولا يجوز لرجل الدين أن يأخذ عهداً من نفسه. كما لا يحق له صباغة زوجته لأن الزوجة، بعد الزواج، تعد بضعة من زوجها ومكملة له، ولأنه لا يجوز له أن يصبغ نفسه، فلا يحق له من ثم أن يصبغ زوجته.

خطوات وإجراءات الصباغة (التعميد)

ذكرنا بأن الصباغة تعد ركنا أساساً في ديانة الصابئة المندائيين ولا نستطيع أن نتصور هذه الديانة من دون هذا الركن. فهي علامته الفارقة، وعلامة فارقة للمندائيين، وشعيرة عرفوا بها وتمايزوا بها عن العماد عند الآخرين الذي يقوم على الإرتماس في الماء فقط أو برشه إشارة للمعمودية. ولأهمية الصباغة نجد أنها ليست الإرتماس في الماء وحسب، بل إنها تتضمن العديد من الخطوات والإجراءات الملزمة التي على جميع رجال الدين تأديتها بالطريقة نفسها مثلما يؤدي الحجاج المسلمين آلية وشعائر الحج إلتزاماً وتسلسلاً. وللوقوف على الصباغة المندائية نتابع خطواتها حسب تسلسلها، وهي:

1- القدوم لنيل المصبوتا بنية صادقة وتوبة خالصة وببدن نظيف من أجل أن يرتدي اللباس الديني الذي لا تتم الصباغة من دونه وأن لا يكون فيه أي نقص.

2- تأدية صلاة الراية "الدرابشا"[29]. ذكرنا بأن الراية أساس في طقوس المصبوتا وهي الوسيلة التي تعكس النور على الماء الجاري وبها يتمازجان، فكأن النورَ ماءٌ وكأن الماءَ نورٌ لأنهما من أصل واحد.

29 الصباغة بنصب الراية تكون في المناسبات الدينية الكبيرة، والصباغة في أيام الأحاد الاعتيادية والزواج تتم من دون نصب الراية .

3- التهيئة لدخول الماء: وتشمل هذه التهيئة كلاً من رجل الدين، والمصطبغ. أما رجل الدين فيقوم أولا بغمس صولجانه "المركنا" في الماء ثلاث مرات، ثم يقف مواجها لجهة الشمال. ويقوم رجل الدين برسم ثلاث دوائر على وجه الماء بحركة يديه من أمامه مروراً بالجانبين وحتى خلفه. ثم يدعو المصطبغ للدخول إلى الماء.

4- تلاوة النية لنيل الصباغة من قبل المصطبغ قبل دخوله الماء يُردد بعد رجل وفيه يظهر نية وقصد المصطبغ من وراء قدومه.

5- يدخل المندائي إلى الماء من الجهة اليسرى لرجل الدين ويدور خلفه حتى الجهة اليمنى بعكس اتجاه عقارب الساعة[30]

6- يغطس المصطبغ في الماء وهو جالس ثلاث مرات غطسة لكل من النفس والروح والبدن ويرش رجل الدين الماء بكلتا يديه فوق

30 تعتمد المندائية الدوران عكس عقارب الساعة وهم بذلك يملثلون حركه الكون بكل ما فيه من مجرات ودوران الكواكب والذرات.

رأس المصطبغ. ينقطع تنفس المصطبغ في أثناء الغطس في كل مرة ولو لثانية، وهذا يشير إلى موت واندحار الخطيئة ثم العودة إلى الحياة وكأنها ولادة جديدة نقية وخالصة بدون خطايا أو آثام.

7- يأخذ رجل الدين بيد المصطبغ ويجلسه بينه وبين صولجانه ثم يضع يد المصطبغ اليسرى فوق اليمنى، ويمسك الصابغ برأس المصطبغ ويلامس جبينه بالماء ثلاث مرات. وهو بذلك إنما يبارك الجبين بالماء ويرسم جبين المصطبغ بالماء الجاري ثلاث مرات من منطقة الأذن اليمنى إلى اليسرى بأطراف أصابعه.

8- يغرف رجل الدين غرفة ماء بكف يده اليمنى ثلاث مرات تقدم للمصطبغ ليشربها، وهو يقول له: "الحق يقويك ويثبتك".

9- ينزع رجل الدين خاتم الآس الذي يلبسه المصطبغ في خنصر يده اليمنى، الذي هو علامة على الازدهار والشفاء والتبارك بماء الحياة، ويقوم بوضعه تحت عمامة المصطبغ من جهة اليمين ويقرأ على راسه آيات إيمانية.

ثم يغادر المصطبغ الماء وكأنه خرج من الرحم بولادة جديدة لتبدأ مرحلة اخرى من الصباغة على الأرض تبدأ بالدوران حول إناء بخور والعطر بعطر الحياة. ثم يكمل رجل الدين مراسيمه للمصطبغ حيث يمسح جبين المصطبغ بالسمسم ثلاث مرات. ثم بعد غسل اليد يتناول المصطبغ قطعة خبز وجرعة ماء ويمسك عن الكلام. ثم يتم إشهاد الماء بأن المصطبغ لن ينفك عن هذا الرسم. ويختم المصطبغ بهمس الدعاء الشخصي استغفاراً ومحبة.

ثالثا: الوفاة

"ليكن الموت من نصيب أهل الدنيا" كنزا ربا.

تؤمن عقيدة الصابئة المندائيين بأن الموت نهاية محتومة للإنسان، وفيه تحرير للنفس من سجن الجسد حسبما وعدت حينما أنزلت إليه، وأنها لا بد عائدة إلى موطنها الأصلي عالم النور. وهذه العودة لا تكون إلا بموت الجسد بسبب ما، أو بشيخوخة وعجز ووهن تجعله غير قادر وغير مؤهل لحفظ النفس (الروح) فتضطر لتركه وفي ذلك خلاص لها. لقد كُتب الهرم على جسم الإنسان ولم يكتب ذلك على النفس. كما كتب القضاء والقدر فكانت الأسباب التي لا تتحدد بعمر أو بجنس أو بأي شيء غير الإرادة الربانية. فالموت مشيئة الخالق يأتيه من يشاء وأنّى يشاء، والعمر محدود بزمن حتى وإن طال مثلما طال عمر آدم عِبرة. والموت إعجاز الخالق وعجز المخلوق. فيرد في كتاب كنزا ربا:

"تأتي الأجنة التي ما زالت تشبه محّ البيض، والأطفال الرضع الذين ما زال الحليب يملأ أفواههم، والعذراوات اللائي ما زلن عذارى كرسائل مختومة، والعرائس اللائي ما زالت أكاليلهن تقطر زيتاً، والصغار والصغيرات الذين يقضون بالحوادث، ومن البرية من يطلب الموت لكن الموت لا يأتيه. كل من يقول إن الشيخ يذهب بشيخوخته وإن الشاب بشبابه يبقى سيحاسبه الله".

وهذا يعني أن الموت لا يعرف سبباً. ويرد في النصوص: "كل من يولد يموت".
وبما أنه خلاص للنفس، صار على الإنسان أن يفرح له، لا يطلبه ولكن عليه ألاّ يلعنه لأنه حق مكتوب. والموت هو عدم تمكن الجسد من أن يكون وعاءً صالحاً لحفظ النفس التي هبطت إليه من عالم النور، فيرسل المخلص لخلاصها منه كي تعود إلى موطنها "فكل نفس لا بد خارجة من هذا العالم". ويعود الجسد إلى مادته التي تشكّل منها متفسخاً فانياً، فلا يصعد جسد مع النفس إلى عالم النور ولا يستبدل شخص بشخص.
ويرد في نصوص ديانتهم "أنتم تسمونه الموت ونحن نسميه الحق. كل من لعنه وضع أمام نفسه ستة وستين معثرا".
والموت بحسب عقيدة الصابئة المندائية هو فناء الجسد وتوفي النفس التي تعود إلى باريها، فيرد:
"لا جسد يصعد إلى ملكوت الحي، لا أب ولا أم، لا إخوة ولا أخوات، ولا أبناء ولا بنات، ولن يكون الذهب والفضة ملاذاً في ملكوت الحي".

إجراءات الاحتضار والدفن
للأهمية التي تحظى بها النفس في الديانة المندائية كونها القبس الشريف والنسمة الحية التي هبطت من عالم النور، تشددت

الإجراءات المندائية في متابعة المحتضر ومراقبته مراقبة دقيقة حرصاً على أن تخرج من جسد طاهر، وبوضع وإجراءات مناسبة لراحة المتوفى. ومن شدة إيمان المتدينين أنهم يستعدون للموت بحيث يقومون ببعض الإجراءات بأنفسهم إن كانوا قادرين عليها كما في الاستحمام، ولبس الكفن أو متابعة عملية إلباسه لهم. ومن الإجراءات التي يحرصون عليها:

1- تحضير الملابس الخاصة بالكفن ويجب أن يلبس في حالة الوفاة الطبيعية مسبقاً قبل تحقق الوفاة.

2- توفير الماء للغسل فعلى المحتضر أن يستحم بالماء عارياً قبل وفاته. وهذا الإجراء لتطهير البدن وشعور النفس أن بدنها نظيف صالح، كما أن في ذلك نقاوة أخيرة للنفس بالماء قبل مغادرتها العالم الأرضي. ويجب أن يتم قبل الوفاة، ولا يجوز غسل الميت لأنه لا تجتمع الحياة مع الموت، فالماء حي والجثة ميتة.

3- تحضير إكليل الآس، وهو من مكملات الملابس الدينية التي يرتديها المحتضر ويعمل بالاسم الديني للمحتضر ويوضع على جهة الصدغ اليمنى.

4- يوضع المحتضر على فراش نظيف ويكون استلقاؤه مواجهاً لجهة الشمال عند وقوف.

5- يراقب المحتضر ليلاً ونهاراً لأن وضع إكليل الآس وربط الزنار "الهميانا" يتم عند الإحساس بلحظة قرب الوفاة.

6- لا يتم دفن المتوفى إلا بعد مرور ما يزيد على الثلاث ساعات تحققاً من حدوث الوفاة فعلاً وخشية أن يكون الأمر إغماءً وعودة المحتضر للحياة مرة أخرى.

وبعد التحقق من الوفاة يتم التحضير لمراسيم الدفن وإجراءاته، ويراعى أن ذلك لا يكون في الليل نهائياً بل يجب أن يتم قبل مغيب الشمس. فإن داهم الغروب، تم تأجيل الدفن إلى صباح اليوم الآتي مع البقاء قرب جثمان المتوفى ومراقبته. ويفضل في هذه الحالة وضع إناء فيه ماء بجنب جثة المتوفى اعتقاداً ببقاء النفس بمحيط الجثة، وكذلك مصباح للإنارة لإبعاد الظلام يوضع فوق منضدة في المكان ذاته، وقطعة من الحجر، وبذلك تتوفر المكونات الأربعة التي تشير إلى الأرض، والماء، والنور أو النار، والهواء المحيط.

أما مراسيم الدفن فتبدأ بأن يقوم أربعة أشخاص من ذوي الأهلية الدينية بالاغتسال ولبس ملابسهم الدينية. والمعتاد في السابق اعتماد المواد البيئية المتوافرة حيث يتم عمل حصيرة من كمية مناسبة من نبات البردي والقصب تكفي للف الجثمان تربط بطريقة خاصة بحبال تفتل من خوص سعف النخيل وكذلك التخت الذي يحمل عليه بطريقة وحسابات خاصة. ينقل الجثمان ويوضع على الحصير ويلف بمجموعه بالحبال المتدلية التي تركت من الحياكة لهذا الغرض.

يتم حمل الجثمان من قبل الأشخاص الأربعة على الأكتاف ويكون رئيسهم على الجهة اليمنى عند رأس الجثمان، ويتم الحرص على أن يكون حمل الجثمان باتجاه جهة الشمال.

يلحق بالركب المشيعون، وحين يصل موكب التشييع إلى المقبرة، التي غالباً تكون غير بعيدة، تكون حفرة القبر مهيأة مسبقاً من الحفارين المندائيين، ويكون الحفر باتجاه الشمال وبعمق مناسب يكفي للدفن وعدم إمكان وصول وعبث الحيوانات بالجثة. يقوم بعد ذلك رئيس الأربعة وهو واقف خلف رأس الجثمان ومتجهاً نحو الشمال برمي حفنة من التراب على منطقة الرأس وثانية على منطقة الصدر، وثالثة على منطقة القدمين وفي كل مرة يقرأ نص دعاء الترحم:

"بسم الحي العظيم ليكن توحد وانبعاث حياة وغفران الخطايا لفلان بن فلانة صاحب هذا الارتقاء ولتغفر له خطاياه"

ثم يقوم جميع الحاضرين بردم القبر بالتراب على الجثمان حتى تتشكل رابية. ويقوم رئيس الحلالية برسم ثلاثة خطوط تحيط بالقبر بـ"السكين اد دولا" مبتدئاً بمنطقة الرأس وهو يدور بعكس عقارب الساعة وتختم الخطوط بختم السكين اد دولا ثلاث مرات ويقرأ في كل مرة دعاء الترحم أعلاه. وتكون هذه الحدود والأختام بمثابة حدود لحفظ الجثة من أي عبث خلال مدة ثلاثة أيام وهي المدة التي يعتقد المندائيون بأن النفس تبقى فيها تحوم حول بدنها وحول مكان الوفاة. يعود أحد الأشخاص بعد اليوم الثالث من الدفن ليزيل الأختام ويفك الحدود لانتفاء الحاجة لها بعد هذه المدة حيث تكون النفس قد انطلقت في مسيرة ارتقائها وصعودها.

تقام في اليوم الثالث من دفن الجثمان مراسيم طعام الغفران من جميع الحاضرين لمجلس طلب الرحمة على نفس المتوفى، ويحرص في هذا اليوم على ذبح الخراف أو شواء السمك وإقامة الطقس تذكراً وترحماً للمتوفى وإطعاماً للجميع وخاصة الفقراء على راحة نفس المتوفى. كما صار هذا الطعام يقام في اليوم السابع من الدفن أيضاً. ويستمر عمل طعام الغفران من رجل الدين أو أي شخص مؤهل على نفس المتوفى وباسمه الديني لمدة خمسة وأربعين يوماً، هي الأيام التي تقطعها النفس في مسيرة عروجها ومرورها في الطهرات حتى تصل إلى محطة وزن الأنفس.

وفي حال توفي الشخص بشكل مفاجئ ولم يتمكن من نيل التطهر بالماء ولم يلبس الكفن قبل الوفاة، فيتم إلباسه الكفن، على أن تجرى له إجراءات لاحقة تقام عادة من رجل الدين في أيام عيد الخليقة لتحقيق الاستغفار لحدوث هذا النقص.
وليس هنالك ذكر لعذابات القبر في الديانة المندائية ولا للملاكين منكر ونكير، كما أن عالم البرزخ يمكن أن يتشابه مع عالم الحق.

الآخرة والمعاد

يثبت المعتقد المندائي أن النفس، وهي نسمة الحياة، هبطت من عالم آخر هو عالم النور، وتنتقل بالموت من حبسها في الجسد إلى التحرر والعودة لذلك العالم. وهذا الإيمان باليوم الآخر هو مبعث ثان في اعتبارهم ضمن الأديان التوحيدية بعد الإيمان بالله حسبما ورد في القرآن الكريم. وعندهم أن لكل نفس نظيرها في عالم النور يسمى "دموثا" يقطن في عالم الحق "مشوني كشطا"، ولا تكتمل راحة النفس بعد الانعتاق من الجسد إلا بالاتحاد به. إن إيمان المندائيين بالمعاد لا ينازع، بل إنهم يرون أن هذه الدنيا هي دار زوال، أجبرت النفس أن تأتي إليها لتحيي الجسد الطين وقد أخذت العهد من باريها أنها ستعود يوماً بحسب إرادته ومشيئته، وهذا أملها وتحملها. كل يغادر ويعود حسبما يرد عندهم فـ" الملك يترك تاجه،

والغني ذهبه وديباجه، والنساء جمالهن، والمغريات إغراءهن، ويذهبون إلى القبور حفاة. "

مسيرة النفس والعروج بعد الموت

تنطلق النفس بعد الموت مع مخلصها تاركة الجسد للتراب وفي هذا يرد نص المخاطبة في كتاب گنزا ربا:

"بسم الحي العظيم، عارية جئت إلى العالم، فارغة منه أخرجوني، مثل عصفور وحيد،.. ماذا أصنع لك يا جسدي؟ لو كنت يا جسدي ثوباً من ضياء ونور، للبستك فصعدت معي إلى بيت الحي، لو كنت هميان ضياء ونور، لتحزمت بك فصعدت معي إلى بيت الحي، لو كنت إكليل ضياء ونور لتوّجت بك رأسي فصعدت معي إلى بيت الحي، لو كنت صولجان ضياء ونور لأمسكتك بيدي فصعدت معي إلى بيت الحي، لو كنت خف ضياء ونور لانتعلتك فصعدت معي إلى بيت الحي، .. فماذا أفعل لك يا جسدي؟ لقد جُبلت من طين، وستعود إلى طين".

وتعرج النفس إلى عليين في مسيرة تستغرق 45 يوماً تمر خلالها بسبعة مطهرات تحاسب فيها الروح المصاحبة عن كل الأعمال التي قامت بها خلال وجودها في العالم الأرضي وبحسب شريعة دينها ووصاياه في إقامة الصباغة، وأداء فروض الصلاة، وإقامة الزواج والإنجاب، وتقديم الصدقات، والقيام بالعمل الصالح، وعدم الزنا

والسرقة والقتل والكذب، وعدم السجود للكواكب أو تعظيم الأبراج، وعدم السجود للشيطان أوالغواية به، وتحاسب على أساس القيم الإيجابية التي تحض عليها الديانة.

فإن كانت صفحة أعمالها صالحة، وحسناتها أكثر من سيئاتها كان مرورها في هذه المعابر والمطهرات يسيراً وسريعاً. وإن لا، يتم إيقافها ومحاسبتها ويتعثّر صعودها، وقد تبقى محجوزة في أحد المطهرات لشأن خطيئة كبيرة.

وبعد مسيرة الأيام الخمسة والأربعين توزن النفس بميزان الملاك أباثر الذي يكون في آخر محطة من محطات المطهرات، وفاصلة العبور. توضع النفس بإحدى الكفتين يقابلها في الكفة الأخرى قيمة نفس النبي شيت بن آدم (ع) كأنقى نفس بشرية. فإن ساوتها في النقاوة حصلت على شهادة العبور، وإلّا أعيدت حتى تتنقى من عوالقها، ذلك أن لا نفس ترتقي إلى عالم النور ما لم تكن طاهرة ونقية. وعلامة النقاء أن تكون مقاربة في الطهر لنفس شيت بن آدم (ع). فإن تخطت امتحانها بوزنها، طارت مع مخلصها وانطلقت تبحث عن نظيرها الذي يكون بانتظارها حتى يلتقيا فيأتلفا ويتّحدا مثلما كانا قبل أن تهبط النفس إلى الجسد الذي عاشت فيه عمراً محدوداً، ومن ثم يعبران المياه الفاصلة التي تفصل عالم النور عما سواه ليكون فيه الاستقرار الأبدي.

إن فكرة الحساب والعقاب ثابتة لدى جميع الديانات التي تؤمن باليوم الآخر، إذ ماذا سيكون في اليوم الآخر لولا أن يتم الحساب ثواباً وعقاباً على ما كان للروح في الدنيا، ولذلك جاءت فكرة الجنة والنار ومحطات التطهير وغيرها. وقد يتم التصوير بدرجات كبيرة وشديدة من العقاب لكي يتعظ البشر في دنياهم وأن يأتوا العمل الصالح والسلوك القويم. وما الحساب إلا لصلاح النفس في الدنيا لكي تكون هانئة، وتطهيراً وبراءة لها حتى ترتقي لتستقر أبدياً في عالم النور.

القبور لدى الصابئة المندائيين

بعد اليوم الثالث من الدفن يتم تخريب الحدود والأختام التي وضعت على القبر. وبعد أن تصل النفس إلى بوابة الملاك أباثر صاحب الميزان في اليوم الخامس والأربعين تنتهي قيمة الجسد وقبره، وحينذاك يجوز نقل الرفاة أيضاً. والمعروف أن القبر عند الصابئة المندائيين لا يشكل قيمة بحد ذاته، ولذلك ليس هنالك بناء للقبور ولا توضع في الأصل الشواهد عليها، فخير القبور الدوارس. أما الذكر للأنفس فيكون من خلال إقامة طعام الغفران باستمرار الذي يكون فيه تشارك بين الأحياء والأموات في الذكر والاعتبار، وكذلك فيما قدمه الشخص في حياته من أعمال تخلد اسمه وتبقيه حياً متداول الذكر بين الأحياء. أما بناء القبور الذي حصل وخاصة

في الزمن المعاصر فقد صار بأسباب تأثر المندائيين بالمجتمع المحيط وتقليداً لهم، كما أعتمد على أثر وفاة العديد من الشباب بأسباب الحروب في العراق وتأثراً عليهم.

الفصل الخامس

اللغة المندائية وأبجديتها ومفرداتها في العامية العراقية

يعد وجود لغة ما علامة قوية من علامات وجود شعب أو أمة وبروزها في زمن ما، فهي أداة تمليها حياة الجماعة وحاجتها في التخاطب ووسيلة للتدوين والتوثيق. وليس ابتكارها عملية سهلة وميسورة حتى لو كان الأمر تطويراً أو تبنياً للهجة خاصة. ولكي تبقى أية لغة حية لابد من بقاء شعبها أو أمتها أو متحدثيها. وعلى هذا فقد عدّت اللغة من هذه الناحية دلالة حياة ووجود، وعلامة على استقراء الماضي من خلال مفرداته وكيفية التطور والمسيرة التي مرت بها حياة تلك الأمة وذلك الشعب بالتأسيس على تطور مفردات لغته.

ينطبق هذا على الصابئة المندائيين من خلال اللغة الخاصة بهم والمسماة باسمهم "اللغة المندائية" التي كانوا يتحدثون بها والتي دونوا بها جميع كتبهم الدينية وآدابهم. هي لغة آرامية شرقية ذلك أن اللغة الآرامية تُقسم على قسمين: آرامية غربية وهي لغة فلسطين وحوض الأردن وبلاد سوريا ومنها لغة السيد المسيح، وآرامية شرقية وهي لغة بلاد النهرين. وهذه تنقسم على شمالية وهي اللغة الآشورية، وجنوبية وهي لغة البابلين ومنها المندائية التي تعد من

قبل اللغوين الفرع النقي للآرامية الشرقية بسبب محافظتها على عدم دخول مفردات دخيلة إليها من اللغات الأخرى.

إن تميز المندائيين بلغة خاصة له دلالات إعتبارية في الوجود والثراء والتفاعل ويظهر ذلك في:

1- وجود كيان معين ذي خصوصية سعى لتمييز وبيان وحفظ هذه الخصوصية التي نمت وتوسعت إلى الحد الذي أملى قيام لغة خاصة. إذ حتى لو انقرض المندائيون فإن وجود لغتهم سيبقى علامة ثابتة ودليلًا أكيداً على وجودهم في زمن معين.

2- قيمة الكيان وثراء العقيدة، التي من جملة ما سعت للظهور به هو أن تضع لغتها قبالة اللغات الأخرى في المنطقة.

3- قدرة الابتكار والتطوير من الأتباع وذوي التمكن لما تتطلبه اللغة من بناءات واشتقاقات والأبجدية التي تأتي تتويجاً لأية لغة وصفة مميزة.

4- القدرة على التحدي، فاللغة المندائية ظهرت في منطقة تُعد من أغنى بيئات اللغات واللهجات.

5- كثرة عدد التابعين، ذلك أن اللغة لا تكون إلاّ لشعب أو أمة كبيرة ذات خصائص متميزة، خاصة إن كانت بيئة وجودها الجغرافية غير نائية أو معزولة عن شعوب ومجتمعات التعايش الأخرى وما لهم من لغات.

6- الإصرار على البقاء والوجود، فاللغة يمكن أن يتوقف اعتمادها وينتهي استخدامها ما لم يصر أتباعها على استخدامها.

واللغة المندائية، وإن أصبحت اليوم لغة طقوس دينية في جانبها الأغلب، فإن مجرد التمعن في أنها قاومت من أجل البقاء لما يزيد عن ألفي عام هو شهادة لها في القيمة وحرص الأتباع على الاعتماد. ويرى بعض المعنيين أن الأسباب الدينية هي الأكثر أهمية في ابتكار هذه اللغة بحكم أن المدَون والمتوارث بهذه اللغة اليوم هو الكتب الدينية والأدب المندائي، إذ لم يُعثر لحد الآن على تدوينات أخرى. وربما يُعزى ذلك أيضاً إلى محاربة هذه اللغة والتدوينات فيها، وما بقاؤها إلاّ لأن الكتب الدينية المندائية قد كتبت بها فحافظ عليها المندائيون. وقد نسخت بعناية وحرص شديدين وحفظت مدفونة بألواح الرصاص في مراحل التهديد والاضطهاد.

ظهور اللغة المندائية ومصادرها

ليس من السهل تحديد المدة التي ظهرت فيها اللغة المندائية وذلك بأسباب قِدم المندائيين أنفسهم وعدم إمكانية تحديد تاريخ ظهور المندائية ذاتها ومن ثم لغتها. كما أن عدم اهتمام المندائيين بالتوثيق التاريخي أضاع فرص متابعة تاريخ لغتهم. فضلاً عن ذلك قلة الآثار والمخلفات المادية التي تتضمن كتابات مندائية يمكن اعتماد

تاريخها مؤشراً لظهور اللغة سوى بعض النقود التي تحمل كتابات باللغة المندائية وقحوف الأحراز، والمخطوطات الدينية.
وهذه المخلفات على أهميتها لكنها تتحدد بالمدة الزمنية للمخلفات ذاتها، بمعنى أن اكتشاف أي لـقىً ومخلفات أصلية أخرى يعود تاريخها إلى أبعد من تاريخ ما مكتشف لحد الآن سيغير من القناعات المتوافرة حالياً ويسحب إلى توجهات جديدة سواء من حيث اللغة ذاتها أو تاريخ الناطقين بها ومواقع نشوئهم.
وأما المصادر فتتمثل في:

1- النقود

ضمن الحفريات التي تمت قرب مدينة الرقة في أعالي نهر الفرات وكذلك في جنوب العراق في أطلال (تلّو) تم العثور على عملات نقدية تحتوي كتابات تبين أنها قد كتبت بأبجدية اللغة المندائية. وهذه أهم إشارة إلى تبني الأبجدية المندائية من الكيان الرسمي للملوك الذين حكموا في تلك المناطق. ويفاد من هذه الاكتشافات في معرفة مدى انتشار الأبجدية المندائية ورسوخها والتعامل بلغتها إلى الحد الذي يتم فيه تبني أبجديتها في سك النقود. لقد أمكن

إرجاع تاريخ أقدم النقود التي تم العثور عليها لحد الآن إلى حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.

2- الأواني والقحوف الفخارية:

في مناطق متعددة من بلاد ما بين النهرين الوسطى والجنوبية تم العثور على عدد من الأواني والقحوف الفخارية تحمل كتابات بالأبجدية المندائية. ومن دراسة الكتابات التي دونت على هذه اللقى وجد أنها تشير إلى تعاويذ ورقى مما كان مألوفاً أن يدون في تلك المراحل على مثل هذه الفخاريات التي تدفن تحت بوابات البيوت طرداً للشر أو جلباً للحظ الطيب. ويدلل تعدد مواقع العثور على هذه اللقى وتباعد مناطقها على درجة اتساع الرقعة الجغرافية التي كان يقطنها المندائيون ومن ثم كثرة أعدادهم في مراحل معينة. لقد ضم المتحف العراقي (39) إناء فخارياً شكّلت الكتابات عليها مادة دراسة للعديد من الباحثين بغية الوقوف على مضامينها وطريقة

تفكير من كتب ومن امتلك. إن المدة الزمنية لأقدم الأواني المكتشفة لحد الآن يعود ربما إلى حوالي القرن السابع الميلادي.

3- الصخور والنقوش:

لم يهتم المندائيون بالتماثيل ولا بشواهد القبور فدُرست قبورهم ولم تقدم لنا من هذه الناحية ما يفيد في الاستدلال على أبعاد تاريخية للمخلفات أو الكتابات. ومع ذلك فقد عثر في الجنوب الغربي من إيران على صخور تحمل كتابات كتبت بأبجدية تشابه حروفها حروف الأبجدية المندائية. وقد دار حولها نقاش شديد بين المتخصصين من حيث عائديتها إن كانت مندائية أم عيلامية لم يبت الأمر فيه بسبب المعاصرة ما بين المندائيين والعيلاميين.

4- ألواح الرصاص:

اعتمد المندائيون ألواح الرصاص للكتابة عليها لرخص هذه المادة وتوافرها وسهولة الكتابة عليها، وعدم قابلية الرصاص للتآكل حتى لو دفن في الأرض حفاظاً عليه من الضياع أو للحجب عن الآخرين في حالات الصراعات. كما أن الكتابة على ألواح الرصاص هي الوسيلة التي يمكن من خلالها إدخال الكتابات الدينية إلى الماء والقيام بتطهيرها بالماء الجاري لتكون أصلح في حملها والقراءة فيها في بعض الطقوس الدينية وأبرزها طقوس الإرتقاء "المسقتا". وهذا الأسلوب مازال معتمدا لحد الآن من بعض رجال الدين. ويشار إلى أن أقدم الألواح الموجودة حالياً تعود إلى القرن الثالث الميلادي.

5- المخطوطات الدينية:

تعد المخطوطات المندائية أكمل المصادر التي يمكن الوقوف من خلالها على اللغة المندائية من حيث مادتها ولغتها بمفرداتها المتكاملة وبطريقة الكتابة بها. كما أنها تظهر قدرات المندائيين في صياغة النصوص الدينية والأدب المندائي الذي تم توثيقه باللغة المندائية في هذه المخطوطات. لقد دأب المندائيون على نسخ كتبهم الدينية يدوياً حتى اليوم. ولأهمية أن يحتفظ المندائيون بكتب ديانتهم في بيوتهم فقد ظلت عملية نسخ هذه الكتب مستمرة على مر العصور.

إن حرص المندائيين على أن لا يمس المحتوى وطريقة كتابة كتبهم الدينية أي اختلاف أو تشويه أو دسّ أو غير ذلك أدى إلى أن يعتني المندائيون عناية فائقة بموضوع نسخ كتبهم الدينية. وما يهمنا أن الناسخين المندائيين دأبوا على وضع قائمة بأسماء الناسخين الذين قاموا بنسخ الكتاب الذي ينسخون عنه. وهؤلاء غالباً ما يكونون من رجال الدين المتقدمين في سلم الكهنوت المندائي ومن ذوي

الكفاءة المشهودة. وبهذا الأسلوب حفظت لنا المخطوطات المندائية، فوق مادتها، قائمة بأسماء ناسخين تمتد لأجيال عديدة.

التحدث باللغة المندائية

ليس من السهل الجزم بالمدة الزمنية التي استمرت فيها اللغة المندائية لغة تخاطب بين المندائيين أنفسهم على الأقل. فالمعنيون بمتابعة تاريخية هذه اللغة يقفزون من مرحلة ما بعد المندائية الكلاسيكية، وهي مرحلة دخول الديانة الإسلامية للمنطقة وإشاعة اللغة العربية لغة دينية ورسمية في أوائل القرن السابع الميلادي، إلى القرن السادس عشر حيث دخل المبشرون المسيحيون البرتغاليون إلى العراق عبر البصرة وجابوا المنطقة وتعرفوا على المندائيين، ومن خلالهم صارت اللغة المندائية معروفة للغرب حيث قام المبشرون بإرسال نسخ من الكتب الدينية المندائية ليطلع عليها الغرب لأول مرة مما جعلهم يعكفون على فك رموز ألفاظها وتعلمها من أجل ترجمة ومعرفة محتويات تلك الكتب.

وبسبب توقف الدرس الديني والإلزام بتعلم اللغة العربية التي صارت هي اللغة الأساس التي فرضت على البلاد بعد دخول الإسلام، ولتوزع المندائيين على مناطق عديدة ضعف اعتماد لغتهم بوصفها لغة تخاطب بينهم، وللأسف توقف التحدث بها حتى في البيت. وما أسهم في بقائها هو الإصرار على اعتمادها في قراءة

ونطق النصوص الدينية في أثناء ممارسة طقوسهم وشعائرهم. وتعد اللغة المندائية اليوم لغة مهددة بالانقراض وقد تم سعي الباحث لتسجيلها في أطلس اليونسكو عام 2006.

الأبجدية المندائية: حروفها، أصواتها، وطريقة رسمها

أملت الحاجة إلى التدوين وجود أبجدية خاصة، ولم يعتمد المندائيون أبجدية لغة أخرى في كتابتهم بل قاموا بوضع أبجديتهم وتسمى الأبجدية المندائية. وهي، شأن جميع أبجديات اللغة الآرامية، تتكون من اثنين وعشرين حرفاً.

كما أنها تحتفظ بالتسلسل الأساس لصيغة "أبجد هوز"، ولذلك فإن حروفها تتسلسل: "أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت". وربما من أجل أن يستكمل عدد الحروف ليكون عدداً فلكياً (24) كونه من مضاعفات العدد (12) فقد عمد المندائيون إلى حساب أداة التعريف "إد" حرفاً، كما كرروا حرف الألف في آخر الأبجدية انطلاقاً من نظرة تكاملية بحسب فلسفة العقيدة المندائية أن جميع الأشياء تعود في منتهاها إلى مبتداها. هكذا صار عدد حروف الأبجدية المندائية أربع وعشرين حرفاً.

أما أصوات الحروف فإن لفظها يكون في لفظ ما يقابلها من حروف مناظرة في اللغة العربية تقريباً عدا أن صوت حرف الجيم لا يلفظ

جيماً بل كافاً ثقيلاً كما في اللغة الفارسية واللهجة المصرية. ويظهر أن حرف الحاء قد ضمر استخدامه وتحول تدريجياً ليصير إشارة إلى ضمير الشخص الثالث المفرد الغائب ويلفظ في الغالب كما يلفظ حرف الياء. وقد تحول صوت حرف الحاء الذي يرد في الكلمات إلى صوت حرف الهاء، كما فقد العين صوته وتحول إلى صوت نطق الهمزة.

أما طريقة تهجئة الحروف في اللغة المندائية فيكون مطابقاً تماماً للطريقة المعروفة في العامية العراقية، أي باعتماد الهمزة المكسورة قبل صوت الحرف وتسكين آخره. فحرف الباء مثلاً لا يلفظ باء بل "إبْ "... وهكذا. ويعد هذا التطابق أول وأبرز تطابق بين اللغة المندائية والعامية العراقية.

تعتمد الأبجدية المندائية حروف المد الثلاثة (ا، و، ي) لأغراض المد القصير وبما يقابل الحركات الثلاث المعروفة في اللغة العربية بالفتحة والضمّة والكسرة. ولا توجد في الكتابة بالمندائية علامات للفواصل والنقاط التي تحدد نهايات الجمل وفواصلها كما هو معتمد في اللغة العربية والإنكليزية حالياً. ولا يوجد في الأبجدية المندائية شكل صغير أو شكل كبير لكتابة الحرف الواحد كما في الأبجدية اللاتينية، فالأبجدية المندائية تتحدد كما الأبجدية العربية بشكل واحد لكتابة الحروف. كما لا توجد علامات لكتابة الأرقام بل تكتب الأرقام كتابة. والأبجدية وإن اعتمدت كتابة الحرف في

أربعة مواقع بحسب وروده في أول ووسط وآخر الكلمة وبشكل منفرد أيضاً، لكن الحرف في هذه المواقع يبقى محافظاً على شكله فيما عدا حالة الاتصال. وكما في اللغة العربية، فإن الكتابة في اللغة المندائية تكون متصلة بحسب قابلية الحروف على الاتصال. وهنالك ستة حروف تتصل من اليمين ولا تتصل من اليسار وهذا ما يجعل فواصل بين بعض الحروف وعدم ارتباطها ضمن الكلمة ذاتها. وهذه الحروف هي (آ، ز، ح، ي، ش، إد). وتتشابه اللغة المندائية مع اللغة العربية في صيغ كتابة الجمل والنصوص حيث يمكن أن تكون فيها الجمل إسمية وفعلية، لكنها لا تحتوي على تعقيدات النحو والإعراب كما في العربية.

اللغة المندائية اليوم

لقد تحددت اللغة المندائية اليوم بكونها لغة طقسية تعتمد فقط في أثناء إجراء الطقوس الدينية من قبل رجال الدين وتردد بطريقة "ببغاوية" من المندائيين في الحالات التي يتطلب النطق من قبلهم بقسم معين كما في طقوس الزواج، أو تقديم العهد في التعميد أو الصلاة "البراخا" والاستغفار. وفي أغلب الأحيان لا يفقه عامة المندائيين ما يرددونه من كلمات أو نصوص إلا في بعضها المتواتر والمشهور بينهم. وعلى الرغم من محدودية إمكانيات المندائيين في هذا المجال فقد سعوا إلى بعض المحاولات التي بدأت بصف

لتعليم اللغة المندائية في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي في المعبد الديني ببغداد.

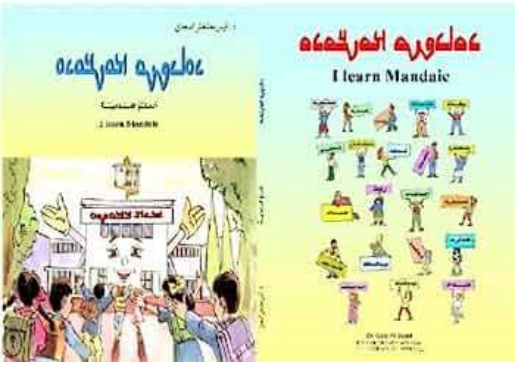

أما على مستوى الاهتمام الأكاديمي باللغة المندائية، فتسجل اليوم بعض نشاطات التأليف في هذا الخصوص حيث صدر كتاب عن تعلم قواعد اللغة المندائية[31] معززاً بالشرح باللغة العربية، وكذلك قيام المؤلف بوضع كتاب أساس لتعليم اللغة المندائية في المرحلة الأولى لتعلمها[32]. وتم السعي لاعتماد الأبجدية المندائية لأغراض الكومبيوتر بما جعل هذه التقنية مستخدمة اليوم وقابلة للتعميم بما يفيد في التوثيق المندائي وتسهيل عملية الكتابة والطبع بالحرف المندائي ونشر المؤلف نسخة منه بالتعاون مع (SOAS) جامعة

31 أمين فعيل حطاب. قواعد اللغة المندائية . بغداد 2002

32 د. قيس مغشغش السعدي. أتعلم المندائية. ألمانيا 2004

لندن[33]. وقد كان للمؤلف المسعى في لفت نظر منظمة اليونسكو بوصفها منظمة دولية أوكلت لها مهمة رعاية التربية والثقافة والعلوم إلى موضوع التراث الثقافي المندائي عامة واللغة المندائية بشكل خاص وهو ما تمخض عن تثبيت اليونسكو اللغة المندائية لغة مهددة بخطر الانقراض ضمن أطلسها للغات المهددة للعام 2006 ووجهت الدعوة لضرورة رعايتها ودعمها. وفي العام 2012 أصدر المؤلف القاموس المندائي "نهورا" المؤسس على قاموس الليدي دراور وهو بكتابين الأول مندائي عربي وبالعكس والثاني مندائي إنكليزي وبالعكس بما يوفر فرصة للبحث عن الكلمة بالعربية أو الإنكليزية لإيجاد مقابلها المندائي أيضا. ولمناسبة اعتماد الأمم المتحدة عام 2019 عاماً للغات الشعوب الأصيلة أصدر المؤلف كتابه معجم المفردات المندائية في العامية العراقية لإظهار عمق الوجود المندائي في بلاد ما بين النهرين بدلالة المتبقي لحد الآن من مفردات لغتهم في اللسان العراقي عامة.[34]

33https://drive.google.com/file/d/1uNK2Z7mcuxKMzguamRYY6XB71wvGtC0x/view?usp=sharing

34 قيس مغشغش السعدي. معجم المفردات المندائية في العامية العراقية . دار الرافدين للنشر. بيروت 2019

وما زال المندائيون يأملون بأي دعم من وطنهم العراق أو منظمة اليونسكو والجامعات لتوثيق هذه اللغة ودعم إحيائها بوصفه جانباً من إرث بلاد الرافدين والتراث الإنساني عامة.

اللغة المندائية والعامية العراقية

حينما نسأل عن قومية الصابئة المندائيين نقول أنها عراقية، ومن ثم فلغتهم عراقية، ولهم بذلك الحق فيما تبقى من ترسبات بشكل مفردات سومرية وكذلك أكدية وهي كثيرة، ومن ثم الآرامية الشرقية وخاصة فرعها الجنوبي. وتعد اللغة المندائية ركيزة أساس في تفنيد نظرية الأصل الغربي للمندائيين بحكم الكم الكبير من المفردات المندائية التي ما زالت شائعة في العامية العراقية وخاصة في لغة الجنوب العراقي التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنتقل من المندائيين إلى لهجة تخاطب عامة الناس لولا وجود مؤصل ومتواصل للصابئة المندائيين في المنطقة.

ولا يتحدد الأمر فقط بوجود عدد كبير من مفردات اللغة المندائية الذي مازال معتمداً في اللسان العامي العراقي، بل إن ذلك يظهر في أمور أخرى مثل اللفظ والصرف والنحو مما يتطلب مبحثاً خاصاً.[35] على أن الأكثر ظهوراً هو الكم الكبير من مفردات لغة المندائيين وصيغ استخدامها المشتركة بين المندائيين وبيئة وجودهم لتكون دليلاً على أنهم من هذه البيئة وليس من غيرها. وكأمثلة شائعة لبعض المفردات نشير إلى مفردات نذكر:

أكو، ماكو: يوجد/ لا يوجد، چا: قل/ أذكر، أبو خريان: مرض البثور، قوزي: أقوزا بمعنى صغير، زعطوط: من كلمة زوطا بمعنى صغير، چلاق: من الفعل شلق بمعنى إرتفع، إنچطل: الفعل كطل بمعنى قتل، يا عين موليتين: ميلا يتون: من اين يأتون، دللول يلولد يبني: دل بمعنى هز، لول: الطفل الصغير وهي ترنيمة عراقية قديمة مشهورة ، زوري: الفعل زرا بمعنى يلمع وتطلق على نوع من السمك الصغير لأن صدفه لامع، كاروك: من الفعل كرك، نشلة: الأساس نشرة بمعنى رشح، مشحوف: الفعل شهف بمعنى نحيف وهي تسمية لسفينة صغيرة، طركاعة: طيرقا بالمندائية معناها مشكلة أو مصيبة، طلي (خروف صغير): طاليا ، طنكر: تقوم على الفعل

35 تم تناول ذلك ضمن كتاب المؤلف معجم المفردات المندائية في العامية العراقية الذي تم فيه تأصيل ما يزيد على 1250 مفردة من التي ليس لها أصل عربي وليست وافدة من لغات بلدان الجوار.

تكر بمعنى المتاجرة، يشوّر: الفعل شرا بمعنى يسحق/ يدمر، شاطي باطي: السخرية والتحطيم...

جماليات الخط المندائي

إن قابلية مد وربط الحروف في الكتابة المندائية تتيح فرصًا للتشكيل في الكتابة كما في الكتابة العربية ومن ثم يمكن للخطاط

أن يشكل الكلمات أو بعض النصوص بطريقة تكون ذات جمالية فنية فضلاً عن معناها. وقد كان لنا في هذا الميدان العديد من الأعمال نضع بعض نماذجها هنا للدلالة.

الفصل السادس

القيم الأخلاقية والتربوية في الديانة المندائية

قوام الدين الأخلاق والارتقاء بالنفس الإنسانية لغايات سامية اقتداء بكمال وسمو الخالق. وعلى هذا تشترك جميع الأديان في التركيز على قيمة الإنسان وتربيته بما يحفظ القيم الأخلاقية التي جاءت بها، التي هي في الأساس تهدي إلى الإيمان طاعة واحتراماً للخالق، وتحافظ على كيان الفرد فرداً وعضواً في الجماعة والمجتمع، بل والإنسانية جمعاء. ومن خير الكلام في هذا ما يروى في الحديث عن النبي محمد (ص) قوله: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. فالأخلاق هي وصية الدين وسلوكه ومقياسه. وهي من عهد آدم في الوصية كما يرد في كتاب الصابئة المندائيين "رأس الحكم أن تحكم نفسك". وأمة بلا أخلاق يصيبها البلاء، وشرف الأعراق محتاج إلى شرف الأخلاق.

ولغرض الإلزام بالأخلاق والحثّ عليها فقد عُمد إلى أن يوضع الأساس منها في تنظيم حياة الفرد والجماعة بشكل عِبر ونواهٍ وتحذيرات وتوصيات وأوامر وصولاً إلى المحرمات. فالأخلاق مطلوبة لتنظيم حياة الناس في الدنيا وجعلها هانئة طالما أن الفرد لا بد له من العيش ضمن مجتمع ولو كان أسرته وحسب. كل ذلك

يرد في ديانة الصابئة المندائية، ويرد النذير بأن الحساب سيكون يوم تقف النفس أمام باريها في اليوم الآخر. والديانة المندائية لم تضع تشريعات قضائية في الحد والعقوبة دنيوياً، ذلك أن هذه الديانة لم تشرع لسلطة، فلا سلطان دنيوي في المندائية، إنما السلطان هو الإنسان نفسه، ولذلك يرد في كتابهم گنزا ربا:

"كل حي له نفس يصطفيها، يتعهدها ويقيها، لا تكن في خطيئتها ثاوية، إن أراد الخلاص من الهاوية"

وهذا يتطابق في المعنى مع ما يرد في القرآن الكريم:

"ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها" الشمس7 ،8 ،9 ،. 10

المحرمات والنواهي:

حددت الديانة المندائية المحرمات في شريعتها وأوصت المندائيين أن يلتزموا بها ويطبقونها، وأوردت المحرمات بما يبعد الإنسان عن ما يضر به أو يسيء له أو للآخرين، وعن ما يؤثر في القيم الإنسانية المطلقة التي ترقى للاقتداء بكمال الخالق. كما أوردت أيضا عددًا من النواهي التي يجب أن ينتهي المندائي عن القيام بها. وجميع المحرمات والنواهي هي مما ورد نصاً في الكتب المندائية وخاصة كتاب گنزا ربا الذي يعد مصدراً للتشريع المندائي.

أما المحرمات فهي:

1- الشرك بالخالق الحي العظيم الذي لا شريك له بملكه ولا نظير له بسلطانه.

2- الكفر باسم الخالق. فالكفر بالخالق محرّم، بل إن اسم الخالق يجب أن يسبح دائماً ولذلك توصي الديانة المندائية أنه إذا ما ذكر اسم الحي يجب أن يقال بعده: مسبح اسمه.

3- القتل: حيث يرد: أمسكوا أيديكم عن القتل.

4- السرقة: أمسكوا أيديكم عن القتل وسرقة لا تسرقون.

5- الزنا: أمسكوا أجسادكم عن معاشرة أزواج الآخرين. كما أن هنالك نصوصاً عديدة تحرم الزنا وتتوعد الزاني والزانية بأن مصيرهم سيكون عذاباً شديداً يوم الحساب.

6- الختان: وهو من المحرمات بحيث إذا اختتن المندائي غير مكره يعد خارجاً عن الديانة المندائية، لأن في ذلك اعتداء على كمال خلقة الله للإنسان.

7- أكل دم الحيوان أو الميت أو الحبلى أو المرضعة أو الجريح أو الحيوان المفترس.

8- الزواج من الأبوين، الزواج بين الإخوة (إن كانا من الأبوين أو من الأب أو من الأم) ومن ذريتيهما، ابن زوجة الأب، ابن زوج الأم، ابنة زوجة الأخ، زوجة الخال، أرملة الأخ أو طليقته، الزواج

من الأختين إذا كانت الأولى على قيد الحياة أو غير مطلقة، ويجري التحريم على الخالة والعمة.

أما النواهي فأهمها:

1- شهادة الزور: لا تشهدوا شهادة زور.

2- الربا: لا تأكلوا الربا، ولا تقرضوا بالسر.

3- السكر: قال النبي يحيى (ع): لم أشرب الخمر.

4- العزوبية وعدم الزواج، وقد اشترط في رجل الدين أن يتزوج وينجب.

5- البكاء والنواح وقص الشعر على الميت، الجهر بالصدقة، عمل السحر، خيانة الأمانة، اكتناز الذهب والفضة، السجود للشيطان والكواكب والأبراج .النميمة والتنصت والبوح بأسرار الآخرين، الاستهزاء بالآخرين وبالمعاقين.

توصيات أخلاقية وتربوية

تحفل الديانة المندائية بالعديد من النصوص الأخلاقية والتربوية التي تحض على ما هو خير للفرد وللأسرة عامة ولجميع الناس من أجل عيش مشترك متسامح قائم على المحبة والألفة والتعاون. فالديانة الحقّة تلتزم بفضائل الأخلاق وتعليم النشء قيماً تربوية يتسلك بها من أجل أن يحيا براحة، وأن يعيش كل المجتمع الذي هو مجموع الأفراد بسعادة وسلام. ولذلك تقاس الأديان بمقدار ما

توصي به من أخلاق فاضلة وإلزام غرسها في نفوس أتباعها ليكونوا من باهري الصدق وهو أعلى وصف لتمثل الأخلاق في البشر. وتتعدى المندائية في هذا إلى محبة الطبيعة وكل خلق الخالق الذي ما أوجده إلا بإرادة مقصودة وفيه نفع وتكامل وإن لم يدرك، ويصل بها الأمر أن الإنسان حينما يتنسم رائحة زكية يجب عليه أن يحمد ربه بالقول: "باسمة رائحة الحي ". وسنركز في أدناه على أهم ما يرد في هذا الباب.

* السلام: فالله الحي هو السلام ولذلك يرد في تحيتهم "شلاما نهويلخون: السلام عليكم " .وحين هبطت النفس إلى الجسد سألت ربها ثلاثة أسئلة: السلام والاطمئنان، وقلباً يحب الجميع الكبار والصغار، ودرباً مُمهداً إلى عالم الأنوار.

* العدل والحق، وهو القسط "كشطا" ، فالله حق وعدل ولذلك أملى أن يكون التعليم قائماً على ذلك، فبدون حق يختلط الأمر على الناس ويضيع العدل الذي هو أساس الحياة السوية والهنية للجميع.

ويرد:

"ويل لمن رأى طريق الحق فعدل عنه إلى طريق الباطل. "

وللوقوف على العديد من وصايا الديانة المندائية الأخلاقية نقرأ ما ورد في التسبيح الثاني من الكتاب الأول في گنزا ربا:

بسم الحي العظيم..

طوبى لمن عرفك، طوبى لمن تحدث بعلم منك .طوبى لمن ميزك، طوبى لمن تميز لديك .طوبى لمن رجاك واتكل عليك .طوبى لمن نهل من حكمتك، وتخلص من طغيان هذا العالم بهدايتك .طوبى للصالحين الصادقين الذين عرفوك وميزوك فصعدوا ظافرين إلى عالم النور. مبارك أنت ومسبحٌ أنت يا ربي يا ملك النور السامي . مباركٌ ومسبحٌ أنت إلى أبد الآبدين .بأمرك كان كل شيء وبأمرك خلق كل شيء.

أنا الرسول الطاهر .أمرني ربي أنِ اذهب وناد آدم وحواء زوجه بصوت سني. علم آدم ليستنير قلبه، وقومه ليستنير عقله وجنانه. كن أنساً له أنت والملاكان اللذان معك إلى العالم سيهبطان. علمه وزوجه وذريته الحكمة كيلا يغويهم الشيطان .علمهم الصلاة يقيمونها مسبحين لملك النور السامي ثلاث مرات في النهار ومرتين في الليل .قل لهم اتخذوا لأنفسكم أزواجاً وتناسلوا منكم ليزداد عددكم. وإذ تقربون أزواجكم فاطمشوا وطهروا نفوسكم. قل يا عبادي لا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تنتهكوا حرمات الناس.

أيها الصالحون والمؤمنون

أيها المؤمنون والصالحون

لا تبدلوا في الكلام، ولا تحبوا الكذب والآثام.

لا تكنزوا الذهب والفضة فالدنيا باطلة ومقتنياتها زائلة.

لا تسجدوا للشيطان، ولا تعبدوا الأصنام والأوثان .من يسجد للشيطان فمصيره النار .بئس المنتهى، وبئس القرار، خالداً فيها إلى يوم الدين .ساعة خلاص العالم .ساعة يحاسب الديان، نفس كل إنسان.

أيها الصالحون والمؤمنون لا تتعلموا رقى الشيطان ولا تشهدوا زوراً على إنسان، وإذا جلستم للقضاء فأشهدوا منكم ذوي العدل والذمام ولا تسيؤوا الأحكام. إن من يسيء الأحكام مصيره النار. لا تسلموا العبيد الصالحين إلى أسيادهم الأشرار ولا الضعفاء إلى الظالمين الفجار.

أيها المؤمنون والصالحون احترموا آباءكم، واحترموا أمهاتكم، واحترموا إخوتكم الكبار أجمعين.

إن من لا يحترم والديه مدانٌ إلى يوم الدين.

لا تنظروا إلى ما ليس لكم. لا تشتهوه ولا تبتغوه. ولا تعترضوا على ما وهبكم ربكم خاطئين، إن كل نعمة وهبت بمشيئة رب العالمين.

إن أصابكم سوءٌ فاصبروا واثبتوا في إيمانكم. لا تلووا ألسنتكم ولا تثنوا ركبكم ولا تحنوا رؤوسكم ولا تسجدوا للشيطان الرجيم.

دعوا من تحبون يستمع التسابيح التي وهبكم ربكم لعله يؤمن ويطيع.

فإن آمن بالحي وشهد له، فأكرموه وإليكم قربوه، وأحسنوا إليه بما تملكون. أما إذا أبى أن يسمع، أو سمع ولم يخشع، فربه هو الأرفع.

أيها المؤمنون والصالحون إذا رأيتم أسيراً مؤمناً صادقاً فافتدوه. لا تحسبوا الذهب والفضة منقذين النفس، إنما ينقذها الصدق والإيمان والتسبيح والإحسان. بهذا تنقذون النفس فتخرجونها من الظلام إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فتنعم بالصلاة والتسبيح بعد الانحراف والعصيان.

يا أصفيائي ..أيها المؤمنون

أرشدوا الأعمى وأحسنوا إلى الفقير. وإذ تهبون صدقة يا أصفيائي لا تشهدوا عليها. لا تعلم يمينكم بما وهبت شمالكم، ولا شمالكم بما وهبت يمينكم .بئس من وهب صدقة فأفسدها بالتشهير.

يا أصفيائي إذا رأيتم جائعاً فأطعموه، وإذا رأيتم عطشان فاسقوه، وإذا رأيتم عارياً فاكسوه.

طوبى لمن وهب فإنه لمأجور. طوبى لمن كسا فسيكسى أردية من نور. طوبى لمن أنقذ أسيراً فسيستقبله رسل ملك النور.

من تعلم تسابيحي ذكر اسمه في عليين، ومن استنار بكلماتي أصبح من الأثريين، ومن نجا من غواية الشيطان صعد إلى بلد النور الأمين، ومن ضحى حباً في الحي فهو المزكى.

يا أحبائي
أيها المؤمنون بي صوموا الصوم الكبير، صوم القلب والعقل والضمير. لتصم عيونكم، وأفواهكم، وأيديكم ..لا تغمز ولا تلمز . لا تنظروا إلى الشر ولا تفعلوه، والباطل لا تسمعوه، ولا تنصتوا خلف الأبواب. ونزهوا أفواهكم عن الكذب، والزيف لا تقربوه.
أمسكوا قلوبكم عن الضغينة والحسد والتفرقة.
أمسكوا أيديكم عن القتل والسرقة.أمسكوا أجسادكم عن معاشرة أزواج غيركم، فتلك هي النار المحرقة.
أمسكوا ركبكم عن السجود للشيطان ولأصنام الزيف.
أمسكوا أرجلكم عن السير إلى ما ليس لكم.
إنه الصوم الكبير فلا تكسروه، حتى تفارقوا هذه الدنيا.
من أخطأ ثم تاب، ثم إلى رشده ثاب، فإن الحي غفورٌ رحيم، هو ملك النور الحنّان التواب الكريم.
يا أصفيائي لا تقربوا الملوك والسلاطين والمردة في هذا العالم، ولا تثقوا بهم...
لا بأسلحتهم، ولا بحشودهم، ولا تلووا أعناقكم للذهب والفضة التي يكنزون، إنها سبب كل فتنة. سيتركونها وراءهم يوم إلى النار يذهبون. يمسكون لظاها بأيديهم، وينفخون لهيبها بأفواههم. سوف يزول عنهم سلطانهم، وتنتهي ملذاتهم، ولن يشفع لهم لا الذهب ولا الفضة التي كانوا يملكون.

يا جميع الذين تستمعون إلى نداء الحي:
حين تقومون وحين تقعدون، حين تذهبون وحين تؤوبون، تأكلون أو تشربون، أو في مضاجعكم، أو وأنتم تعملون، اذكروا الحي وسبحوه كثيراً.
هيئوا الماء واصطبغوا. أصبغوا نفوسكم بالصبغة الحية التي أنزلها عليكم ربكم من أكوان النور، والتي اصطبغ بها كل الصالحين المؤمنين.
باركوا الخبز وكلوا، وباركوا الماء واشربوا، تغفر خطاياكم وذنوبكم.
من وسم بوسم الحي، وذكر اسم ملك النور عليه، ثم ثبت وتمسك بصبغته وعمل صالحاً، فلن يؤخره مؤخرٌ يوم الحساب.
لا تأكلوا الدم، ولا الميت، ولا المشوه، ولا الحامل، ولا المرضعة، ولا التي أجهضت، ولا الجارح، ولا الكاسر، ولا الذي هاجمه حيوانٌ مفترس. وإذا ذبحتم فاذبحوا بسكين من حديد.
اغتسلوا واغسلوا، وطهروا، واطبخوا، وسموا، ثم كلوا.
أيها الرجال:
إذا اتخذتم لأنفسكم أزواجاً، فاختاروا من بينكم، وأحبوهن، وليحفظ أحدكم الآخر، واعتنوا ببعضكم عناية العيون بالأقدام.

ليحب بعضكم بعضاً وليحتمل بعضكم بعضاً، تعبروا بحر "سوف"[36] العظيم.

يا أصفيائي:

اسمعوا، واعملوا بما أوصيكم .فإن لم تسمعوا، أو سمعتم ولم تعملوا، ففي الظلمة التي وقع فيها الأشرار تقعون، إنهم باقون فيها لا يصعدون.

إخوة الجسد يبطلون، وإخوة الحق باقون، فكونوا يا إخوة الصدق مقيمين على محبتكم لا تتبدلون. إن الاسم الأول قد ثبّت سماتكم على هاماتكم، سمات الماء الحي التي بها إلى بلد النور تصعدون.

لا تبكوا موتاكم، ولا تقيموا عليهم الأحزان. إن من مزّق ثيابه على ميت فقد دنسها ومن قلع شعرة على ميت فسيربط بجبل الظلام بحبل لا يبيد.

كلما طالت أعماركم زادت خطاياكم، فلا تحزنوا على النفوس إذا فارقت الحياة، فمن الحزن تولد الأرواح الشريرة فتسبق نشماثا في عروجها، وتضايقها في دار الحساب.

من أحب موتاه فليطلب لأنفسهم الرحمة، وأقيموا عليها الصلاة والتسبيح، واقرأوا الابتهالات، وأقيموا طقوس الرحمة من أجلها، عندئذ يسير الضياء أمامها، ويأتي النور وراءها، ورسل الحي عن

---

36 عارض مائي تواجهه النفس للوصول إلى عالم النور ولا تعبره إلا بعون من يساعدها لأنها نقية طاهرة

يمينها، وملائكة النور عن شمالها، فتنجو من الموقفات ومن مراجل النار.
علّموا النفوس أن لا ترتاب قلوبها، وأسمعوها لغة السلام: التسبيح الذي آتيتكم .. فتشهد قلوبها وتطمئن.
طوبى لمن سمع وآمن، إنه يصعد ظافراً إلى بلد النور.
هبوا الخبز والماء والمأوى لبني البشر المتعبين وللمضطهدين، وكونوا عادلين، وتحابوا صادقين.
يا أحبائي:
لا يبت عندكم أجر أجير، ولا تسرقوا شريكاً، ولا تنتقموا بغدر من صديق. إن من يسرق صاحبه وشريكه لن ترى عيناه النور.
إذا عاهدتم فابسطوا أيمانكم ولا تخونوا عهدكم. إن الأثريين وملائكة النور يهبون الإتلاف والعهد بعضهم بعضاً. واعلموا أن معلميكم يعلّمونكم كلمة الحق والحكمة فلا ترفعوا رؤوسكم عليهم، وكونوا هادئين متواضعين. واعلموا أن السحرة والمنجمين في الظلام قابعون، فلا تقصدوهم.
لا تحلفوا كذباً، ولا تبدلوا أيمانكم، ولا تأكلوا مال الربا، وإن أقرضتم فلا تقرضوا سراً.
يا أصفيائي الصادقين والمؤمنين
لا تزنوا، ولا تفسقوا، ولا تمل قلوبكم إلى غواية الشيطان، إن غواية الشيطان ضلالٌ مبين.

كونوا أقوياء ثابتين، فإن اضطُهدتم فاحتملوا الاضطهاد إلى أن تقضوا آجالكم بعضكم لبعض مساندين. ولا تغضبوا ولا تهتاجوا، إن الغضب والهياج مملوآن بوسوسة الشيطان، فأطفئوا نار غضبكم بالإيمان.

إذا رأيتم حكيماً صادقاً فتقربوا إليه، وخذوا من حكمته. وإن رأيتم حكيماً شريراً فابتعدوا عنه ما استطعتم. إن حكماء الشر من أتباع الشيطان.

أيها المؤمنون ..أيها الصالحون

أحبوا لأصحابكم ما تحبون لأنفسكم، واكرهوا لهم ما تكرهون لها، وتزودوا لآخرتكم بالعمل الصالح، فانظروا، واسمعوا، وآمنوا، وتقبلوا كلمات ربكم.

انظروا بأعينكم، وانطقوا بأفواهكم، واسمعوا بآذانكم، وآمنوا بقلوبكم، واعملوا بأيديكم صدقة وطيبة. اعملوا بمشيئة ربكم، ولا تعملوا بمشيئة الشيطان.

لا يأسرنكم جمال الأجسام فجمالها زائلٌ، ولا تسجدوا للشيطان، ولا لأصنام هذا العالم الزائف.

كل من يولد يموت، وكل ما يصنع بالأيدي يفسد، والعالم كله يفنى، فأين سر الألوهية التي فيه إن كنتم تنظرون. إن عكازتكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكأون، فانظروا إلى ماذا تستندون.

يا أصفيائي:

لا تعترضوا على أمر ربكم وكونوا صالحين وادعين متواضعين، ولتكن فيكم التوبة، وتحلوا بالحنان والتسامح والرحمة إنها من طبيعة النور.

أيها الرجال الذين تتخذون نساء أنجبوا، فإن لم تنجبوا ذهبت ذريتكم.

لا تتخذوا الإماء أزواجاً، ولا تلقوا بأبنائكم في بيوت الأسياد عبيداً، إن ذلك وزرٌ عظيم.

أيتها النساء اللواتي تكن للرجال حذار مما لا يرضي الحي، ولا يحسن لدى الناس: الزنى والسرقة. وإياكن وعمل السحر إنه من رجس الشيطان.

الزوجة الصادقة تهب الحب الصادق. لا ينفصل بعضكم عن بعض حتى تنتهي أعماركم. ربوا أبناءكم وهذبوهم، والحكمة علموهم، واغرسوا في نفوسهم الإيمان، دعوهم يسلكون طريق الحق. إن من لم يرشد أولاده، ولم يعلمهم يحاسبه الحي. ومن سعى لهداية أولاده، فلم يهتدوا يحاسبهم الحي. من أخطأ منكم فقوموه وأسندوه فإن أخطأ ثانية فقوموه وأعينوه فإن أخطأ ثالثة فأرشدوه، والصلاة والتسبيح للحي أسمعوه، فإن عصى واستكبر، وأبى إلا المنكر، فاجتثوا هذه الكرمة من الجذور، وازرعوا مكانها كرمة تعرف طريق النور، فقد قالوا له اسمع فلم يسمع، وأروه نور الحي فلم يخشع، فسقط في العذاب.

إياكم والهزء بمعوق، أو السخرية من ذي عاهة. إن الأجساد قد تبتلى بالأوجاع، ولكن النفس لا تهان ولا تزدرى إلا بأعمالها.
يا أصفيائي .أيها المؤمنون لا تمجدوا الشمس والقمر. هو الحي الذي أمر فكان لهما وللكواكب هذا الضياء، لكي ينيروا به الظلماء. فإذا نادى الحي العظيم، سقطت كلها في قرار بهيم. إن الذين يسجدون للشمس، ويحرفون النداء الأول، قد ألفوا لهم كتاباً. لا تكونوا منهم، ولا تختتنوا، ولا تسلكوا طريق الذين على كلامهم لا يثبتون. فمن هؤلاء سيلٌ منسرب، وأنبياء كذب ينزعون الحكمة من قلوبهم، ويتألهون في شعوبهم، فيكتبون كتب الزيف، وينشرون الفتنة والحيف.
أنا الرسول الطاهر، أقول لجميع المؤمنين: ميزوا كلمات هؤلاء، إن بعضهم يكذب بعضاً. النبي يكذب النبي، والملك يطعن الملك. يتزلفون إلى البشر، ويغرونهم بالفضة والذهب، وبالغناء والطرب، ونصب الطين والخشب، فيوقعونهم في العطب، أو يلجأون إلى السيف، وينشرون الظلم والحيف. أو بالملق والخداع والزيف يجعلون أبناء آدم ينحرفون.
ويضعون اسم الله في أفواههم وهم كاذبون. يقولون هذا كلام الله وهم في كلام الله يدسون.
أنا الرسول الطاهر أقول لكم: لا تسمعوا نداء أنبياء الكذب، إنهم يتشبهون بالملائكة الذين هبطوا إلى العالم ولكن أضويتهم ليست

كأضويتهم، وأرديتهم ليست كأرديتهم .أولئك أرديتهم من نور، وهؤلاء أكسيتهم من نار.

يا أصفيائي:

البسوا الأبيض، واكتسوا الأبيض، ألبسة الضياء وأردية النور، واعتمّوا بعمائم بيض كالأكاليل الزاهية، وانتطقوا بأحزمة الماء الحي التي ينتطق بها الأثريون، وانتعلوا، واحملوا بأيديكم صولجانات مثل صولجانات الماء الحي التي يحملها الأثريون في بلد النور.

أيها الصادقون: لا تقولوا ما لا تعرفون ولا تدعوا الوحي فلا يوحي إلا العلي العظيم. سلحوا نفوسكم بأمضى من الحديد، سلاح الإيمان وكلمات ربكم الصادقة. ليشر بعضكم على بعض بالحسنى، إنكم كما تنقذون تُنقذون. ولا تكونوا كالنبت الرديء يشرب الماء ولا يعطي الثمر.

والحي مزكى.

إن من يقرأ هذه الوصايا يجد فيها ميثاقاً وقسطاً وعهداً قيماً وثابتاً يبين تعليم الديانة لأتباعها وهي تعاليم إنسانية قيمة، كما أنه تعليم صالح لكل زمان ومكان طالما يركز على قيم إيمانية وأخلاقية عليا.

الفصل السابع
الواقع الراهن للصابئة المندائيين

تعدادهم

لا يتوفر إحصاء دقيق عن تعداد الصابئة المندائيين سواء في العراق أو في إيران أو في بلدان المهجر، وكل ما يذكر يقع ضمن التخمينات التي تقدر عددهم بحوالي 70,000 سبعين ألف نسمة. كانت النسبة الأغلب منهم تعيش في العراق، أما في إيران فيقدر عددهم بعشرين ألف نسمة. وقد كانت هذه الأعداد تتوزع على مدن تواجدهم في جنوب العراق ووسطه وكذلك في جنوب غرب إيران. وظلوا يعيشون آلاف السنين في وطنهم حتى تهدد وجودهم بشكل ملموس في العقد الأخير من القرن العشرين وبداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين وخاصة بعد الاحتلال المريكي للعراق عام 2003، حيث اضطرت نسبة عالية منهم لمغادرة العراق والنزوح إلى بلدان المهجر. لقد توزع النازحون على عدد كبير من البلدان حتى أننا نجد الصابئة المندائيين يقيمون اليوم في أكثر من 15بلداً من بلدان المهجر. وأعلى نسبة تواجد لهم في السويد وأستراليا وأمريكا. يقدر عدد من يعيش اليوم في أستراليا بحوالي 14000 ألف نسمة وفي أمريكا حوالي 13000 نسمة وفي السويد

أكثر 12000 نسمة، والبقية تتراوح أعدادها بحسب تسلسل البلدان الآتية: هولندا، ألمانيا، الدنمارك، كندا، إنكلترا، النرويج، فنلندا، نيوزلندا، رومانيا.

وحين أضظر الصابئة المندائيون للنزوح من العراق فقد حلّوا أولاً في البلدان المجاورة في سوريا والأردن وتركيا ومنها انطلقوا إلى بلدان المهجر بشكل شخصي أو عن طريق الأمم المتحدة. ولطول مدة البقاء في هذه البلدان التي زادت عن عشر سنوات، فقد سعوا لتنظيم شأنهم وبخاصة في سوريا والأردن في إقامة الطقوس الدينية واعتماد مقبرة لدفن المتوفين منهم في هذين البلدين بحسب اتجاه الدفن نحو الشمال.

الشكل التنظيمي:

شهد عقد السبعينات من القرن العشرين تحركاً ثقافياً واجتماعياً لإدارة الشأن الديني وما يرتبط به من حاجة لمتابعة دور العبادة والطقوس الدينية.

وتم تشكيل المجلس الروحاني الأعلى للصابئة المندائيين في أواخر عام1980 وقد قام بنشاطات عديدة لتنظيم شؤونهم، ثم توسعت مهامه فتوزع إلى مجلسين هما المجلس الروحاني العام ومجلس الشؤون العام، ويرتبط كلاهما بمجلس العموم الذي يتشكل من تمثيل شامل لجميع أبناء الكيان المندائي.

وعلى إثر إسقاط نظام صدام حسين والتغيير الذي حصل في العراق، جهد المندائيون في الحصول على حقوقهم، وكان من ذلك أن نص الدستور عليهم تسمية وحقوقاً، وتخصيص مقعد لهم في مجلس النواب العراقي، وكذلك ممثل في مجلس محافظة بغداد ومحافظة ميسان، وصارت لهم مديرية ضمن المديرية العامة لأوقاف المسيحيين والصابئة المندائيين والإيزيديين في وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.

ومازالت رئاسة طائفة الصابئة المندائيين في العراق والعالم مقرها العراق، وتسعى جاهدة لإقامة العلاقات مع الجهات الرسمية والدينية مع جميع الأديان والمذاهب.

لقد كان نزوح الصابئة المندائيين لغاية تسعينيات القرن العشرين محدوداً، أما النزوح الأكبر فقد حصل بعد احتلال العراق وإسقاط النظام في عام 2003 بأسباب تدهور الأوضاع الأمنية وغياب القانون والنظام، وكثرة المليشيات، والتعصب الديني الأعمى المسير بالجهل والرغبة بالتسيد واستهداف ومحاربة الفئات والحلقات المسالمة. ونتيجة للتهديد المباشر وغير المباشر أجبرت جموع من المندائيين والمسيحيين والإيزيديين على النزوح ومغادرة العراق حتى وصلت نسبة من نزح من المندائيين حوالي 70 % في العراق ومثلها في إيران. وتشكل الكفاءات المندائية الأكاديمية والمهنية النسبة الأكبر بين النازحين لأنها الأكثر استهدافاً.

وفي محاولة لتنظيم أمرهم في دول المهجر سعى الصابئة المندائيون لتأسيس جمعيات وتنظيمات لهم في بلدان تواجدهم قدر توفر الإمكانات لمتابعة شؤونهم أمام المنظمات الإنسانية والدولية وكذلك من أجل إبراز الجوانب الثقافية وما يتعلق بلغتهم وتاريخهم وتراثهم. وصار لهم عدد من مواقع الإنترنيت، وغذوا الصفحات وكتبوا المقالات والأبحاث والدراسات.

وهكذا نجد أنهم منشغلون، على حداثة وجودهم في بلدان المهجر، بترتيب أمورهم رغم الصعوبات والتحديات الكثيرة والكبيرة التي يواجهونها التي يخشون من تهديدها لكيانهم الذي صار، على قلته، موزعاً على بلدان عديدة.

المستوى التعليمي والثقافي

سعى المندائيون لإدخال أبنائهم في التعليم النظامي منذ تأسيسه، وأتيحت لهم الفرصة في العراق إلى الحد الذي تكاد نسبة الأمية بينهم تكون صفراً.

وتفوق الأبناء في دراستهم التي أكملوها وتخرجوا فيها حتى صار بينهم العديد من المعلمين والمعلمات، ومن ثم المتخصصين في ميادين دراسية أخرى وخاصة في الطب والهندسة والتدريس الجامعي والوظائف الحكومية. واشتغل الأبناء في سلك التعليم والمهن الأخرى وأبدوا فيها كفاءة عالية وخدمة مشهودة ومقدّرة

من قبل جميع العراقيين. وظل آباؤهم مستمرين في مهنهم العملية وخاصة مهنة الصياغة التي تميزوا بها وكسبوا ثقة العراقيين أجمع، بل ووصلت شهرتهم فيها إلى دول أخرى عديدة.

وفي بلدان المهجر، ورغم حداثة عهدهم هناك، فقد استطاع كثير من الأسر امتصاص صدمة اللجوء وتثبيت شؤونهم الحياتية ليتابعوا تقدم الأبناء في دراستهم حتى تخرج العديد منهم بمستويات دراسية عليا وفي تخصصات دقيقة وقيمة وصار العديد منهم يشغل وظائف ممتازة.

المعرفة الدينية والطقسية

الديانة المندائية ديانة معرفية تقوم على معرفة الخالق الحي الأزلي بإدراك تام من خلال العقل الذي تميز به الإنسان على سائر الكائنات لكي يدرك ويعرف ويؤمن فيطيع. والمعرفة المندائية معرفة عقلية وحسية في آن واحد، وتذهب في الماورائية من حيث إدراك الخالق وطريقة خلقه للكون بكل ما فيه من تعقيد وانتظام وتعاقب وتكامل ووجود لا يتصادم مع بعض على كثرة ما فيه. وفي المعرفة المندائية تظهر فلسفة الخلق بتعقيداته، ولأن هذا الأمر لا يدخل ضمن المدركات الحسية فإن عرضه يتطلب معرفة كبيرة وإيماناً لتصور هذا الخلق الذي هو علة الوجود والسبب في الإيمان. والأكثر لغزاً في الحياة موضوعة الحياة ذاتها التي لا يعرف

كنهها إلى اليوم على الرغم من كل التقدم العلمي والتقني، ومقابلها الموت الذي هو حقيقة قائمة لا يمكن تجاهلها أو التخلص منها، وظل الإنسان عاجزاً أن يصل إلى نتيجة بمغزاهما الذي هو مغزى الوجود. ولذلك آمن الناس بقدرة الخالق بعد أن عجزوا عن أن يجدوا تفسيراً ورؤية لهذا الخلق المعجز، وكفر آخرون لأنهم لا يقتنعون بأن قوة خارقة ماورائية لا يمكن أن تدركها حواسهم هي وراء ذلك كله. هم يريدون أن يروا كل شيء عيانياً ليصدقوا به. ولو كان ذلك ممكناً لاستطاعوا رؤية النفس في أجسادهم أو رؤية المغناطيسية التي وراء عملية الجذب، أو الكهرباء التي وراء كل ما يصدر عنها. وهذا بعض الإعجاز لكي تبقى النفس متأملة حائرة، وأن تؤمن فتطيب وتهدأ، أو لا تؤمن فتنشغل وتشقى.

إن المعرفة الدينية تتطلب الدرس باستمرار من أجل التواصل والشرح والتوضيح لكي تؤمن النفس بما جاء وتقف عليه من معلميه العارفين. وما يؤسف له حقاً أن هذه المعرفة تعثرت عند المندائيين لعوامل عديدة أشدها تأثيراً هو الاضطهادات التي عانوا منها التي ألزمتهم بعدم الخوض أو النقاش في معارفهم فصارت تقل بالتناقل لقلة الشرح والإيضاح، وصار أغلبيتهم يفقدون أصول هذه المعرفة والقدرة على فهم معانيها والمقاصد وراءها بحسب ما وردت في النصوص الأولى. ومما زاد في الانحسار تقوقعهم في مواقع بعيدة وخشيتهم من التصريح بمعرفتهم بل وحتى عدم

إمكانية التحاور فيما بينهم بأسباب تعصب المجتمعات التي عاشوا بينها والغلبة في ذلك. أدى كل هذا إلى تراجع هذه المعرفة وتوقف فهمها حتى من عامة رجال الدين.

ثم جاء العصر الراهن والانتظام في التعليم النظامي الذي سحب المندائيين إلى الدراسة الأكاديمية وضرورة التفوق فيها طلباً للوظيفة وتحسين الحال المعيشي، فكان هذا سبباً مضافاً في انشغالهم وسحبهم من المعرفة المندائية، فخسرت المندائية في وقت أبناءً متعلمين يمكن أن يرفدوا المعرفة المندائية بالفهم والشرح والإيضاح. ومع كل ذلك فإنهم ظلوا ملتزمين بطقوسهم لأنها أساس وتتم في مناسبات مطلوبة ولا تحتاج إلى التدرب على تأديتها، خاصة وأن الديانة المندائية حريصة ومتشددة على أن تجرى هذه الطقوس على أصولها.

وقد تنبهوا اليوم فعادت بوادر المعرفة للظهور وعاد الاهتمام بالمندائية من أبنائها، فترى العديد منهم صار يقدم على الدرس والتعرف بشكل أكثر وخاصة من جيل الشباب الذي صار متعطشاً لهذه المعرفة في سعي جاد لإثبات هويته التي لا ينقصها إلا معرفة هذه الخصوصية حينما يريد أن يعرّف بها على الرغم من التحديات التي تواجه المندائية والمندائيين اليوم في الوطن الأم وفي المهجر، ناهيك عن ضعف القدرات والإمكانات مقارنة بجهات كبيرة تسعى لضمهم إليها.

ومن علامات هذا الاهتمام السعي لفتح صفوف أو دورات لتعليم اللغة المندائية، كما أنهم جهدوا في التأليف والترجمة لإطلاع أبنائهم والآخرين على قيمة دينهم وطقوسه، وتعاليمهم ولغتهم وتأريخهم. فقد قاموا في عام 2001 بترجمة كتابهم المقدس گنزا ربا إلى اللغة العربية ووضعه بصياغة مناسبة للمدارك واللغة، وقد تم نقل هذه الترجمة بعد تنقيحها تأسيساً على المصدر في اللغة المندائية إلى اللغة الإنكليزية في العام 2012 وصدرت الترجمة التي أسهم فيها مؤلف الكتاب وتم طبعها وتوزيعها مجاناً على عدد كبير من المندائيين في مختلف بلدان العالم. كما تمت ترجمة كتاب تعاليم يحيى وطبعه في العراق أيضاً، وقد تم وضع قواميس للغة المندائية منها قاموس مندائي عربي مندائي، وكذلك مندائي إنكليزي مندائي من قبل المؤلف عام 2012 كما أصدر المؤلف أيضاً أول كتاب متكامل لتعليم اللغة المندائية مع قرص تعليمي للفظ والقراءة بالصوت والصورة عام 2004 ، ناهيك عن صدور كتب أخرى من المندائيين أنفسهم، وتحفيزهم لغيرهم في وضع كتب أخرى عنهم. كما برز اهتمام بعض طلبة الدراسات العليا لدراسة المندائية لنيل درجة الماجستير والدكتوراه. وقد أسهمت مواقع الإنترنيت والتواصل الإجتماعي في نشر المعرفة والتعريف بالمندائية.

دور العبادة (المندي) الموجودة اليوم

ذكرنا بأن المندي هو بيت المعرفة والطقس الديني في المندائية، وقد كانت كثرة أعدادها دلالة على انتشار المندائيين. فالمعروف أن بيت مندا يبنى في كل منطقة يتواجد فيها المندائيون، ولذلك فحين يشار في كتاب تأريخي عندهم اسمه حران كويثا: حران السفلى، أن عدد المنادي في بغداد كان 400 منديا[37]، فإن ذلك يعني أن انتشار المندائيين وتواجدهم كان ممتداً في مناطق عديدة جداً قبل أن ينحسر ويتحدد في مواقع محدودة في جنوب العراق وجنوب غرب بلاد فارس. وتقلص عدد هذه المنادي لأسباب أبرزها عدم الحرية الدينية والمعاناة والاضطهاد الذي عاشه المندائيون على مدى قرون عديدة. أما اليوم، وعلى الرغم من هجرة نسبة كبيرة جداً من المندائيين، فإن بناء المنادي ازدادت وتيرته ليبلغ عددها في العراق

37 ترد تسمية بغداد في هذه المخطوطة القديمة التي يفترض أنها كتبت قبل بناء مدينة بغداد الحالية

7 منادي، ومندياً واحداً في إيران. أما في بلدان المهجر فإن هنالك صعوبات كبيرة تواجه بناء أو اعتماد المنادي من قبل المندائيين لحداثة وجودهم في المهجر ولتطلب الأمر إمكانيات مادية كبيرة، ولعدم تبني الدول التي صاروا يعيشون فيها أي دعم لهذا الأمر لحد الآن. ومع ذلك فقد تم تأسيس واعتماد ثمانية منادي موزعة بواقع مندبين في أستراليا ومندبين في أمريكا ومندبين في السويد ومندي في الدنمارك ومندي في هولندا.

ممارسة الطقوس في الوطن الأم

يظل المندائيون حريصون على إقامة طقوسهم الدينية التي من أبرز علاماتها أنها تقام في العلن، وأنها عامة لأنها تقام في الأنهار الجارية، وأنها جماعية في الغالب تتطلب التواجد والاحتفال المشترك. ورغم الصعوبات في ذلك أحياناً من الجهلة من المحيطين، ورغم الظروف الصعبة التي مر بها كل من العراق

وإيران من حيث الحروب والنزاعات والمخاطر التي يمكن أن يتعرض لها المندائيون عند إجراء طقوسهم العلنية والمفتوحة في الماء الجاري، إلا أن المندائيين ظلوا حريصين على تأديتها. واليوم نلمس ممارسة واسعة لهذه الطقوس وخاصة في المناسبات الدينية التي يحرص المندائيون فيها على تأدية أهم وأبرز شعيرة في طقوسهم وهي شعيرة الصباغة. وما زال المندائيون على قلة عددهم نسبياً في العراق وإيران يقيمون هذه الشعائر والطقوس في الماء الجاري أو في المنادي.

ويذكر أن العراق وبعد عام 2003 قد شمل المكونات العراقية بالرعاية، وقد ظهر ذلك في بعض التخصيصات المالية، والمساهمة في بناء المنادي وتجهيزاتها.

والملاحظ أن الصابئة المندائيين مستمرون في إجراء طقوسهم في الماء الجاري واعتماد الأنهر لذلك، كما أن اعتماد الأحواض في فصل الشتاء أو لمن يريد قائم أيضاً وخاصة في العراق الذي يعتمد الأحواض في أغلب المنادي الموجودة فيه. ومما هو جدير بالذكر إقدام الشباب المندائي على المشاركة في الطقوس المقامة وحضور المناسبات وكذلك الالتزام بالمعرفة الدينية، وليس أدل على ذلك من إقدام عدد متزايد منهم على الانتساب للسكك الكهنوتي والتزام الآخرين منهم بإقامة الشعائر الدينية، بل وحرصهم على تسمية أبنائهم وبناتهن بأسماء مندائية جميلة. ويحرص الباقون في العراق

من رجال دين ومؤسسة تنظيمية مندائية ومندائيين على تحدي الصعاب التي يواجهونها في ظل الظروف التي يمر بها العراق اليوم من حيث عدم الاستقرار والصراعات على السلطة والتوجهات الدينية المتعصبة والمهددة التي كانت وراء هجرة النسبة الأغلب منهم، وهم بهذا يوثقون حرصهم بتضحياتهم على أمل عودة من يعود في حال استقرار الأوضاع في العراق، كونه وطنهم الأول الذي احتضن وجودهم وتأريخهم ولغتهم وطقسهم بماء الفرات النوراني"فراش زيوا".

ممارسة الطقوس في بلدان المهجر

بعد أن استقر المندائيون نسبياً في بلدان المهجر سعوا لإقامة طقوسهم، خاصة وأن هذه الطقوس مطلوبة ولا بد من القيام بها في بعض المناسبات كما في إقامة مراسيم الزواج الذي يتطلب الصباغة وإجراءات قطع المهر، ولا يعترف بزواج لا تقام له المراسيم الدينية الصحيحة. ويذكر أن المندائيين ممن هاجر للدراسة أو لظروف خاصة في أوقات سابقة في منتصف القرن العشرين قد اضطر بعضهم للزواج والاقتران بقرين غير مندائي، وغالباً كانوا من الذكور. وقد كان لهم عذرهم إلى حدٍّ ما في ذلك لعدم إمكان موافقة فتيات مندائيات الالتحاق بهم في حال الإقدام على زواج مندائي، أو لعيشهم الطويل وتشكل زمالات أدت إلى زواجهم. ثم

اضطر عدد محدود أيضاً أن يقترن بزوجة مندائية، ولكن لعدم توفر رجل دين فقد كان اقترانه بالصيغة الرسمية في البلد الذي تواجد فيه وليس بحسب الشرع والطقس المندائي.

وقد حرص أغلب هؤلاء على إقامة الطقس الديني من جديد حين توفر رجل الدين أو نال الصباغة. وسعى غيرهم في مراحل أولى قبل أن تبدأ الهجرة الكبيرة للمندائيين وخاصة في ثمانينيات القرن العشرين إلى استقدام رجل دين إلى مملكة الأردن مثلاً كبلد مجاور ليقيم الطقس فيه أو استقدام رجل دين إلى أستراليا. ومع ازدياد المهاجرين المندائيين قام عدد من رجال الدين باللحاق بهم والتواجد معهم بشكل مستقر مما وفر إمكانية إقامة الطقوس الدينية التي بدأت بأكثرها حاجة وهو إقامة طقوس الزواج. ثم تزايد عدد رجال الدين حتى وصل اليوم إلى 50 رجل دين في العالم، يتوزعون على أغلب البلدان التي يتواجد فيها المندائيون بحيث إننا نجد اليوم أن عموم البلدان التي فيها تواجد مندائي يقيم فيها رجل دين عدا إنكلترا والنرويج وفنلندا.

ومع الصعوبات التي يواجهونها في إجراء طقوسهم التي سيتم تناولها لاحقاً، فإننا نرى حرص المندائيين على إقامة هذه الطقوس كونهم بها ينتسبون وبها يتطهرون ويتخلصون من خطاياهم وبها يقيمون أعراسهم وزواجاتهم. والمتابع يرى أنهم نشطوا في إقامة هذه الطقوس في مناسباتها، فإن سمحت ظروف المناخ أقاموها في

النهر بعد أن يستحصلوا الموافقات الخاصة، وإن لا استأجروا أحواض سباحة وجعلوا الماء فيها جارياً وأقاموا طقوسهم. ولم يتحدد هذا الأمر على بلد بعينه، بل نجد أن المندائيين يسعون في جميع بلدان تواجدهم على ذلك، ويعملون على استقدام رجل دين أو أكثر في حال عدم توافره في بلد إقامة هذه الطقوس.

وقد سعى المندائيون لأن يجعلوا من مناسباتهم مهرجانات احتفالية يجتمعون فيها ويقيمون الأفراح فضلاً عن إقامة الطقوس. وأبرز هذه الاحتفاليات هي مراسيم الزواج وطقوسه التي يحضرها الأهل من أسرتي وأصدقاء العروسين، وكذلك مهرجانات الصباغة في أيام الفرونايي وخاصة في أستراليا حيث يكون الجو مناسباً، ويوم التعميد في عيد الديمومة وأوسع المشاركات يقيمها المندائيون في هولندا بمهرجان كبير، مع سعي الجميع اليوم لتوسيع المشاركة.

كما سعى رجال الدين والتنظيمات المندائية لإقامة مهرجانات صباغة الطفل المندائي. وسعت بعض التنظيمات التي نظمت مهرجانات مندائية إلى تحديد يوم الأحد لإقامة طقوس الصباغة. كما أنهم عمدوا لإقامة طقس الصباغة في بعض المؤتمرات الأكاديمية التي أقامتها بعض الجامعات في ألمانيا وإنكلترا وأمريكا لجعل الأكاديميين المعنيين بالمندائية يقفون على إجراءاتها بشكل فعلي أمامهم.

ومع كل هذه المساعي والتوجهات، فإن الحاجة ما تزال قائمة لنشاط أكثر تنظيماً ودعماً من أجل إشاعة وتعميم وتيسير إجراء الطقوس الدينية لأنها الشكل الممارس والملموس من الدين الذي يحرك الجانب الوجداني العاطفي فيحفّز على الانتساب والالتزام ويقرّب فهم المعتقد نفسه بما يساعد على بقاء هذه الديانة العريقة التي تعد من منابع أديان الشرق.

الصعوبات والتحديات والإصرار

واجه المندائيون ويواجهون باستمرار صعوبات وتحديات في حياتهم تتمثل بكونهم أقلية دينية، وأنهم لم يسعوا إلى سلطان يقوون به، ذلك أن قوتهم بإيمانهم وبحرصهم على العيش بسلام مع كل المحيطين بهم دونما أن تكون لهم مطامع سياسية أو اقتصادية، والابتعاد عن كل ما يجر إلى صراع مع الآخرين، والتوجه

في الأعمال إلى الخدمات التي تقوم على المهارات والكفاءات المهنية، وكذلك على القدرات الذاتية التي يؤهلون أنفسهم بها بما يجعل منهم حاجة أساس في المجتمع. ومع ذلك فلم يحمهم هذا من توجهات المتعصبين دينياً الذين ينزعون إلى السيطرة أو لمحاولة في التغلب على كل من سواهم واستضعاف من لا يسعى إلى القوة في إثارة النزاعات أو صدها. هكذا سكن الصابئة المندائيون في جنوب العراق حيث توفر بيئة الأهوار حماية طبيعية لهم، والابتعاد عن كل أنواع الصراعات التي تكثر في مناطق المدن الكبيرة وذات النفوذ.

واستمرت هذه الظروف بسبب عدم استقرار الأوضاع في الوطن وحركت في نفوسهم ما تسجله ذاكرتهم من معاناة فأقدموا على الهجرة عندما وجدوا بصيصاً في القبول من قبل الدول المانحة لحق اللجوء وحين ازداد تعرضهم للاضطهاد الديني. وكان ذلك سبباً وراء حماية عدد كبير منهم وإلّا كان مصيرهم القتل أو الترويع أو الإجبار على تغيير ديانتهم من المجموعات الأصولية التي وجدت فيهم ضالة لصب جام صراعاتها. ولم يكن هذا الأمر محصوراً بالصابئة المندائيين فقط، بل عانى المسيحيون والأزيديون منه أيضاً، وحتى المسلمون أنفسهم.

أما الصعوبات في الداخل فما زالت في إقرار حقوقهم وفي الحرية المناسبة لممارسة طقوسهم وفي الخشية الدائمة من أن تنتهك

حرمتهم والإقدام على تصفيتهم بأسباب حقد أو تعصب على الرغم من كل التطمين الذي يحصلون عليه من القيادات السياسية أو الرسمية في الدولة، ولكن الخشية من أن عدم استتباب الأمن والنظام في هذين البلدين قد يوصلهم إلى تصفية كاملة قبل أن تتمكن الجهات الرسمية من وضع حد لأي مجزرة إبادية يمكن أن يتعرضوا لها. وقد سجلت الأحداث مثل هذا على مستوى المندائيين والمسيحيين والإيزيديين.

أما الصعوبات في الخارج فأبرزها صعوبات إجراء الطقوس الدينية بأسباب تأثير المناخ وطول مدة الشتاء وانخفاض درجة الحرارة بما يعيق الصباغة في المياه الجارية، وكذلك أمور قانونية تتعلق بعمليات دفن الموتى وقلة توفر مقابر خاصة بالمندائيين. يرافق ذلك صعوبات في الحياة العامة أخطرها:

1- جهل العديد من أبناء المجتمع الذين يعيشون معهم بمبادئ ديانتهم وتأريخ هذه الديانة والإيمان الصريح بالله خالقاً واحداً أحداً، وكذلك الجهل بما تحتويه كتبهم من تعاليم إيمانية حقة.

2- يتواصل هذا الجهل إلى عدم تضمين المناهج الدراسية بأي مادة عنهم تعلم النشء وتربيه على معرفة الأديان الموجودة والتعريف بها وكيفية احترامها.

3- توزعهم على قلة عددهم في قارات عديدة وبلدان متعددة ومدن متباعدة بما يشكل خطراً في ذوبان كيانهم في المستقبل.

4- عدم معرفة المجتمعات الجديدة بالمندائيين مما يتطلب منهم أن يبذلوا جهوداً كبيرة لكي يعرّفوا بأنفسهم لإثبات هويتهم الخاصة.

5- سعي بعض المنظمات الدينية لاستغلال ظروف المندائيين وحداثة وجودهم في هذه البلدان وحاجتهم إلى القبول وتوفير فرص العمل إلى إغرائهم لتغيير ديانتهم. ويبذل المندائيون اليوم جهوداً كبيرة في صد ذلك.

6- إقدام بعض الشباب المندائي على الزواج من غير المندائيين مما يمكن أن يضعف كيانهم، والخشية أن تتزايد أعداد هؤلاء على الرغم من الجهود المبذولة لحث الشباب على محبة مندائيتهم والبقاء عليها والتزاوج فيما بينهم بحسب ما توصي شريعتهم.

7- إغراءات ثقافة البلدان الجديدة، التي صار جيل الشباب يعيش فيها، حددت التوجه الديني وعدم إقرار بعض الطقوس الدينية ومتطلباتها الأصيلة التي يرون أنها صارت لا تناسب العصر!

الصابئة المندائيون والمجتمع المحيط

سكن الصابئة المندائيون مناطق جنوب العراق، وعاشوا وعايشوا إخوانهم العراقيين من مختلف الأديان والمذاهب والقوميات. لم يتحدد سكنهم بمنطقة جغرافية أو مدينة خاصة بهم، بل توزعوا في العديد من المدن والقرى. وحين يكون عددهم كبيراً في منطقة

معينة اختصوا بمحلة خاصة بهم كما في محلة الصابئة في قضاء سوق الشيوخ ومحلة الصابئة في قلعة صالح. أما في المناطق الأخرى فقد كانت بيوتهم مبثوثة في المدن فجاوروا في سكنهم تنوعاً عراقياً متعدداً. وقد عرف الصابئة المندائيون بمسالمتهم وأمانتهم وصدقهم وحفظهم لحقوق الجيرة والسلوك القويم، وهذا ما يشهد لهم به جميع من يعرفهم وتعامل معهم وجاورهم فاستحقوا الاحترام. وكانت مهنهم المطلوبة من المجتمع ومهارتهم فيها وخاصة أدوات الحدادة والنجارة وكذلك صناعة القوارب والسفن والنواعير وغير ذلك مطلباً مهماً من المجتمع. وحيث برع الصابئة المندائيون بذلك فكان مدعاة لأن تكون نتاجاتهم مطلوبة، وكانوا بغاية اللطف وحسن الصنعة. كما أن مهنتهم الأبرز وهي صياغة المخشلات الذهبية والفضية جعلتهم بتماس مع أسر المجتمع وأملت أمانة المهنة أن يكونوا حريصين في الصنعة ودقة المصوغات، وهذا ما جعلهم مطلوبين ولا يمكن التفريط بهم. ثم إن انتساب العديد من الصابئة المندائيين إلى سلك التعليم وتخرجهم ضمن الرعيل الأول للمعلمين في العراق أسهم بأن يأخذوا دوراً كبيراً في تعليم النشء عامة. وقد عرفوا بجديتهم وإخلاصهم وهو ما شهد لهم به زملاءهم ومديريهم وتلامذتهم وأسرهم وصاروا يذكرونهم بكل خير بعد تخرجهم وتسلمهم مراكز وظيفية مهمة. ويؤطر كل هذا حرص وجهاء طائفة الصابئة لإقامة

علاقات ودية مع شيوخ العشائر والمساهمة في المناسبات الدينية والاجتماعية معهم بما حفظ لهم هذه الروحية في التسامح الديني والمقبولية العامة. وهذا لا يعني أن حياتهم كانت ميسورة دائماً فقد سعى بعض المغرضين والمتسلطين في مراحل للنيل منهم بأسباب شخصية تؤطر بإطارات ونعرات دينية وهو ما تسجله ذاكرتهم بشكل مؤلم. إلا أن ذلك انحسر قليلاً بسيادة القانون وقوة النفوذ العشائري في حال كان محباً للمندائيين.

وحين صار تواجد الصابئة المندائيين في المدن الكبيرة وتجمعوا فيها وشكلوا تنظيماتهم المدنية والدينية، أسسوا لعلاقات أصولية مع المراجع الدينية الشيعية والسنية الكريمة. لقد كان المجلس الروحاني الأعلى الذي توكل على إدارة شأنهم حريصاً على إقامة تلك العلاقات وتبادل الزيارات وحضور المناسبات التي تقيمها وزارة الأوقاف والشؤون الدينية وكذلك العتبات المقدسة. وقد كان حضور وفد منهم في مجلس فاتحة المرحوم الإمام الخوئي في النجف الأشرف1992 موضع حفاوة وتقدير من المرجعية الكريمة. وبعد ذلك استمرت اللقاءات مع ممثلي المرجعيات وأبرزها لقاء فضيلة رئيس الطائفة الريش إما ستار جبار حلو مع المرجع الأعلى آية الله العظمى السيستاني، وكذلك مع سماحة السيد مقتدى الصدر وسماحة السيد عمار الحكيم وغيرهم، ومثل هذا أيضاً مع كبار الأئمة من السنة.

وأما عن علاقتهم بالمسيحيين فهي قائمة وقديمة تمتد جذورها إلى النسب بين نبيهم يحيى بن زكريا والسيد المسيح من خلال علاقة القرابة بين السيدة مريم أم المسيح (ع) والسيدة اليصابات أم يحيى (ع)، وكذلك قيام النبي يحيى (ع) بتعميد السيد المسيح (ع) وبحكم أن الديانتين أصبحتا أقليتين عدديتين فتجد ظروفهما متشابهة تقريباً بما يسهم في التقريب بينهما في العلاقة. أما رسمياً فقد تعززت هذه العلاقة مع جميع الطوائف المسيحية وكنائسها من خلال الزيارات المتبادلة التي بدأت رئاسة طائفة الصابئة المندائيين القيام بها وخاصة في مدينة بغداد منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، كما حصل تقارب مع سفارة الفاتيكان التي تم العمل من خلالها على ترتيب زيارة وفد من المجلس الروحاني برئاسة رئيس الطائفة السابق المرحوم الريش إما عبد الله نجم زهرون بدعوة من قداسة البابا الأسبق يوحنا بولص الثاني عام 1990 .

ثم استمر تواصل تبادل الزيارات والمشاركات في الحوارات والمؤتمرات وإلى اليوم بما يوثق هذه العلاقة المتبادلة بين الديانتين وأتباعهما في العراق.

أما عن العلاقة مع الإيزيديين فقد تعززت بشكل أكبر في منتصف التسعينيات وذلك لعدم وجود الإيزيديين في المناطق الجنوبية من العراق. وقد أقام المجلس الروحاني الأعلى علاقاته مع رئاسة الإيزيديين وممثليهم في بغداد وأيضاً من خلال المساهمات المشتركة في المناسبات والمؤتمرات سواء داخل العراق أو خارجه.

وبشكل عام تلتقي الطوائف الدينية غير المسلمة أيضاً في ديوان أوقاف مشترك في وزارة الأوقاف مما يجعل الجميع يلتقي في التقريب والحوار الدائم الذي يقوم على كون الجميع أبناء وطن واحد عاشوا وعُرفوا به كما عُرف بهم منذ القدم، تطبيقاً لمقولة

الإمام علي بن أبي طالب (ع) الناس صنفان: أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق. فإذا كانت هذه رؤية هذا الإمام العظيم، كيف لا يضعها الأتباع موضع التطبيق والاحترام؟

ومما يسجله المجتمع العراقي للصابئة المندائيين هو مساهمتهم في المراسيم الحسينية التي تقام إحياء لذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع) تقديراً منهم لهذه الشخصية التأريخية التي سجلت أعلى درجات التضحية في سبيل الحق والدفاع عن المبادئ الصحيحة، واحتراماً لمعتقد إخوانهم المسلمين في هذا المصاب الكبير ومراسيم إحيائه السنوية ومؤشراً للتعايش والتلاقي، وفي هذا مبعث تقدير الرموز الدينية والشعائر المرتبطة بها.

حقوق الأقلية الدينية

حين تُقر الأديان السماوية على شريعتها، فإن ذلك يجب أن يكفل لها حريتها في ممارسة شعائرها وعباداتها، ويصير على البلاد ذات الديانات المتعددة أن تراعي ذلك. هذا ما يفهم من الآية "لكم دينكم ولي دين". فإن أقرت دساتير وقوانين البلدان المتقدمة اليوم حرية الدين وممارسة شعائره، فهي لم تسبق التشريع الديني في ذلك. ونرى أن هذا التكفل يجب أن يظهر في ميادين الدستور والقوانين المتأسسة عليه وتعاليمها، وإيمان الحاكم، والتربية الأسرية، والتعليم المدرسي، وحكم الشارع المتأتي من التعليم

الديني، والإعلام الموجه الذي يشيع روح التسامح والتعايش المشترك، وحقوق الولاء المقدمة من قبل الجميع للمواطنة الحقة دفاعاً وخدمة.

ومصطلح الأقلية الدينية يشير إلى أقلية العدد وليس أقلية الدين. فالدين الحق ليس فيه صغير أو كبير إنما فيه أتباع كثيرون أو قليلون. ولذلك نجد في بلد ما أن ديانة أتباعها كثيرون، لكنهم قليلون في بلد آخر، وهذا لا يقلل من شأن الدين، ويجب أن لا يقلل من شأن وقيمة الأتباع حد الاضطهاد.

ولغرض الاطلاع على حقوق الأقلية الدينية نتوجه بالنظر إليها في ضوء:

1- العراق قبل دخول الإسلام:

الثابت أن بلاد الرافدين بلد حضارات عريقة في المنطقة ومنهما شاعت لبلدان عديدة، بل من عراقته صار مسرح تصارع مع من قدم غازياً. ولا شك في أن الحضارة المتقدمة قد عرفت الدين بشكل مبكر ووحدت وآمنت بدرجات. وكان التسامح الديني سمة قائمة في هذه الحضارات فليس من اعتداء على الحريات الدينية وليس من إلزام بدين واحد. ولذلك نرى وجوداً قائماً للديانة المندائية والديانة اليهودية والديانة المسيحية وكذلك الديانة الزرادشتية. ومع سعي بعض الديانات للتبشير بمبادئها لكن ذلك لم يكن على حساب قتل الآخر أو امتهان كرامته أو إكراهه على الدين بالإلزام.

والصابئة المندائيون يوثقون في كتبهم مرحلة من مراحل وجودهم يذكرون فيها رعاية الملك البارثي أردوان (أردبان) لهم، وأنه من حفظ لهم هجرة لأعداد كبيرة من أورشليم إلى بلاد ما بين النهرين مروراً بحران وجبال ميديا في بداية القرن الأول الميلادي.

وحين جاء الإسلام أقر الديانات التوحيدية، حين كان التوجه لأن ينتشر الدين بالإيمان لا بالسلطان، فإن كان الإيمان موجوداً، فقد كفى الله المؤمنين شر القتال. وعلى هذا تشير الوثيقة التأريخية لدى الصابئة المندائيين"حران كويثا: حران السفلى" أن وفداً منهم برئاسة رئيسهم "أنش بر دنقا" قابل القائد الإسلامي سعد بن أبي وقاص عند دخوله العراق وعرض عليه مبادئ ديانتهم في تسميتها القرآنية وتوحيدها وشعائرها، فأقرهم عليها وأوعز بحمايتهم. ثم نأتي بعد 1400 عاماً لنجدهم يتهددون في البلاد نفسها من ميليشيات تعصب هي دخيلة على البلاد!

2- ما يتكفله الإسلام لأتباع الديانات الموحدة:

لقد تكفل الإسلام بدءاً إقرار الديانات السماوية الموحدة على ديانتهم، وهذا يعني حق التصريح لهم بذلك وتدوينه في سجلهم المدني، كما أن هذا الإقرار يبيح لهم الاحتفاظ بدور عبادتهم وبنائها وإعمارها بشكل متفق عليه، وممارسة شعائرهم وطقوسهم من دون خشية أو خوف أو ريبة أو تدخل، وحقهم في أيام عطلهم واحتفالاتهم في مناسباتهم الدينية، وعدم إلزامهم بتغيير ديانتهم لا

ترغيباً ولا ترهيباً إلا بمقدار الإيمان والرغبة الشخصية والفردية. وكل هذا يقع في باب الحرية الدينية المكفولة تشريعاً إلاّ أن التطبيقات اللاحقة أملت سيطرة أخلت بهذه المبادئ.

3- اعتبارات المواطنة وكرامتها وحقوقها الإنسانية:

طالما تطورت أنظمة الحكم في البلدان ومنها العراق، ووضعت لوائح حقوق الإنسان دولياً، وسُنت الدساتير التي تنظم حياة شعوب هذه البلدان، فإن الدستور يجب أن يراعي أبناء الشعب كافة في المساواة بالحقوق والواجبات، مع إقرار دياناتهم التوحيدية السماوية بالذكر الصريح وشمولهم بالاستحقاقات التي تقوّم وجودهم وبقاءهم. ويجب أن لا تتقاطع القوانين في ذلك أو تميزهم بما يكون أفضلية لديانة الدولة الرسمية على بقية الأديان. وأن تعتمد شرائعهم الدينية في خصوصيتهم بالميراث والطلاق والمتعلقات المدنية قياساً بشريعة الدين وبما لا يتقاطع والقوانين العامة المعتمدة. هذا ما ينص عليه دستور العراق أيضا فاين التطبيق في ذلك؟

4- واجبات المواطنة وحقوقها:

ومثلما تستلزم المواطنة واجبات على جميع المواطنين الالتزام بها وتأديتها للوطن، فإنها تستلزم الإيفاء بالحقوق التي ينص الدستور على التساوي فيها، ومن ثم فالحق يملي أن لا يشعر أتباع الأديان

من غير المسلمين أنهم مواطنون من الدرجة الثانية أو ربما من دون درجة تذكر، وهذا ما يعيشه اتباع الديانات الأخرى اليوم.

بعض جوانب معاناة الصابئة المندائية

ليست المعاناة التي يشعر بها الصابئة المندائيين في العراق ناجمة عن توجه الدولة أو من هو في رأس تنظيمها ورئاستها بالضد منهم، لما معهود فيهم من مواطنة حقة، وعدم وجود أي مطمع سياسي لهم ولا تنافس بخصوصه، إنما هو من الإهمال والنظرة غير المستحقة وذلك يظهر في:

1- قصور المناهج الدراسية التي لا تشير لهم ولا توضح حقيقة دينهم بشكل صحيح بما يُعلّم النشء ويُعرّف بالأديان الموجودة في المجتمع وإيمانها وحقوقها، وأن يخصص فيها درس معد لهذه الأديان في كتب الدين والتأريخ الذي يشير إلى الأقوام التي عاشت في العراق. بل ما يؤسف له هذا الإجحاف بحقهم ووصفهم بما يخالف ما مثبت عندهم. ومن ذاك أن الشروحات المكتوبة في المناهج الدراسية للآيات التي يرد فيها ذكر الصابئين تشير في تعريفها إياهم، عن جهل أو قصد، بأنهم عبدة نجوم وكواكب! وهذا ما بينّا زيفه وبطلانه في هذا الكتاب. ويقترن بهذا ضرورة طبع كتب خاصة تعرّف بشكل صحيح بالديانة لتكون مادة ضمن المكتبات المدرسية والمكتبات العامة وتشير إلى حقوق الجميع المتساوية.

كما أن المناهج الدراسية يجب أن تتضمن ثقافة التسامح والتعايش المشترك والتحاب بين أبناء الوطن الواحد ليس على أساس التمايز الديني طالما أن الأديان الموجودة جميعها موحدة وسماوية.

2- النظرة الدونية في المجتمعات والمدن التي يعيش فيها الصابئة المندائية بما يؤدي إلى القهر والاستحواذ على الحقوق، وهذا يقوم على ثقافة الغلبة العددية أو السلطوية إن لم تردع برادع الإيمان أو القانون. ويسجل تأريخ الصابئة المندائية كثيراً من أحداث الانتهاكات وما خلفته من آثار سلبية تكاد تكون مستمرة.

3- تعلق الصابئة المندائية الدائم بفتوى المرجعيات الدينية الموقرة لأنها تجد في هذه الفتاوى مصدر اعتراف، وما يوفره ذلك من حماية خاصة من حيث التزام جمهرة الناس بقيمة الأئمة أصحاب الحق في الفتوى. وهذا مؤشر على أن الإعتبار الأساس في النظرة للأديان قائم على فتاوى المراجع الدينية. ومع قيمة ما أفتى به أغلبهم إلاّ أن الإعلام عن ذلك يكون مطلوباً وملزماً.

4- تناقض الأحكام والتعامل مع الصابئة المندائية بحسب الأهواء لا على أساس حكم ثابت، مما جعلهم عرضة للخشية والخوف الدائم من تصريحات المتجبرين من المجموعات الإسلامية وخاصة الأصولية التي تسعى لأن تصب جام غضبها على الفئات القليلة والضعيفة باستهداف ديني غير قائم على مبادئ الديانة الإسلامية الحقة والسمحة، وغير ملتزمين بما تسلك به النبي محمد

(ص) ولا الأئمة الأطهار من أهل البيت في التعامل مع أتباع الديانات غير المسلمة.

5- الحوادث الشخصية التي قد تقع التي تحسب على أساس استهداف ديني، ومن ذاك الحوادث المسجلة في إلزام بعض المتنفذين، شيوخ عشائر وغيرهم، للزواج بامرأة مندائية جميلة وإلزامها عنوة بذلك. ومع أن هذا الأمر معهود ويمكن أن يقر من الأديان الأخرى في جواز الزواج على أن يبقى الفرد على دينه، لكنه عند الصابئة المندائيين يكون خروجاً وانقطاعاً، فإن رفضوا ذلك تعرضوا للاستهداف والترويع والقتل المذبحي.

6- إشاعة ثقافة عدم تقبل الآخر وخاصة في المجتمعات البسيطة في المدن التي يعيش فيها الصابئة المندائية، ومن ذاك عدم قبولهم ووصفهم بالنجاسة، والهزء بطقوسهم وشعائرهم، مما ولّد الانسحاب والانزواء وحجب ممارسة الطقوس رغم أنها جميعاً طقوس علانية ونظيفة لأنها تجرى في الغالب في الماء الجاري وعلى الأنهار.

7- حوادث القتل التي حصلت للعديد من الأبناء بأسباب الحروب التي دارت في المنطقة وخاصة في العراق حيث على الصابئة المندائيين الانخراط في التجنيد الإجباري الذي يتنافى وشريعة ديانتهم، مما أدى إلى قتل عدد كبير من شبابهم فقلّت فرص

التزاوج والإنجاب، وولد الحاجة عند الشباب خاصة للتخلص من هذا بمغادرتهم من أجل السلامة وأملا بمستقبل أفضل.

8- الاستهداف السهل لهم في سرقة محلاتهم ودورهم وعمليات الخطف والابتزاز في مهنتهم مع التهديد الدائم بالقتل جعل المجموعة تعيش هاجس الخوف والقلق الدائم.

9- شيوع الأحكام العشائرية في تبني المشكلات وإثارتها وحل نزاعاتها، وهم ليسوا عشيرة ولا يعتمدون هذا التنظيم في حياتهم، مما يجعلهم عرضة للاستهداف أو اضطرارهم للتصاهر مع بعض العشائر ضمن مفهوم "الجرش" والانجرار إلى أحكام عشائرية لا تستند على قوانين مدنية ولا على شريعة دينية.

لقد أجبرت هذه الأمور وغيرها أعداداً كبيرة من الصابئة المندائية وغيرهم العديد من أتباع الديانات الأخرى أيضاً على مغادرة أوطانهم التي عاشوا فيها منذ آلاف السنين، وتوزعوا في بلدان المهجر. وإذا كان أتباع الديانات الأخرى يجدون في بلدان المهجر تواصلاً مع أديانهم مما موجود في مجتمعات هذه البلدان، فإن الصابئة المندائيين لا وجود سابق لهم فيها.

إن وجودهم وديانتهم مؤسس في العراق ومنه الامتداد لايران، ولذلك فإن توزعهم، على قلة عددهم، على أكثر من 15 بلداً يعني تفتيتهم وإنهاء كيانهم.

كان هذا وراء تصريح رئاسة كيان الصابئة المندائية بأن هذه الديانة، التي أورد الله سبحانه ذكرها في كتابه القرآن الكريم، محفوفة بالضياع بضياع أتباعها، وربما سوف تدرس ضمن التأريخ خلال جيلين من الآن. فإن تميزت حضارة بلاد الرافدين من ضمن ما تميزت به في تعدد الديانات السماوية التي تشير إلى عمق الدين فيها، والذي به يتشكل فسيفساء المجتمع حسبما يشار دائماً، فإن على المعنيين من قيادات دينية ومدنية أن يقدّموا الرعاية المتميزة لهذه الأقلية الدينية غير المنافسة، ليبقى العراق يحتضن إرثاً إنسانياً وثقافياً ودينياً يقدمه أنموذجاً للتعايش السلمي والتسامح الديني من جهة، ومن جهة ثانية يحققون أمر الله سبحانه، طالما أنهم يؤمنون بالله وبيومه الآخر ويعملون صالحاً، فيجب أن يتحقق وعد الله لهم بأن "لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

طبيعة حياتهم والمعايشة العامة

أكدنا أن روحانية ديانة الصابئة المندائيين أملت عليهم عدم التفكير في أي طموح سياسي أو أي مسعى لتأسيس دولة، بل عاشوا ضمن عامة الناس بخصوصيتهم الدينية التي وصلت حد أن صارت غير تبشيرية لكي تبتعد عن أي تنافسية أو توجهات ضدية. وربما هذا هو السبب وراء أن يبقى ذكرها عابراً في التأريخ. والصابئة المندائيون عراقيون بامتياز وهم يحترمون أصلهم ويجلّون منشأهم

فيه. نخلة العراق مباركة عندهم، وهي عندهم "سندركا"، شجرة أصلها من عالم الأنوار، وهي علامة الذكورة والفحولة بكل ما لها من سمو وارتفاع، وما فيها من ثمر وغذاء، وما منها من سقف وظل ووقود وفناء. ويقدسون دجلة والفرات حتى أن الفرات هو مثيل فرات زيوا نهر في العالم العلوي، عالم النور، ومباركتهما قائمة دائمة باعتماد مائهما للصباغة والتعميد. وطين الرافدين مادة أدواتهم الطقسية إلى الآن، ولغتهم عراقية ما زالت تحفظ المئات من المفردات الأصيلة.

لم يسعوا لامتلاك الأقطاع والأراضي، ومن ثم لم يمتهنوا الزراعة غير ما ملكوا فقط، وتوجهوا نحو المهام الحرفية فبرعوا في أغلب أنواع الصناعات وخاصة تلك التي تخص احتياجات المجتمع في الحدادة والنجارة وصناعة السفن والقوارب والسدود والقناطر. وحين عملوا معلمين حازوا بإخلاصهم وجديتهم وتفانيهم في العمل احترام أولياء الأمور والمجتمع عامة، وظل تلامذتهم الذين تخرجوا على أيديهم يذكرون فضل معلميهم.

وما كان يميز المندائيين عامة هي سحنة وجوههم ولون بشرتهم الذي يكون في الغالب أفتح من لون بشرة المجتمع المحيط. ولأن قص شعر الجزء العلوي من الجسم غير جائز في ديانتهم، فالرجال يتميزون بإطلاق شعر الشارب واللحية، وكذلك بلبسهم غترة الرأس الحمراء ثم تعددت الألوان. أما في المناسبات الدينية التي

تقتضي النزول إلى الماء للاصطباغ فيه، فيتميز الجميع رجالاً ونساء بلباسهم الطقسي الأبيض الذي يسمى "رستا".

أما في علاقاتهم مع المجتمع المحيط، فإن بقاءهم يشهد لهم على كل ما مر به العراق من أزمات ومحن وما تعرضوا هم له من اضطهادات وأنواع المعاناة. فالتدوينات وثّقت علاقات الصابئين الذين خدموا في البلاط العباسي وكيف كانوا معتمدين علماء وأدباء وأطباء وفلكيين وكان إكرامهم قد تجاوز أي تمايز ديني، وأنموذج ذلك يقدم في علاقات أبي إسحاق الصابي صاحب ديوان الإنشاء التي ما زال يستشهد بها، وصداقته مع أسرة الموسوي خاصة مع نقيب الطالبيين الشريف الرضي الذي رثاه بقصيدة خالدة تعد من عيون شعر الرثاء[38]، وحرصه المسجل أنه كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين تمازجاً واحتراماً. وظلت مثل هذه العلاقة محفوظة قروناً نراها فيما يذكره السيد علي بحر العلوم وهو يصف صداقته بالشيخ عنيسي الفياض الصابئي المندائي حيث يقول:

بيني وبين أبي بشير[39] صداقة تبقى مدى الأيام والأحقاب
إني لأرجو الود يبقى بيننا كوداد سيدنا الرضي والصابي

38 مطلع القصيدة : أعلمت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي.

39 هو الشيخ عنيسي الفياض الذي سيرد ذكره

لقد كسبتهم وداعتهم وحبهم للسلام احترام رؤساء القوم. وعلى الرغم من مطامع الجهلاء ونظرتهم الساذجة المنحازة، إلا أن الصفة الغالبة تمثلت بحرص المجتمع على هذه المجموعة، ولم يمنعهم الأمر في الحصول على الأمان من الاحتماء ببعض العشائر العراقية ورؤسائها فيما يسمى بنظام "الجرش"[40] خاصة في المخاطر الكبيرة التي يتعرضون لها.

لا تختلف عاداتهم العامة عن عادات المجتمع المحيط وتقاليده فهم لا يخالفون الأعراف السائدة لا في ملبس ولا في سلوك حتى في احترام طقوس وشعائر الأديان الأخرى، ويسجل لهم مساهمتهم في حضور المجالس الحسينية وبعض الشعائر التي تقام أيام عاشوراء تضامناً مع إخوانهم المسلمين الشيعة خاصة.

إسهاماتهم العلمية والأدبية

تميز الصابئة عامة، من عاش منهم في حران أو في بطائح العراق، بقدرات وإسهامات علمية وأدبية سجلها التأريخ لهم على الرغم من محاولات الطمس والغبن الذي لحقهم بأسباب الغيرة والمنافسة والنظرة الدونية. ويشار إلى أن الذين نزحوا من حران إلى

---

40 مفهوم الجرش أن تقيم مجموعة صغيرة حلف انضمام إلى عشيرة كبيرة من أجل حمايتها ونرى أن الكلمة تتأسس على الفعل في اللغة المندائية "شرش" بمعنى تأصل وتجذر.

بغداد وخاصة إبان الخلافة العباسية كانوا من رواد العلم والطب، وقد عرفوا أول الأمر بقدرتهم على الترجمة من اللغات السريانية واليونانية لإتقانهم لها فحظوا بمكانة بارزة في ترجمة الكتب إلى اللغة العربية. وأبرز من شاع اسمه وذاع صيته في هذا المجال ثابت بن قرة الذي كان فضلاً عن ذلك فلكياً، وفيلسوفاً حكيماً، وطبيباً بارعاً، ومتقدماً في علم الرياضيات. وكان نديم الخليفة المعتضد ومستشاره، وترك العديد من المؤلفات القيمة في كل هذه المجالات ويشار إلى فضله اليوم ضمن جمهرة المتقدمين الذين أثروا التراث العلمي العربي والإسلامي. ومن أشهر الفلكيين الذين نالوا مكانة مميزة في علم الفلك العالم الفذ الصابئي محمد بن جابر البتاني وله زيج [41] حسابات سماه "الزيج الصابئ" فضلاً عن كتبه العديدة التي ترجمت إلى لغات متعددة وظلت معتمدة وتدرس في جامعات عالمية.

وكذلك الشيخ الرئيس أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة ، وابن روح الصابئ، وإبراهيم بن سنان بن ثابت، وغيرهم.

كما أن براعتهم في الطب جعلتهم مطلوبين من قبل الخلفاء وبيوت الخلافة والأمراء والقادة والوجهاء. وأبرز من برع منهم فضلاً عن ثابت بن قرة، ابنه سنان بن ثابت الذي كان أوحد زمانه في الطب وقد شغل منصب رئيس البيمارستانات (يماثل اليوم وزير الصحة)

41 تعني كلمة زيج جداول الحسابات الفلكية واستخراج الأرصاد والتقويم.

في زمن الخليفة المقتدر وكلف بامتحان الأطباء وإجازتهم، ووصلت الرعاية الصحية في زمنه مرتقى عالياً حتى أنه أوصى بأن تطوف الفرق الطبية في القرى والسجون لتقديم الرعاية الصحية والتداوي.

ومن الذين اشتهروا بتدوين التأريخ وكان موثوقاً وصادقاً المؤرخ ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الذي وضع كتابه في التاريخ ليكون موصولاً بتأريخ الطبري، كما أن أبا إسحاق الصابي قد أرخ لآل بويه بناء على طلب من عضد الدولة البويهي في الخلافة العباسية، ومن الذين عنوا بكتابة التأريخ أيضاً حفيد أبي إسحاق هلال بن المحسن الذي خلّف لنا كتابين في غاية الأهمية وهما رسوم دار الخلافة وكتاب تحفة الأمراء في تأريخ الوزراء ، وكتابه في خطط الجغرافيا كتاب بغداد.

وفي الشعر والأدب لا يعلى على ذكر الأديب الفاضل إبراهيم بن هلال المعروف بأبي إسحاق الصابي، الذي كان أديباً متقدماً في البلاغة وصنعة الكتابة وشاعراً مجيداً. سطع نجمه حتى تم اعتماده رئيس ديوان الإنشاء (يماثل وزير الثقافة) أيام خلافة الطائع والمطيع وتولى الوزارة في غياب المهلبي وإمارة بعض المناطق كواسط والبصرة. وقد ذاع صيت الصابي في مجالس الحكم والمجالس الأدبية حتى يعد أوحد العراق بالبلاغة وكان له فضلاً كبيراً في تطور فن النثر والكتابة، وكانت ميادين رسائله متعددة. ورغم أنه

كان يكتب كما يكلف ويؤمر بحكم وظيفته، إلا أن براعته قد أضفت على ذلك قيماً أدبية عالية حتى صار المنتدى الأدبي يقدم على قراءة كل ما يكتبه ويحفظه ويتدارس بلاغته. وإليه انتهت رئاسة الصابئة في زمنه ببغداد .وبحكم مكانته وتقدمه في الدولة تعرض إلى نكبات وأزمات كادت أن تؤدي بحياته. ومن أبرز خصاله وأخلاقه التي دوّنها المؤرخون عشرته الطيبة للمسلمين وما عرف عنه من رعاية العهد وأنه كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين، كما أنه كان يحفظ القرآن الكريم حد أن آياته تدور في لسانه ويضمنها في أغلب مخاطباته. وقد ربطته صداقة حميمة مع آل الشريف الرضي بدءاً بالأب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد الموسوي، ومن ثم بابنه الشاعر المعروف الشريف الرضي الموسوي وأخيه المرتضى. وكان منحازاً وجاهداً في أن تكون الخلافة في هذا البيت من آل النبي محمد(ص).

وتعد صداقته مع الشريف الرضي مثالاً قيّماً للتسامح والتعايش الديني وكان بينهما زيارات ومخاطبات شعرية وأدبية كثيرة حتى أن الشريف الرضي حينما مات الصابي رثاه بقصيدة طويلة تعد من عيون شعر الرثاء التي تردد أبياتها إلى اليوم ومطلعها:

أعلمت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي

جبلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى من وقعه متلاطم الأزبادِ

ورثاء الشريف المرتضى له أيضاً بقصيدة مطلعها:

ما كان يومك يا أبا إسحاق إلا وداعي للمنى وفراقي

إني عليك لما ذهبت لموجع وإليك لما غبت بالأشواق

ومودّة بين الرجال تضمُّهم وتلفّهم خيرٌ من الأعراق

واستمرت هذه العلاقة مع آل الرضي في البيت الموسوي من خلال ابنه المحسن وحفيده هلال بن المحسن وابنه غرس النعمة تواصلاً مع الشريف المرتضى أيضاً.

وبعد أن سقطت الدولة العباسية وخبت الحضارة في بغداد، توزع الصابئون في البلاد وخبا نورهم، وصاروا حريصين على بقائهم أكثر من بروزهم الذي يمكن أن يتسبب في اضطهادهم في ضوء الأحداث المروعة التي مرت بها البلاد، ولا يسجل لهم التأريخ إسهامات غير حرصهم على العيش بسلام.

ومع بداية الحكم الوطني في العراق واعتماد التعليم النظامي فيه، أقدم الأبناء على الانتظام في المدارس ونبغ فيهم من جديد العديد من العلماء والأطباء والمهندسين والأكاديميين في مختلف الاختصاصات، ولعل العالم عبد الجبار عبد الله يعد أبرز شخصية علمية في الزمن المعاصر، وقد كان من مؤسسي جامعة بغداد واعتمد أول رئيس لها. ومن الشعراء المبرزين يرد ذكر من ذاعت شهرتهم الشاعرة لميعة عباس عمارة والشاعر عبد الرزاق عبد الواحد، ناهيك عن العديد من الكفاءات الأخرى.

طبيعة المندائيين وخصائصهم وكفاءاتهم

أبرز ما يعرف في طبيعة الصابئة المندائيين أنهم مسالمون مكتفون بالعيش بسلام ضمن عموم المجتمع دونما تمييز إن كانت غالبيته شيعية أم سنية وحتى كردية أو تركمانية، ولذلك نجدهم قد تواجدوا في عموم مناطق التجمعات والتوزعات العراقية وإن غلب عليهم العيش في مناطق جنوب العراق حيث موطنهم الأصلي بما يوفره من مياه سيحية فكانوا قريبين منها، بل لصقها. وهذه الطبيعة السلمية هي ما تقره لهم جميع فئات الشعب العراقي من الذين تعاملوا ويتعاملون معهم وهي ما يصرحون بها، فلا تكاد تسأل عراقياً عن الصابئة المندائيين إلا ويقول لك: "يالله! ناس مسالمين جدا". وتحفظ الذاكرة العراقية كثيراً من قصص التعايش السلمي لهم مع جيرانهم، ويذكر جميع من يتم اللقاء بهم وسؤاله عنهم تأثره لإضطرار الصابئة المندائيين لمغادرة العراق، ثم تبدأ قصص سرد الزمالة الدراسية أو حسن الجيرة أو طيبة المعلمين المندائيين الذين درسوا على أيديهم أو زملاء العمل والوظيفة أو حسن التعامل في المهن والأمانة وخاصة في مهنة الصياغة حيث يطمئن المجتمع عند تعامل أبنائه معهم وخاصة من النساء بشرف واحترام. والصابئة المندائيون وإن سكنوا في محلات خاصة في المدن والقصبات فهذا ليكونوا قريباً من بعض، فهم منفتحون على المجتمع من حيث التعامل ذلك أن طبيعة مهنهم الخدمية المتعددة

تملي هذا التعامل المتنوع مع المجتمع، بل وتذهب به إلى حيث الحاجة. ولذلك لم يقطن الصابئة المندائيون في مدينة واحدة ولم يتحددوا بمكان واحد ضمن المدينة وخاصة في المدن الكبرى كبغداد والبصرة والعمارة.

والصابئة المندائيون لا يهتمون كثيراً بغير قوت المعيشة، فلا توصي ديانتهم بالميراث وليس لديهم نصوص دينية تتعلق به أو بتوزيعه. ولذلك فهم لم يسعوا للإِمتلاك ولا للإِقطاع ولم يتسبب هذا في مشاكلات لهم مع الآخرين في حال الاستحواذ. مقابل هذا توجهوا نحو المهن المطلوبة في المجتمع وحذقوا فيها فصاروا مطلوبين في المجتمع، ووفرت لهم مهاراتهم حاجة أملت نوعاً من الحماية من هذه الناحية.

خصائصهم في الشكل والهندام

حين كان الصابئة المندائيون يعيشون في مدن محددة في جنوب العراق كانت بعض خصائصهم تميزهم عن المجتمع المحيط. فهم فضلاً عن سكنهم المحاذي لضفة النهر ليكونوا قريبين في تأدية شعائرهم الدينية، فإن هيأة الرجال منهم وخاصة بوجود شعر اللحية ،حيث يحرم على المندائيين أصلا قص شعر رأسهم أو لحيتهم، يعد ميزة في شكلهم، ناهيك عن لباسهم واعتمادهم الغترة الحمراء والبيضاء غطاء للرأس، في حين تسود الغترة السوداء والبيضاء

للآخرين. وبعد أن دخل الزي الأوربي وانتظم الأبناء في المدارس، اختلف الأمر، وعمد الأبناء إلى إرتداء الزي الأوربي وحلق اللحية وشعر الرأس وعدم اعتماد الغترة الحمراء. ومع ذلك كان المجتمع يميزهم بحكم أنهم قليلون ومعروفون من جهة، وبحكم بعض الملامح في سحنات وجوههم وقاماتهم. وأما النساء- كما تذكر لميعة عباس عمارة- فهن ذوات سحنة جميلة وأكثر جمالاً من النساء المجاورات لهن في مناطق سكناهن، وتشير إلى ما تذكره الليدي دراور التي عايشت مجتمعهم أنها شاهدت صابئية وطفلها يشبهان ما تصور به مريم العذراء وطفلها.[42]

والدراسة الوحيدة التي ثبتت ذلك تلك التي قام بها Henry Field حيث اعتمد عينة من الصابئة المندائيين من النساء والرجال في مدينة العمارة وضواحيها وطبق عليها المعايير الموروفولوجية وصدرت ضمن موسوعة أعماله بكتابين في شيكاغو.[43]

ونثبت هنا أبرز ما توصل إليه فيما يتعلق بالرجال والنساء.

فأما الرجال فقد ثبت أوصافهم بناء على العينة التي اعتمدها وذكر بأنهم يتميزون ببشرة فاتحة وشعر كثيف تماماً. وشعر الرأس بني

---

42 لميعة عباس عمارة، الطعام عند الصابئة المندائيين وعلاقته بالصحة والجمال. دار الرافدين، بيروت 2018

43 Henry Field, The Anthropology of Iraq, Part 1, Nr. 2. The Lower Euphrates-Tigris Reigon. Chicago 1949

داكن جداً ذو ملمس متوسط النعومة، والعيون كانت بنية اللون، مع وجود آثار محدودة للون الأشقر الغامق. كان المظهر العام للأنف أما مستقيماً أو محدباً، لكن فتحات الأنف أظهرت تبايناً شديداً. لم تقدم الأسنان أي ميزات غير عادية سوى الميل إلى الإفراط في الانسداد. العضلات والصحة عند المجموعة كانت بحالة جيدة جداً. كانت قامة الصابئة طويلة، نتيجة لطول الجذع وكان الرأس والجبهة واسعين، وعلى الرغم من اتساع الوجنيتن إلا أنه لم يكن اتساعاً غير معتاد. كان الاتساع بين الفكين ضيقًا بشكل استثنائي مما أدى إلى أن يميل مظهر الوجه إلى البيضوي أو حتى المثلث.

ويثبت أن هنالك درجة كبيرة من التجانس بين الصابئة أكثر مما كان متوقعًا من البيانات الأنثروبومترية. وقد يعود هذا لكثافة الشعر عند جميع ذكور الصابئة، وهذه سمة تميزها عن جميع المجموعات العرقية والثقافية واللغوية والدينية الأخرى في العراق. ويختم بأنه يمكن تمييز الصابئة أما من خلال المظهر أو الثقافة أو الدين أو اللغة من المجموعات الآتية في العراق: العربية، البدوية، الكردية، الأيزيدية، الكلدانية، الآشورية، التركمانية، أو اليهودية تأسيساً على دراسته الميدانية. وقد وثّق لنا صور الذين شملتهم عينة دراسته نعتمد منها بعض الشخصيات ممثلين للرجال.

وهذه صورة لعدد من رجال دينهم في أربعينيات القرن الماضي

أما ما يثبته فيلد عن النساء الصابئيات المندائيات فإنهن يمتلكن خصائص أكثر رقة ولطافة من جيرانهن. وكانت الشابات جميلات وجذابات. والنمطان الرئيسان البارزان في الشكل هو نمط

بيضاويات الوجه مع أنف مستقيم، ونمط مربعات الوجه مع أنف محدب. أما الشعر فكان بنياً داكناً، مع ملمس ناعم أو متوسط النعومة. كان لون العيون بنية مع قزحيات مشرقة وجفون نقية أو مُحمرة. الأنف كان أما مستقيماً أو محدباً مع اختلاف كبير في حجم المناخير التي تراوحت بين المضغوطة إلى الواسعة. غالبية

النساء كانت أسنانهن في حالة جيدة والنمو العضلي والصحة العامة كانت جيدة. وكانت قاماتهن متوسطة إلى صغيرة الطول ولكن طول الجذع كان متوسطاً. ومن الصور التي التقطها وثبتها

وتذكر لميعة عباس عمارة في كتابها الطعام عند الصابئة المندائيين وعلاقته بالصحة والجمال: "لم أر في العمارة، إلا نادرا، رجلا سمينا أو إمرأة سمينة.. كلهم منتصبو القامة بطول معتدل ونساؤهم رشيقات حتى بعد الولادات المتعددة"[44]. وتقرن لميعة هذا الأمر

44 وهي تقصد المدة التي عاشت طفولتها في المدينة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. لميعة عباس عمارة، مصدر سابق

بالغذاء وتميز المندائيين عن جيرانهم من غير المندائيين الذين يتناولون الخضار في الغالب فتميل سحنة وجوههم إلى الزرقة خاصة مع كثرة تعرضهم للشمس أيضاً.

وبعد انتقال الصابئة المندائيين إلى المدن الكبيرة واندماجهم بشكل أكبر مع مجتمعاتها لم تعد هذه الفروقات ظاهرة بشكل كبير وملحوظ مما جعل تمييزهم عن غيرهم صعباً وخاصة في المناطق الحضرية العربية.

ملابس الصابئة المندائيين

أما في الملابس التراثية فالصابئة المندائيون يعتمدون البساطة في ذلك والتوحيد أيضا، ولذلك نرى أن لباسهم الديني الذي يعتمد في الطقوس الذي يسمى (رستا) هو بسيط ومتشابه للجميع نساء ورجالاً، ولرجال الدين والعامة سواسية مثلما هو ثوب لباس الإحرام الإسلامي في الحج. ولا تأخذهم البهرجة في ذلك لأنها تعبر عن التباهي ومادياته وهم بعيدون عن ذلك. وعلى هذا فلم تختلف النساء في ملابسهن عن ملابس المجتمع والبيئة التي كانوا

يعيشون فيها وهكذا بالنسبة إلى الرجال سوى أن غترة الرأس التي كان يعتمدونها كانت باللون الأحمر والأبيض، وحتى هذه صارت معتمدة من قبل النجديين الذين جاءوا العراق من منطقة نجد في الجزيرة العربية.

وقد لبس بعضهم العقال الذي يسمى (مكصب) كما في الصورة. ثم

العقال المكصّب

اعتمد الرجال الزي الأوربي منذ دخوله العراق وخاصة بعد دخول الأبناء المدارس النظامية ومن ثم التعيين بوصفهم معلمين وفي وظائف الدولة الحكومية، وكذلك النساء اللائي دخلن في المدارس ثم توظفن. ويذكر أنه حينما أسفرت المرأة العراقية، أسفرت المرأة

المندائية أيضاً وخاصة في المدن الكبيرة كبغداد والبصرة فليس هنالك توجيه ديني بالحجاب أو ما شابه في ديانة الصابئة المندائية، إنما التوصية بأن يكون الفرد محتشماً في لباسه وهذا يشمل الذكور والإناث.

موروث الصابئة المندائيين في الطعام وآدابه وعاداته

يتميز الصابئة المندائيون عن جيرانهم في أنهم يعتنون بشكل أكبر بطعامهم ويتغذون بشكل أفضل ويحرصون على أن لا يتعرضوا للشمس كثيراً وخاصة في فصل الصيف. كل هذا أضفى عليهم نعمة الصحة والبشرة البيضاء والشعر الكستنائي وسحنات الجمال وطول العمر. فسكنهم قرب الأنهار جعلهم يعتمدون الأسماك بشكل كبير في غذائهم ويعدونه بطرق متعددة. كما أنهم يقومون بتربية الدجاج والطيور في بيوتاتهم مما يجعلهم يفيدون من بيضها مادة غذائية ومن لحمها حين يذبحون. وهم يحرصون على ذبح طير أو أكثر حسب حجم العائلة كل رأس شهر احتفاء بمقدم شهر جديد وعلامة عليه، ناهيك عن الذبح في أيام الأعياد والمناسبات والأيام العادية الأخرى خاصة يوم الأحد. وهم سابقاً غير مكثرين من ذبح الخراف وغالباً ما يكون ذلك في الأعياد والمناسبات

ويعتمدون ذبح الذكر وغير مسموح بذبح الأنثى فهي للتوالد أو الخشية من أن تكون حاملاً في أثناء الذباحة وفي هذا خطيئة.
ويرد ذكر الطعام في نصوص كتبهم الدينية وفيها الحرص على الطهارة والنظافة ومما يرد: "تطهروا واغسلوا واذبحوا بسكين من حديد واطبخوا وسمّوا وكلوا". ومن قيمة الطعام أنه معتمد في أهم الطقوس الدينية عندهم وهي: طقس الصباغة "التعميد"، وطقس الترحم على المتوفي، وطقس الارتقاء الذي يقام لمساعدة النفس في الوصول إلى ميزان الحساب في مسيرة عروجها. وبشكل عام يكون الطعام والشراب علامة من علامات القبول والتعاهد. المصطبغ يتناول قطعة من الخبز يقدمها له رجل الدين ومعها جرعة ماء مع قراءة للمباركة، والقائمون على عملية دفن المتوفى يقومون بتناول الماء والطعام مع قراءات باسم المتوفى ترحماً عليه بعد الدفن مباشرة، ثم يستمر هذا الإجراء مدة 45 يوماً بعد الوفاة، ويقيمه الأهل ما شاؤا للمتوفى في تواصل بين الأحياء والأموات من حيث الذكر عن طريق تناول الطعام باسمه وبالقراءة لنفس المتوفى.
ومن قيمة الطعام ترد التوصيات الكثيرة في النصوص الدينية لأن يقدم صدقة باسم مانحيها للفقراء والمساكين والمحتاجين وتعد من أفضل أنواع الصدقات.

أما في الأعياد والمناسبات حيث تلتزم الأغلبية بذبح الخراف احتفاءً وفرحاً بهذه المناسبة، فإن التوصية أن يشمل الفقراء وغير القادرين في أن يرسل لهم أقاربهم وجيرانهم، بشكل غير علني، كمية من اللحم لكي لا يبقوا محرومين. والحال ينطبق على من لديهم وفاة ولا يذبحون حزناً على المتوفى في هذه المناسبات.

ويلتزم الصابئة المندائيون بآداب في طعامهم أولها شكر النعمة فيرد في كتابهم المبارك "گنزا ربا" : لا تكفروا بنعمة ربكم. وما من ذبح إلا ويذكر عليه اسم الخالق تباركا والتحلل من خطيئة عملية الذبح بعد القيام بها. ويوصى بأن لا يقدم على تناول الطعام قبل غسل اليدين بالماء ولا يتم التناول إلا بعد ذكر اسم الخالق بالقول"بسم الحي العظيم"، وعند الانتهاء يتم الشكر بقول: الحمد لله. ومن العادات تفضيل تناول الطعام باليد اليمنى وتنظيف الفم وغسل اليدين بالماء وأي منظفات أخرى. ويحذر من التباهي بالطعام وخاصة المقام على أنفس المتوفين لكي لا يحرج الفقراء بإقامة ما يقوم به الأغنياء من بذخ.

طرائق إعداد الطعام

من التراث الصابئي المندائي غير المادي الطرائق المعتمدة في إعداد الطعام وتناوله وخصوصية بعض الأطعمة في المناسبات.

فأما الخبز فهو أساس ولا تخلو وجبة من وجبات الطعام منه، ويخبز عادة بالطريقة العراقية، وهي طريقة تم توارثها سومرياً بتخمير العجين وخبزه بالتنور، وهذا يرد ذكره في ملحمة كلكامش ومازال بطعمه الشهي، حيث تتميز الطريقة العراقية عن سواها حتى في المناطق والبلدان المجاورة. ويطبخ الرز أيضاً وغالباً ما يتم تناوله مع اللبن الخاثر (الروبة) ومع أنواع المروقات والطيور ولحم الغنم المطبوخ.

يتم تناول جميع منتجات الألبان ولكن يراعى أن اللبن الخاثر لا يعتمد في الطقوس الدينية أو في الطعام المقام على نفس المتوفى بأسباب تفضيل كل شيء على طبيعته دونما تدخل، وبما أن التخثر تدخّلٌ في طبيعة المادة فلا يجوز اعتماد اللبن الخاثر. كما لا يجوز اعتماد الدجاج أيضاً لأنه عندهم طير مولّد وليس أصيل.

وأبرز مناسبة يتم فيها تناول طعام اللبن الرائب مع الرز يكون في العيد الصغير حيث يكون فطوراً معتمداً في البيوتات ويدعى له الساكنون من المندائيين على مائدة تظل منصوبة لكل من يحضرها في عموم البيوتات.

وأما الخضروات المعتمدة في الطبخ فهي المتوافرة في البيئة العراقية وأبرزها البطاطا والبامية والباذنجان والقرع الأحمر، وجميع ما متوافر من الخضروات التي تؤكل نيئة أو مطبوخة من دون استثناء أو تقييد. وجميع البقوليات المجففة بما فيها الباقلاء.

ومما يتميز به الصابئة المندائيون هو نوع البهارات التي يعتمدونها في الطبخ وبخاصة لطبخ الطيور ولحم الغنم. ومن تميزهم فيها أنها تسمى باسمهم حيث يقال: "بهارات صبة" وهي معروفة عند العطارين الذين يقومون بإعدادها من سبعة أنواع معتمدة فيها وبنسب محددة، وهذه الأنواع هي: الدارسين (القرفة) ، والفلفل الأسود، والزنجبيل، وجوزة الطيب، والكبابة، والقرنفل، والهيل.

وفي طبخ الطيور يعمدون إلى قلع الغدة الدهنية التي تكون فوق منطقة ذنب الطير لكي لا تفسد طعم المرق، ويحشون داخل الطير بعد تفريغ أمعائه بالبصل المفروم وأحياناً يضعون معه قليلاً من الكشمش والبهارات ويخيطون أو يربطون مؤخرة الطير بشوكة من سعف النخل لكي لا تخرج الحشوة فيكون المذاق لذيذاً، ويضيفون إلى ماء الطبخ عدداً من الليمون اليابس الصغير والمسمى "نومي بصرة" ليعطي الطبخ نكهةً ومذاقاً حامضاً حسب الحاجة، وغالباً ما يقلون الزر بدهن الطير نفسه.

وهم يقومون بتجفيف بعض الخضروات كالباذنجان والطماطم والبامية التي تكثر في فصل الصيف ليعتمدوها في فصل الشتاء.

وهم لا يجففون اللحوم ولكن يجففون الأسماك الزائدة عن الحاجة التي تكثر في فصل الصيف حيث الشمس القوية، وهذه طريقة عراقية قديمة في حفظ الأسماك بتجفيفها ومن ثم ترطيبها وسلقها وطبخها في فصل الشتاء، وتسمى هذه الأكلة بـ "مسموطة" والاسم مشتق من عملية سمط السمك بالماء الحار لكي يذبل ويصبح طرياً إلى حد ما. يضاف إلى مرق الطماطم الذي يطبخ به السمك الباميا وأحياناً "العالوجة أو الطرشانة" وهما مجفف الأجاص أو المشمش. وهذه الأكلة شتوية في الغالب ويعتمد معها الخبز بشكل "تشريب" أي يكون منقوعاً بمرق المسموطة.

ولم يعتمد الصابئة المندائيون جزاراً خاصاً بهم مثل مجاوريهم من الأديان الأخرى، وكانوا لا يشترون اللحم من الجزارين بل يجب أن يذبح على طريقتهم الخاصة، وهم مقلون عادة في أكل لحوم الغنم التي غالباً ما تكون في الأعياد وفي الطعام المقام على نفس المتوفى حيث يتطلب إطعام أعداد كبيرة من الحاضرين.

ولا يباع الطعام من الصابئة المندائيين، فالجميع متمكن من تدبير شؤون قوته، ومن لا يمتلك يشمل بمساعدة الآخرين. التوصية أن تكون عينك على من لا يقدر على توفير الطعام لأسرته ويكون لزاماً بأن يرسل لهم من جيرانهم، وأن يشمل من هو غير قادر على شراء ذبيحة في العيد بكمية من اللحم من جيرانه. وليس لدى الصابئة المندائيين نذوراً ولا طعام نذور بل لديهم الأضاحي وفي

الأعياد فقط لأن لها مغزى اجتماعي في الاشتراك بالطعام، أما النذر فهو شرط تحقق إذ لا يجوز أن تطلب من الخالق وتقرن ذلك بنذر حين يتحقق لأن في ذلك ربط بين مشيئة الخالق والاستجابة وهذا لا يجوز.

أما المشروبات، فالبيئة التي عاش فيها الصابئة المندائيون ليست غنية بالمشروبات وهي تقتصر على الماء والحليب وغالباً اللبن بعد نزع الزبد منه، وعصائر الفاكهة والشاي، ولا تعتمد القهوة إلا في مجالس العزاء ولقاءات الرجال في الديوانية التي تبنى للضيافة عند بعض الأسر. وجرعة الماء معهودة في طقوس الصباغة (التعميد) حيث يقدم رجل الدين ثلاث جرعات للمصطبغ من الماء الجاري الحي يسمى (ممبوها). وفي طقس الزواج تقدم جرعات من الماء الذي أذيبت فيه حبات عنب أو الزبيب المجفف للعروسين على أن يعد في أثناء المراسم لكي لا يتخمر، وهو هنا علامة على الإخصاب.

وتحتل بذور السمسم مكانة قيمة فزيت هريسها يعتمد لمسح جبين المصطبغ، وزيتها المستخرج بالعصر يعتمد في إجراء طقوس ترقية رجل الدين من مرتبة "ترميذا" إلى مرتبة "كنزبرا"، كما أن المقلي منه يعتمد مع الخبز ليغطي وجه الخبزة فيكون المذاق لذيذاً. ومن النباتات العطرية يعتمدون الآس، وهم يصنعون منه إكليلا يوضع

على الجنب الأيمن من جبين المصطبغ، وكذلك للمحتضر قبل مفارقته الحياة.

وليس لديهم كثير من المكسرات كالفستق والبندق واللوز ذلك أن بيئتهم لا تزرع فيها هذه الأشجار، وعادة تكون غالية الثمن. وبدلاً من ذلك يعمدون إلى بذور البطيخ الأحمر (الرقي) والبطيخ الأصفر والقرع الأبيض والأحمر حيث يقلونه بعد تمليحه ويعتمد في جلسات السمر. كما أن المعتاد طبخ نوى المشمش الذي يجمعونه في موسمه حيث يقومون بتنقيعه أياماً عديدة بالماء مع تغييره لكي يتم التخلص من مرورة النواة ثم يطبخونه ويملحونه ويشرونه بالشمس حتى يجف ويحفظ ويعتمد خاصة في ليلة الاعتكاف في العيد الكبير.

وهم يصنعون المخللات أيضا حيث يقومون بإعداد الخل من التمور الرخيصة ويعتمدون الخضروات المتوافرة مادة للمخلل.

وهم يصنعون أنواعاً من الحلوى مما مشهور في البيئة ومن ذاك الدبس والمعسل، والخريط والرز المحمر والهريس مع الدبس والزيت، والعصيدة، والكليجة، وجميع هذه تعتمد الطحين والتمر أو عصير التمر "الدبس". وهنالك حلوى معروفة عندهم تسمى "الفِل" وهي تقترن بمناسبة حتى أن تسمية الشهر المعتمد فيها يبسمى "شهر أبو الفل"، وهذه الحلوى قوامها التمر ويكون في الغالب من نوع الزهدي والسمسم المقلى والمطحون. يتم خلطهما

معاً وعمل كرات من الخليط فيكون لذيذاً. وهم يصنعون المربيات أيضاً وغالباً ما تعتمد قشور بعض الحمضيات لهذا الغرض. وجميع أنواع الفواكه مقبولة ومعتمدة عند الصابئة المندائيين وسيدها التمر الذي يجب أن لا تخلو مائدة منه حتى أنه يعتمد في طقوس مائدة الزواج الديني المقامة وكذلك ضمن قائمة مواد طعام الغفران المقام على نفس المتوفى واستذكاراً له.
وأما الأدوية فجميعها عشبية مما هو معتمد ومجرب وشائع.

مهن الصابئة المندائيين

ذكرنا بأن الصابئة المندائيين كانوا حرفيين بامتياز، وسبب هذا أنهم لا يشتغلون في الإتجار لما فيه من سفر وتنقل وإدخار يخرج عن التوصية الدينية بعدم الامتلاك والاكتفاء بما يوفره الفرد لقوت يومه. وقد اعتمدوا المهن الأكثر حاجة من المجتمع وبيئته الزراعية فبرعوا في الحدادة والنجارة وصناعة الزوارق والسفن ونواعير سحب الماء. كما برعوا بشكل متميز في مهنة صياغة الفضة والذهب وصاروا متميزين ومعروفين فيها حتى اقترنت المهنة في العراق باسمهم التي جعلتهم بتماس مع أسر المجتمع. وأملت أمانة المهنة أن يكونوا حريصين في الصنعة ودقة المصوغات، وهذا ما جعلهم مطلوبين ولا يمكن التفريط بهم.

صناعة السفن

وقد أظهرت المكتشفات في بلاد ما بين النهرين دقة المهارة في المصوغات الذهبية والفضية بما يشهد لهم بالكفاءة الحرفية. وهكذا ورث الصابئة المندائيون هذه الحرفة وبرعوا فيها حتى تربعوا على الصنعة فيها منذ القدم. وقد قربتهم هذه المهنة من أسر المجتمع عامة لحاجة الأسرة لهذه المصوغات. وكان في السابق أن العشيرة تطلب صائغاً أو أكثر بينها ويكون تحت حماية ورعاية شيخ العشيرة ليوفر هذه المضوغات لأسرته أولاً ولعشيرته، ومن هنا كسب المندائيون الود والاحترام والحماية. ومقابل هذا كانت أمانة الصاغة وبراعتهم في المهنة. وبعد أن أنشأت الأسواق في المدن الكبيرة وتكاثرت حتى في المدن والنواحي الصغيرة، أستقر الصاغة بمحلات خاصة بهم وصار يقصدهم الراغبون وأحياناً كثيرة معهم نساءهم، ثم صارت النساء هي التي تتابع مصاغتهن عند الصاغة.

ولــم يتحــدد اعتمــاد الصــاغة المنــدائيين علــى شــيوخ العشــائر والمتنفذين، بل إن التأريخ يوثق أن صاغة الملك والقصر الملكي كانوا من الصابئة المندائيين. فقد كان الشيخ عنيسي الفياض صائغ ملك العراق المعظم كما يصرح في إعلانه عن مصوغاته التي كان يتقنها ببراعة. وكان الملك وأسرته وحاشيته يكلفونه بالمصوغات التي يحتاجونها، وفوق ذلك الهدايا التي تقدم من الملك إلى ملوك ورؤساء الدول من السيوف المذهبة والمطرزة بالميناء.

وقد اقتضى القرب من الأسرة الملكية والحاشية الحكومية أن ينتقل العديد من الصاغة إلى بغداد ويستقروا في محلات لهم في سوق شارع النهر المحاذي لنهر دجلة والمسمى بشارع المستنصر.
وفضلاً عن مختلف أنواع المصوغات والحلي فقد كان الإقبال على أعمال علب حفظ السجائر ودلال القهوة والمزهريات واللوحات الفضية التي تنقش عليها رسومات ثابتة لرموز عراقية كالنخيل ونهري دجلة والفرات والجمال وملوية سامراء والمآذن والقباب والآثار البابلية والآشورية. لقد أكسبتهم هذه الصنعة تميزاً صاروا معروفين بها ليس على مستوى العراق بل وخارجه أيضاً، وصاروا هم يتبارون فيما بينهم بأيهم أحذق.

وكان الصاغة وخاصة في بغداد حيث يتواجد كثير من الإنكليز في أثناء الانتداب البريطاني والأجانب عامة يكتبون في لوحة الدلالة لمحلاتها أنهم من اتباع يوحنا المعمدان للتعريف بأنفسهم وهذا ما نراه في الصورة الفوتوغرافية.

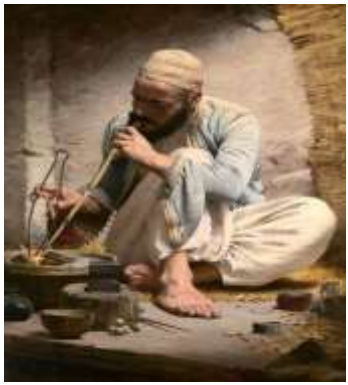

لوحة للصائغ زهرون رسمها الفنان الأمريكي
تشارلز بيرس عام 1882

حرفيون وفنانون وأدباء

ويشار إلى أن أحذق من عرف بهذه الصنعة هو الصائغ الشهير زهرون ملا خضر 1870- 1929 في مدينة العمارة الذي لم ينافسه أحد في فنه لهذا اليوم والذي ذاعت شهرته وصارت أعماله محط إقبال وطلب من ملوك العالم وعرضت مصوغاته في متحف اللوفر ودخلت المزادات العالمية.

صورة فوتوغرافية للصائغ زهرون
1918

وقد صاغ هدايا وتحف ومجوهرات لملكة بريطانيا ولرئيس الوزراء ونستون تشرشل والجنرال مود، والملك فيصل الأول والملك فاروق وللسلطان العثماني عبد الحميد الثاني وقيصر المانيا غوليوم الثاني والعشرات غيرهم في أوروبا والعالم. وكان أمراء الخليج وخاصة من البحرين يأتونه باللؤلؤ بلا وزن ليصوغ لهم الحلي والمجوهرات حتى صار اسمه علامة تجارية.

ورث المهنة بعد زهرون أولاده حسني وكان فخر النقش والفن، وسبتي والكثير من أفراد العائلة مثل الفنان (أسمر) و(ناجي) وغيرهما. ومن النتاجات المندائية التي تعرض الآن والعديد منها مازال محفوظاً لدى مقتنيها أو معروضة في بعض المتاحف نشاهد دقة ومهارة النقش على الذهب وتركيب الميناء السوداء في اللوحات الآتية:

علبة سجائر ذهب عيار 22 للأمير عبد الإله - عمل حسني زهرون

صورة حسني زهرون بنقش يده

عباس عمارة

ولد عباس عمارة المراني في مدينة العمارة عام 1900 وتزوج من ابنة رئيس طائفة الصابئة المندائيين يومها الكنزبرا الشيخ جودة

الشيخ داموك. وهو والد الشاعرة المعروفة لميعة عباس عمارة. كان كتلة من النشاط والحركة، وذو قدرات فنية وأدبية متعددة. فهو لبق وصاحب أسلوب في الحديث متميز، وقد أورث هذه الخصال في قدرة ابنته لميعة. كما كان فناناً ماهراً في فنون الصياغة جعلته محترفاً متميزاً. وكان طموحاً فانطلق بحرفته وفنون صنعته داخل العراق إلى الموصل، ثم إلى القاهرة حيث نافس المصريين في عقر دارهم، وفي بيروت ومنها إلى أيطاليا، وأقام في أمريكا وعمل هناك في أعمال متعددة وجنى ثروة كبيرة ذهبت على أثر مرضه فلم تستفد عائلته منها. ومن أبرز ما يسجل له مشاركاته في المعارض العالمية المقامة حيث يعرض فنونه ومهاراته في الصياغة والنقش على المعادن وتركيب المينا ومنها المعرض الشهير في نيويورك حيث يقف مع الرئيس الأمريكي روزفولت.

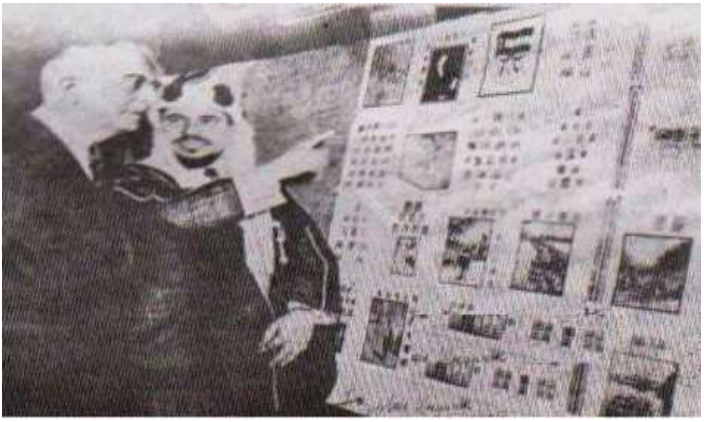

وكان يقيم علاقات ثقافية مع العديد من المبرزين شعراء وأدباء وفنانين، ومن ذاك علاقته بالشاعر إيليا أبي ماضي، وعلاقته المتميزة مع عباس العقاد والشيخ الدكتور أحمد زكي باشا وغيرهم الكثير، وله مساهمات أدبية منشورة وشروحات عن الديانة المندائية.

ويقف اليوم الفنان الماهر حامد رويد عبد الرزاق في مقدمة الذين مازالوا يحفظون المهارة في هذه الصنعة، وهو مقيم حالياً في الأردن بأسباب ظروف العراق. ومن تقدمه في صنعته أيضاً اعتمدته اليونسكو لتوثيق التراث العراقي في مهارت النقش على المعادن وخاصة الفضة والذهب وكذلك التطعيم بمادة الميناء الحرارية. وأعماله كثيرة ومتعددة اقتناها العديد من الرؤساء والملوك أيضاً. ويحتفظ كاتب هذا المبحث بعمل قدمه له الفنان رويد وهو نقش صورته يدوياً على الفضة مع تطعيمها بالميناء.

ولـم تتحـدد فنـون الصـابئة المنـدائيين بأعمـال الـنقش علـى المعـادن وخاصة الفضة والذهب، بل تعدت ذلك لتشمل ميادين فنون عديدة أخرى في التمثيل حيث يشار للفنانة المعروفة سهام السبتي والفنان مكـي البـدري، وفـي الفنـون التشـكيلية ليشـار إلـى الفنـان غالـب الخفـاجي، وفـي الخـط العربـي ليشـار إلـى الخطـاط عزيـز سـباهي والخطـاط قيس السعدي الذي طور في الخط المندائي ليصل فيه إلى مستوى الخط العربي مع المزاوجة بين الإثنين في بعض أعماله ومنها

وتتضمن مراسيم الزواج نصوصاً لعدد من الأناشيد والأغاني مما يشير إلى الفرح حيث يقرأ رجل الدين بعضاً منها ويطلب من الحاضرين التصفيق لإشاعة الفرح والبهجة احتفالاً بالعريسين. ومن نصوص هذه الأغاني نقرأ:

يا واهبَ الضِّياءْ... أجلب لنا الضِّياءْ
يا حاملَ النور... نَوّر لنا الظلماءْ
لِمَن هذا الضياءْ.. هذا الضّياءُ لمَنْ
لمَن هذا النور.. هذا النورُ لمَنْ
وهذا الإتقانُ النفيسْ تُرى مِن أينَ جاءْ؟
يا واهبَ الضِّياءْ

*****

هذا الضّيا من هيبلْ
هذا النورُ من شيتل
من أُنش هذا الإتقانْ
كم نقيٌّ وكم نفيسْ، بلا حدٌّ ولا إنتهاءْ
يا واهبَ الضِّياءْ

*****

لمَن هذا الصّرح.... صَرحُ مَن هذا؟
وهذا العِطرُ الفوّاح.... عِطرُ من هذا؟
هذا يا ياوَر صَرحُكْ

وهذا يا هيّي عِطرُكْ
في الصَّرح النورُ زَهى
ويَعبِقُ في الوَردِ الشّذى
الرائحة عطرة من الحي
واسمك مسبح دوما يا حي
في القلبِ أنت الكُشطا، أنتَ إيمانٌ وماء
يا واهبَ الضِّياءْ

ونقرأ في نص آخر:
أيتها الفتاة الشابة
يا من تحملين المرآة الصقيلة
عندما فيها نتظرين
أنت الأجمل سترين

وظهر في فنون الغناء العديد من المغنيين من ذوي الأصوات الجميلة ولكنهم لم يعملوا في الإذاعة ولم يسجلوا أغانيهم فضاعت رغم أنها كانت من الأطوار العراقية المعروفة في الجنوب العراقي خاصة. ويسجل باسمهم طور غنائي جميل هو طور الصبي المعروف الذي يتغنى به العديد من المطربين العراقيين والعرب اليوم، بل إنه اعتمد ضمن الأطوار التي قرأ ورتل بها القرآن الكريم.

ويذكر أن أول شخص ابتكره وغناه هو رومي سبهان البريجي من طائفة الصابئة المندائيين الساكنين في سوق الشيوخ في محافظة ذي قار. ولهذا الطور حادثة طريفة أدت إلى ولادته وانتشاره في أوساط الريف العراقي حيث يقال: في يوم من الأيام الخوالي وفي إحدى جلسات السمر أمر الشيخ ناصر باشا السعدون شيخ منطقة المنتفك أن يأتوه بشخصين من غير المسلمين ممن لا ينظمون الشعر ولا يجيدون الغناء. ووقع الاختيار على داوود اليهودي وسبهان البريجي من الصابئة المندائيين وكان يعمل حداداً. وحين حضرا أمرهما الشيخ أن ينظم كل واحد منهما بيتاً من الابوذية ويغنيه خلال نصف ساعة وإلاّ فان عليها ترك المدينة والرحيل عنها. ويبدو أن هذا التهديد بالعقوبة هو لتحفيزهما على النظم والغناء. وبعد عناء أنشد داوود اليهودي قائلاً:

الناس أهل المثل كًالو معادين (معادن)
انخلكًنا وللتراب احنه معادين (راجعين)
شيوخ المنتفج صاروا معادين (أعداء)
يباشا ادخيل عندك حّن عليه

وظل رومي البريجي يسعى للخلاص من العقوبة وقبل أن تنتهي مدة النصف ساعة ونتيجة لحالة الخوف التي كان يعيشها سبهان في تلك اللحظات، انطلق صارخاً بشكل عفوي (آه يويلي) التي صارت اللازمة المميزه لبداية غناء هذا الطور الذي تمت تسميته بطور الصبي

آه يويلي

يباشا الوكت شوف شلون علباي (عال بي)

وجثير من العلل بالكَلب عالباي (علّه بي)

يتخيلي يكص السيف علباي (رقبتي)

شيخلصني لَوَن تغضب عليه

واكملها بـ (آه يويلي)

ثم انفتحت قريحته فقال بيتا آخر:

جلد لاچن جفاني اليوم جلداي (صبري)

وحل اليوم بين الخلك جلداي (جَلدي)
أغني لو يذر الشيخ جلداي (جِلدي)
لو أمشي وتظل داري خلية

وهكذا أنقذ رومي نفسه وأعلن عفوياً عن ولادة طور جديد يضاف الى أطوار الغناء الريفي. ولجمال هذا الطور وطريقته فقد تم تلاقفه من قبل المغنين وأجادوا في غنائه حتى أصبح مشهوراً جداً ومن هؤلاء المغنين: جبار ونيسه وحسن داوود وطالب السامرائي وعبد الامير الطويرجاوي وحسين نعمه، وأحسن من أجاده وأبدع فيه هو المطرب الراحل رياض أحمد. للاستماع لهذا الطور على الرابط أدناه

https://www.youtube.com/watch?v=OfIroDLPXZg

ولإبراز مناسباتهم وإظهار اعتزازهم بكيانهم عمدوا مؤخراً إلى وضع أغاني وأناشيد تتغنى بالمندائية وأبنائها. وكان لكتاب هذا المبحث عدد من هذه الأناشيد نثبت أبرزها المتمثل بالنشيد المندائي:

نَحنُ مِن آدم صِرنا نَحنُ مِن شيتٍ وسامْ
نَحنُ مِن يحيى كبرنا نَحنُ تعميدُ السلامْ
نَحنُ عهدُ الأولينْ

ديننـا أول ديـنْ

دَربَ مندا قد سلكنا حرفنا أصلُ الكلامْ

أكا هيي أكا ماري أكا مندا إد هيي

*****

نَحنُ من نـورٍ خُلِقنا نَحنُ للنـورِ نعـودْ

رايةٌ بيضـاءُ إنـّا غُصـنُ آسٍ ووروْدْ

نَحنُ إيمانٌ وماءْ

رَبُنا ربُّ الضياءْ

وَسطَ كُنزٍ قـد كتبنا اسمُ هيي والعهـودْ

أكا هيي أكا ماري أكا مندا إد هيي

*****

نَحـنُ فـَردا قد عَبَدنا فهـوَ حيٌ وحيـاةْ

أينمـا عشنا وصرنا ماؤنـا يَبـقى فـُراتْ

قِبلةٌ نحوَ الشمالْ

ونقـاءُ وكـَمالْ

مِثلُ نَخلٍ قد غُرِسنا ندعو من ماري الثبات

أكا هيي أكا ماري أكا مندا إد هيي

https://www.youtube.com/watch?v=gZpFFM3MNKg

ولا يسجل لهم في مجال الرقص والدبكات الجماعية خصوصية معينة، ونرى أنها ذابت ضمن الموروث العراقي الجنوبي، إلا أننا نرى أن كلمة (چوبي) التي تطلق على الرقص بدبكة عراقية معروفة هي قديمة وأن اسمها حسب تخريجنا يتأسس على كلمة سبعة التي ترد باللغة المندائية (شُبا) وجمعها يكون (شوبي). وحيث أن حرف الشين عادة ما يلفظ جيم ثقيلة (چ) فقد تحولت إلى (چوبي) وهو إشارة إلى تحلق الأشخاص الدابكين بمجموعات سباعية أو هو مما يرد في نصوصهم وخاصة التحذير من أن تلعب بالفرد السبعة إشارة إلى تأثير الكواكب السبعة على الأفراد وغالباً ما يكرر معها (هلا باليلعب چوبي)، ومنها أطلقت هذه التسمية التي ليس لها تأصيل آخر.

الوظائف الحكومية

مع تأسس الدولة العراقية الحديثة في بداية القرن العشرين عملت على تأسيس التعليم النظامي وفتح المدارس في مدن العراق المختلفة. وقد تنبّه الصابئة المندائيون لأهمية تعليم أبنائهم في المدارس لأنهم أدركوا أن النجاح والتفوق يضمن لهم فرصاً للحصول على وظائف في الدولة العراقية التي ستكون محتاجة لهم في العديد من المجالات. وقد ساعد في هذا عدم وجود تمييز في القبول على أساس الدين أو الإثنية. وحين عمد رجال الدين

والمتنفذين منهم إلى تسجيل أبنائهم في المدارس وكانت مجانية، تشجع الآخرون أيضاً. ثم فطن الآباء إلى أن الحاجة الكبيرة للمعلمين أملت أن يتم تعيين من يتخرجون من الدراسة الإبتدائية بوصفهم معلمين بعد دورة قصيرة، فكان عدد منهم، ثم تخرج العديد من دور المعلمين الإبتدائية. وهكذا صار العديد من شباب الطائفة معلمين وجميعهم حصلوا على وظائف وتعينوا في المدارس وفي مناطق عديدة. وقد ساعد عملهم على تحسين أوضاع أسرهم المعاشية. ولحرص المعلمين المندائيين وذكائهم كان لهم دور بارز في تعليم النشء في البيئات التي عملوا فيها مما أكسبهم احترام تلاميذهم وأولياء الأمور وذاعت شهرتهم وكثر احترامهم. ولم يقتصر الأمر على الذكور بل أقدمت الإناث أيضاً على سلك التعليم وكانت الصابئيات من بين أوائل المعلمات في العراق.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن العديد من الأسر واصلت تعليم أبنائها في دار المعلمين العالية ببغداد (ما تعادل كلية التربية اليوم) فتخرج العديد منهم الذين عملوا في سلك التعليم الثانوي وبالمستوى التعليمي المتفوق أيضاً. ومع أن الغالب عليهم كان سلك التعليم، إلا أنهم أكملوا دراساتهم في ميادين أخرى أيضاً وخاصة في الطب والهندسة. وتمكن عدد منهم من الحصول على فرص لإكمال الدراسة العليا فحصلوا على شهادة الدكتوراه وعملوا

في الجامعات العراقية وأبرزهم كان المرحوم الدكتور عبد الجبار عبد الله الذي ترأس جامعة بغداد 1958- 1963. ومع أن السلك العسكري محدود التدرج في مراتبه لغير المسلمين وإن بشكل غير معلن، إلا أن عدداً من المندائيين انتسبوا لهذا السلك وتخرج بعضهم ضباطاً نظاميين أو من خلال كونهم مهندسين ليعملوا في المجالات العسكرية المهنية وقد تدرجوا حتى وصلوا رتبة عميد في الجيش وهي أعلى رتبة مسموح بها لهم. هكذا صار المندائيون يفتخرون أن نسبة الأمية بينهم صفر تقريباً، وأن يضمنوا بوظائفهم مستوى معاشياً جيداً وعلاقات طيبة مع المجتمع ومع الدولة من خلال الحرص الكبير لهم في أداء مهام عملهم وإخلاصهم فيه، ولم يسجل عليهم أية عمليات خيانة أو اختلاس حتى وصل الأمر لتسميتهم بالطائفة الذهبية تقديراً لإخلاصهم وحسن سمعتهم.

ومن أوائل المعلمين المعروفين المرحوم غضبان رومي والمرحوم نعيم بدوي، ومن أوائل المعلمات المرحومة كمالة المندوي والمرحومة ناجية غافل المراني، ومن أوائل المدرسات المرحومة لميعة عباس عمارة المتخرجة في دار المعلمين العالية عام 1955.

الأدباء والشعراء

ما يؤسف له هو عدم اهتمام الصابئة المندائيين بتوثيق التأريخ لأنه يتعلق بالأمور المادية قياساً بتعاليمهم الروحانية. ولأنهم لم يؤسسوا

دولة تهتم بدواوينها وتوثيق الأحوال على اختلافها، ولانشغالهم بحياتهم المعاشية وأمور طقوسهم الدينية، لم يتم توثيق أدب كثير يتعلق بالصابئة المندائيين، وظل التراث الشفاهي يتناقل ما دار بينهم وما أسهموا به. أما الصابئة الذين نزحوا من حران وقطنوا بغداد فيفتخرون بالعديد من علمائهم في مختلف المجالات وكذلك أدبائهم ومؤرخيهم وفي مقدمة هؤلاء ذائع الصيت أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابئ الذي ترأس ديوان الإنشاء في زمن الدولة البويهية الذي مازالت طريقته في الإنشاء والبلاغة تدرس لغاية اليوم، وأشعاره يتم تداولها بل والتغني بها. وحيث مرت بغداد والعراق عامة بمرحلة مظلمة بعد غزو هولاكو، فإن كل شيء ضعف وخففت جذوته، وصارت إسهامات الصابئة المندائيين في الشعر محدودة، ومع ذلك فقد برز فيما يسمى بالشعر الشعبي شاعران تم حفظ بعض أشعارهم هما المدعو سنيجر بن عامر بن ناصر بن عزيز بن سبتي بن زهرون المولود في قضاء الكحلاء 1800 -1881 ويشار له بأنه كان ذكياً بالفطرة رغم عدم دراسته وعيشه في بيئة بسيطة لم تصلها الحضارة. ومع ذلك فله تنبؤات وأقوال يرى البعض أنه سبقت عصره وتنبؤاءات عن ابتكارات صارت اليوم حقيقة. ومن بين ما كتب يحفظ له قصيدة في الموروث تم تناولها في المجالس حتى وصلتنا وحين تصدق بعض تنبؤاته اليوم يقال كما قال الفتى سنيجر. وتعد هذه القصيدة اليوم

من الإرث الثقافي للصابئة المندائيين غير المادي وهي طويلة تصل إلى حوالي 100 بيت، نقدم بعضاً منها وخاصة ما تحقق من نبوءات فيها وتبدأ:

يقول الفتى المدعو اسنيجر--- وقولي جواهر من در البحاره
قولاً معرب ما فيه نقيصه --- كتبته بطرس تبدع أدواره
تصاريف الوقت عسرت علينه --- وهذا الوعد بالافلاك داره
أخبركم أنا يا(داي) عاجل --- يضعف دينكم في آخر داره
(يقصد المندائيين)
ويجيكم زمن يكفينه الله شره ----- بيه الجار ما يأمن بجاره
وتظهر سفينه مصنوعه من خشب -- وأتطير بالهوا مثل الطير طاره
(الطائرة)
ويظهر شئ مصنوع من الخشب ------ تعجب بلحنه ويغني جهاره (الراديو)
وتظهر سفينه أسمها المركب ----- وما تمشي بالبحر الا بناره
(الباخرة)
ويظهر شئ مصنوع من الخشب ---- تشوف بيه ويغني جهاره
(التلفاز)
وتظهر بالسمه نجمه عجيبه ---- لها ذيل بلونها وراها حراره
(الصواريخ ومركبات الفضاء)
وما بين العراق وبين كرخه ----- تسيل الدمه لرسوغ المهاره

(الحرب العراقية الإيرانية)
وتقيم الحرب سبعة كوامل --- وتهتز الارض وأبليس داره
(إكتملت الحرب سبع سنوات ودخلت في الثامنة)
ويعم القحط في بلد بابل ---------ويصير الخبز في لون الغباره
(الحصار على العراق)
حيث تجينه من بني أصفر عساكر -- وعلى شط الفرات تصير غاره
(غزو العراق عام 2003)
مبحرين بعدد ألفين خشبه ----- ومثلها ألفين تحميهم بالبحاره
(أساطيل السفن البحرية)

ومن الشعراء الذين ذاع صيتهم وحفظ تراثهم المدعو فدعم بن عيادة 1810-1885 المولود في مدينة سوق الشيوخ، وقد نظم الأبوذية والعتابة والقصيد، وكان مولعاً بالمساجلات والتماحك مع الشعراء، وشعره لا يخلو من الدعابة التي كان يتم تناقلها في المجالس، وله قصص مع شيوخ المنتفك من آل السعدون في أيامه حيث كانوا يستدعونه لحضور مجالسهم لحسن شعره وسرعة بديهيته حتى أنهم كانوا يتراهنون على قدرته في ابتداع المعاني وحضورها. ومن أشهر المساجلات المتناقله شفاهياً أن الشيخ مزعل وهو من شيوخ المنتفك رصد جائزة لمن يقول أحسن بيت أبوذيه بغانية يهودية رائعة الحسن تقيم في مدينة البصرة اسمها

(رجينة) واشترط أن يذكر الشاعر اسمها في شعره وتقريبها إليه. وتقاطر الشعراء على ديوانه بعد المدة التي حددها وكانوا سبعة شعراء من ضمنهم فدعم، وكان الشيخ مزعل هو الحكم في مجلس مشيخته. وتبارى الشعراء كل حسب مذهبه من سني وشيعي، وحين وصل الدور للشاعر فدعم وكان آخرهم قال:

يصاحب دوك ناشدني وسني (إسألني)
والغيرك ما افتره كيفي وسني (ثغري)
عيّت ما تبي شيعي وسني (عيت: تعبت)

وتبي صبي (رجينه) الخيبرية وكانت الجائزة من نصيب فدعم في هذه المسابقة بإقرار كل الحاضرين ومن أبرز شعراء الصابئة المندائيين المعروفين والذين ذاع صيتهم وامتدت شهرتهم على البلدان العربية بل وبلدان عديدة في العالم هما الشاعرة لميعة عباس عمارة والشاعر عبد الرزاق عبد الواحد.

لميعة عباس عمارة

ولدت في بغداد عام 1929- 2021 من أبوين صابئيين مندائين، وهي بنت الصائغ الشهير عباس عمارة وتنحدر من عائلة دينية فجدها لأمها هو الكنزبرا الشيج جودة الشيخ داموك وكان رئيس طائفة الصابئة المندايين في وقته. درست في بغداد ثم في مدينة العمارة ثم أكملت دراستها في دار المعلمين العالية ببغداد وتخرجت فيها عام 1955. ظهرت موهبتها الشعرية مبكراً ونشر لها الشاعر إيليا أبو ماضي في مجلته السمير أول قصيدة لها 1944 وعقب على قصيدتها: "إذا كان في العراق أطفال كهؤلاء، فإنه مُقدم على نهضة شعرية". وقد تحقق ذلك حيث تجسد بقمم من الشعراء أمثال بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وعبد الرزاق عبد الواحد وهم رعيل النهضة الأول.

جمعتها علاقة وطيدة مع الشاعر بدر شاكر السياب حتى أن بعضهم يذكر أن مطلع قصيدته الشهيرة المطر (عيناك غابتا نخيل ساعة السحر) كانت تغزلاً بعيني لميعة. وقد جمعت لميعة الحسن والبهاء وجمال القوام وبلاغة القول واللفظ وجرأة في كتابة الشعر

والمعايشة والتواجد في مجتمع الرجال حتى صارت صوتاً أنثوياً في غابة ذكورية ومن أهم الشخصيات الشعرية النسوية اللواتي كتبن عن المرأة والحب والغزل. فازت بجوائز الشعر في مباريات دراستها الجامعية. عملت مدرسة للغة العربية في بغداد، واعتمدت في ممثلية العراق في اليونسكو بباريس ومدير الثقافة والفنون في الجامعة التكنولوجية في بغداد. انتخبت عضواً في إتحاد الأدباء العراقيين الأعوام 1963- 1975 ونالت العديد من الجوائز وشهادات التكريم والتقت عديداً من الرؤساء. عاشت في بيروت مدة طويلة ثم انتقلت إلى مدينة سانديغو في الولايات المتحدة الأمريكية حيث أمضت بقيت حياتها حتى توفت يوم الجمعة 18 مايس 2021. وظلت متوقدة الذاكرة حافظة لشعرها حتى آخر أيام حياتها، بل يسجل لها أنها تفرغت لدراسة أنثروبولوجيا الطعام عند الصابئة المندائيين ونالت بها شهادة الدكتوراه من الأكاديمية المندائية عام 2018. ثبتت اسمها موسوعة WHO IS WHO ضمن النساء المشهورات في العالم.

صدر لها تسعة دواوين هي: لو أنبأني العراف، أغاني عشتار، الزاوية الخالية، البعد الأخير، عراقية، أنا بدوي دمي، يسمونه الحب، عودة الربيع، قبل الـ 2000، فضلاً عن كتابها في الطعام عند الصابئة المندائيين وعلاقته بالصحة والجمال الذي صدر عام 2018. وقد تبنت إصدار دورية باسم المندائي وهي في سانديغو، تناولت فيها

على أعداد محدودة مفاهيم عن ديانة الصابئة المندائية وجوانب في عاداتهم وتراثهم وثقافتهم.

كتبت في أغراض شعرية عديدة وكان حبها لوطنها كبيراً ظهر في العديد من قصائدها وفي حنينها إليه وهي في الغربة. كما كتبت بالعامية أيضا وأنشدت لديانتها والمناسبات الدينية، وهو ما سنتقتطف منه ما يوثق ذلك.

وتقول عن نفسها: "أنا لا أعرف لي أصل غير جذوري السومرية البابلية..

أنا من غرين جنوب العراق، ورغم وجودي في أمريكا لربع قرن لكني لا أشعر بانتماء لغير العراق".[45]

وتعتز لميعة بديانتها وإرثها الممتد جذراً في بلاد ما بين النهرين وقد ذكرت ذلك كثيراً وتباهت بأصول أسرتها وأنها بنت بيت دين معروف، ومن حبها تناولت التعريف بديانتها في منتديات وقامت بإصدار أعداد من أول دورية تصدر في المهجر ترأست تحريها أسمتها المندائي. كما أنها كتبت قصيدة في أحد دواوينها عن النظير وهو مفهوم مندائي في أن لكل شخص نظيره (دموثا)، ومقطوعات شعرية بالعامية العراقية للأعياد والمناسبات.

ومن أشعارها التي تتغنى بالعراق نقتطع أبياتاً من قصائد عديدة

45 نص من حديث لها في إحدى المقابلات التلفزيونية.

(هلا) و(عيوني) بلادي رضاها
وأزكى القرى للضيوف قراها
بلادي ويملأني الزهو أني
لها أنتمي وبها أتباهى
لأن العراقة معنى العراق
ويعني التبغدد عزاً وجاها
أُغني لبغداد تصغي القلوب
وألفي دموع الحنين صداها
وأن قلت بغداد أعني العراق الحبيب
بلادي باقصى قراها
من الموصل النرجسيه أُم الربعيين
والزاب يجلو حصاها
إلى بصرة الصامدين نخيلا
تشبث من أزل في ثراها
وعندما قصف الجسر المعلق من العدوان الأمريكي في عام 1991
كتبت لميعة:
ضلعي أحسه المنكسر موش الجسر
يا جسر المعلق أو يا أحلى جسر
يحزام دجلة ايلالي حدره الماي ويوج العصر

يمصافح الصوبين ما مل الرصافة الكرخ من وكت الزغر
يا جسر المعلق ويا أحلى جسر

أما بالفصحى فكتبت عن الجسر المعلق وتربعه على نهر دجلة، وهي تتغزل ببغداد صوبيها الكرخ والرصافة، وتلقي القصيدة بإسلوب أخاذ نشاهده في الرابط أدناه:
https://s.shabakngy.com/to/to.php?q=bysGI3zp6fk

ومن قصائدها المشهورة وكانت عنواناً لأحد دواوينها قصيدة "لو أنبأني العرّاف":

لو أنبأني العراف
أنك يوماً ستكونُ حبيبي
لم أكتُبْ غزلاً في رجلٍ
خرساء أُصلّي
لتظلَّ حبيبي
لو أنبأني العراف
أني سألامس وجه القمرِ العالي
لم ألعب بحصى الغدران
ولم أنظم من خرز آمالي
لو أنبأني العراف

أن حبيبي
سيكونُ أميراً فوق حصانٍ من ياقوت
شدَّتني الدنيا بجدائلها الشقرِ
لم أحلُمْ أني سأموت
لو أنبأني العرّاف
أن حبيبي في الليلِ الثلجيّ
سيأتيني بيديهِ الشمسْ
لم تجمد رئتايَ
ولم تكبُرْ في عينيَّ هموم الأمس
لو أنبأني العراف
إني سألاقيك بهذا التيه
لم أبكِ لشيءٍ في الدينا
وجمعتُ دموعي
كلُّ الدمعِ
ليوم قد تهجرني فيه

ومن قصيدة طويلة بعنوان "بغداد أنتَ" قالتها وهي في المهجر نقتطع بعض الأبيات التي تظهر قيمة بغداد التي تعني العراق عندها وحنينها إليها:

أقول سأهجر كل العراق ولست بأول صب هجر

فيهتف بي هاجس لا يُرد مكانكِ، إنّ المنايا عبر
هنا تُقتلين... هنا تُدفنين، وأما السرى فمنايا أخر
وتعصف بغداد في جناحيّ أعاصيرَ من ولهٍ لا تَذر
بخور لها أدمعيما أقل عطاء الفقير إذا ما نذر
وبغداد قيثارتي البابلية قلبي وهُدْبي عليها وَتَرْ
لها في فمي سحر كُهانها وآثارُ ما قبلوا من حجَرْ
وما رصدوا كوكباً وكوكباً وما ميزوا الكون خيرا وشر
تراث تضمّخ بالطيبات وبالمجد منها إليّ انحدر
وبغداد أنتَ، إذا شط بي مزار لواني إليها القدر
حصاد المروءات من بدرها وريقٌ أنيقٌ رهيفُ الصور
تمدد عبر الزمان السحيق وعرّش من سومر للحضر
وأنت جنان جبال الشمال تفجر سلسالها وانهمر
وعيناك دجلة غفو الغروب على الشاطئين وليل السمر

https://www.youtube.com/watch?v=0n1F2LT6b0k

عبد الرزاق عبد الواحد

الشاعر الكبير عبد الرزاق عبد الواحد 1 تموز 1930 - 8 تشرين الثاني 2015. ولد في بغداد من أبوين صابئيين مندائين، وهو ابن عمة الشاعرة لميعة عباس عمارة. تربيا سوياً وانتظما في دار المعلمين العالية حيث تخرج هو فيها عام 1952. عمل مدرساً للغة العربية في مدارس ثانوية عديدة، ثم تدرج في وظائف متعددة منها منصب مدير معهد الدراسات النغمية، فعميداً لمعهد الوثائقيين العرب، ثم مدير عام المكتبة الوطنية العراقية، ثم صار المدير العام لدار ثقافة الأطفال، ثم مستشاراً لوزير الثقافة والإعلام.

برزت شاعريته بشكل كبير في أثناء دراسته، فنشر أول قصيدة عام 1945 ثم صقلت موهبته في دار المعلمين العالية حيث زامل بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وشاذل طاقة ولميعة عباس عمارة،

وكـانوا روادًا للشـعر الحـر أيضـاً، وكانـت المباريـات الشـعرية فـي الكليات تزيد الحماس وتلهب المشاعر.

وأججت الحرب العراقية الإيرانية المشاعر يوم صار الصراع عراقياً إيرانياً، وإذ كتب للحماسة فكانت كتاباته مساهمة في التعبئة مما جعل الدولة العراقية تعتمده وهو يرى فيها ما يظهر للعراق الذي أحب ليظل شامخاً كنخيله وأن لا يغلب ولا يقع.

ومع إجادة عبد الرزاق عبد الواحد للشعر الحر إلا أنه غلب عليه شعره في القصيدة العمودية حتى عد أنه خليفة المتنبي فيها. وإذ يعده بعضهم أنه شاعر البلاط العراقي إلا أنه ينفي ذلك بقوله:

"لست شاعر بلاط وإنما كنت أمجد العراق وجنوده وليس شخص واحد والدليل على ذلك أني لا أزال أكتب لصدام كرمز للعراق".

أعماله الشعرية

لعبد الرزاق عبد الواحد 59 ديواناً شعرياً منشوراً، حيث نشرت أول قصائده عام 1945 ونشر أول ديوان لهُ عام 1950، ومن دواوينه: لعنة الشيطان، طيبة، قصائد كانت ممنوعة، أوراق على رصيف الذاكرة، خيمة على مشارف الأربعين، الخيمة الثانية، في لهيب القادسية، أنسوكلوبيديا الحب، قمر في شواطئ العمارة، في مواسم التعب، 120 قصيدة حب، ياصبر أيوب. كما له 10 مسرحيات شعرية منها "الحر الرياحي" و"الصوت" و"الملكات" فضلاً عن ما كتب من نصوص إلى دار الأزياء العراقية و22 رواية شعرية

للأطفال والعديد من الأناشيد الوطنية. وقد تُرجمت قصائده إلى لغات عالمية عديدة، ونال جوائز وأوسمة عراقية وعربية وعالمية عدة، ولُقِّب بشاعر القادسية وشاعر أم المعارك وأيضاً بشاعر القرنين والنهر الثالث.

ومن أبرز أعماله على صعيد طائفته وديانة الصابئة المندائيين هو ترأسه للهيأة الإدارية لنادي التعارف الذي تأسس عام 1972 ولعدة دورات، وكذلك اعتمد عضواً في المجلس الروحاني للطائفة عام 1980، ثم العمل الكبير الذي قام به وهو الصياغة الأدبية لترجمة الكتاب المبارك للصابئة المندائية (گنزا ربا).

كتب عبد الرزاق عبد الواحد في مختلف أنواع بحور الشعر وأغراضه، ولكن غلب عليه شعر الحماسة والفخر الذي تطلبته ظروف العراق والحروب والحصار الذي مر به ومما كتب متفاخراً:

وهؤلاء الذين استنفروا دمهم كأنما هم إلى أعراسهم نفروا
السابقون هبوب النار ما عصفت والراكضون إليها حيثُ تنفجرُ
الواقفون عماليقا تحيط بهم خيل المنايا ولا ورد ولا صدرُ
وكان صدام يسعى بينهم أسداً عن عارضيه مهب النار ينحسرُ

عصَفَتْ فأوقِدْ أيُّها الغضَبُ

أوقِدْ ، وَكُلُّ دمائِنا حَطَبُ عَصَفَتْ ، فَأوقِدْ أيُّها الغَضَبُ
أوقِدْ ، وأحْرِقْ كُلَّ شائِبَةٍ فينا لِيَبقى الخالِصُ الذَّهَبُ
يَبقى العراقيُّون .. لا دَنَسٌ في أرضِهِم .. وأراذِلٌ جُنُبُ

يَتَحَكَّمونَ بِهِم، وَيَحكُمُهُم ... في أرضِهِم فُرْسٌ، وهُم عَرَبُ!
أهلي العراقِيّين .. ما طَلَعَتْ ... شَمْسٌ ، وَلا أغفى لَها هُدُبُ
إلا وَهُمْ أَلَقٌ بِبُؤبُؤِها ... تَغفو علَيه حينَ تَحتَجِبُ !
هُم سُومَرٌ .. هُم بابِلٌ .. أكَدٌ ... هُم هذِهِ الأمجَادُ والحَسَبُ
آشُورُ ، مُذْ عَرَباتُه انطلَقَتْ ... بِغُبارِهِنَّ الشَّمسُ تَنْتَقِبُ
وَهُمُو نُبُوخَذْ نُصَّرَ اليَدُه ... بَنَت الجَنَائِنَ تَسْبَحُ الشُّهُبُ
مِن فَوقِهِنَّ.. وَهُم، وألفُ وَهُم ... هُم غُرَّةُ المَنصورِ تَنتَصِبُ
بَغدادُ .. والتاريخُ يَخشَعُ إذْ ... تَعلُو المَنائِرُ فيه والقُبَبُ !
وَهُمُ الرَّشيدُ بِكُلِّ هَيْبَتِه ... تَسعَى، وَلا تَجتازُه السُّحُبُ !
والسِّندبادُ .. جَناحُ نَورَسِهِ ... يَطوي البِحار.. وَقِصَّةٌ عَجَبُ
في كُلِّ غامِضَةٍ يَمُرُّ بِها ... شُغِلَتْ بِها الأقلامُ والكُتُبُ!
وَهُمُو هُمُ المَأمُونُ .. مَجْلِسُه ... والعِلمُ ، والشُّعَراءُ، والأدَبُ
بَلْ هُم عَلِيٌّ .. جَلَّ مَرقَدُه ... وَهُمُ الحُسَينُ وَآلُهُ النُّجُبُ
لَم تُطْلِع الأيَّامُ مِثلَهُما ... شَمْسَينِ ..هذا ابنٌ ، وَذاكَ أبُ!
أولاءِ أهلي ..خَيرُ مَن عَمَرُوا ... أرضًا، وَأعظَمُ مَن بِها وَثَبُوا

وقبيل الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 غادر عبد الرزاق عبد الواحد ولم يعد حيث قضى غربته متنقلًا بين سوريا وعمان حتى وافته المنية في باريس في فرنسا عام 2015. وخلال غربته

ظل يكتب للعراق ولبغداد بحماس منقطع النظير وببكاء شديد على مآل العراق أثر الاحتلال. ومما كتب:

كبيرٌ على بغداد أنّي أعافُها
وأني على أمني لديها أخافُها
كبيرٌ عليها، بعدما شابَ مفرقي
وجفَّتْ عروقُ القلبِ حتى شغافُها
تَتبَّعتُ للسَّبعين شطآنَ نهرِها
وأمواجَهُ في الليلِ كيف ارتجافُها
وآخَيتُ فيها النَّخلَ طَلعاً، فَمُبسِراً
إلى التمر، والأعذاقُ زاهٍ قطافُها
تَتبَّعتُ أولادي وهم يملأونها
صغاراً إلى أن شَيَّبتهُم ضفافُها!
تتبَّعتُ أوجاعي، ومسرى قصائدي
وأيامَ يُغني كلَّ نفسٍ كفافُها
وأيامَ أهلي يملأُ الغيثُ دارهَم
حياءً، ويُرويهم حياءً جفافُها!
سلامٌ على بغداد.. لستُ بعاتبٍ
عليها، وأنَّى لي وروحي غلافُها
وها أنا في السَّبعين أُزمِعُ عَوفَها
كبيرٌ على بغداد أنّي أعافُها!

وكتب لبغداد قصيدة مؤثرة نختار منها:

دَمعٌ لِبَغداد.. دَمعٌ بالمَلايين
مَن لي بِبَغداد أبكيها وتَبكيني؟
مَن لي ببغداد؟.. روحي بَعدَها يَبِسَتْ
وَصَوَّحَتْ بَعدَها أبْهى سَناديني
عُدْ بي إلَيها.. فَقيرٌ بَعدَها وَجَعي
فَقيرَةٌ أحرُفي .. خُرْسٌ دَواويني
والشِّعرُ بغداد، والأوجاعُ أجمَعُها
فانظُرْ بأيّ سِهامِ المَوتِ تَرميني؟
عدْ بي إلى الكَرخ..أهلي كلُّهُم ذُبحُوا
فيها..سَأزحَفُ قطوعَ الشَّرايين
حتى أمُرَّ على الجسرَين..أركضُ في
صَوبِ الرَّصافَةِ ما بَينَ الدَّرابين
مَحروسَةٌ بالحُسَينِ الأرضُ في وَطني
وأهلُها في مَلاذٍ منهُ مَيمون
ما دامَ في كَربَلا صَوتٌ يَصيحُ بِها
إنَّ الحُسَينَ وَلِيٌّ لِلمَساكين

ومن أجمل ما كتب للعراق وهو على فراش المرض:

يا عراق، هنيئا لمن لا يخونك
هنيئا لمن إذ تكون طعينا يكونك
هنيئا لمن وهو يلفظ آخر أنفاسه
تتلاقى عليه جفونك

وكتب قصيدة للجسر المعلق بعد أن تم رفعه من السقوط الذي أحدثه العدوان الأمريكي عام 1991:

سقطتْ محاجُرهم وأنتَ معلَّقُ
وهوتْ خناجرُهم ، وجرحُكَ بيرقُ
شمتوا بأنك لا تَريمُ مهدَّماً
ها أنتَ وسط حصارِهم تتألقُ
يا عشق بغداد التي شريانها
من تحته زهواً يكاد يحلقُ
بغداد أعينها عليك أغرورقت
والآن أقسم أنها تغرورقُ!
نحن العراقيين أجمل طبعنا
أنَّا نذوب هوىً إذا ما نعشقُ
وغدوت يوماً عشقنا وكأنما الـ
كرادتان ندى قلوبٍ تخفقُ

وتطير مِ الصوبين عبرك .. تلتقي
في راحتيكَ ، وبعدها تتفرقُ
كنا نقول : على المعلق نلتقي
قدَرٌ على أهلِ الهوى أن يلتقوا
وعلى رصيفيك اللذين تشبعا
بالذكرياتِ ، عهودُنا تتوثقُ
حتى إذا كسروا جناحك ، فانحنى
للماء .. ينزف يستكين ، ويغرقُ
فاضت عليك دموع أهلك كلهم
وتذكروك وأنت حي ترزقُ
والعابراتُ ، وألفُ جيدٍ ينثني
و العابرون .. وألف قلبٍ يشهقُ
كُسِرتْ أياديهم ، فكم عاشق
قتلوا ، وكم من ذكريات أزهقوا
كم عينُ طفلٍ من سياجِكَ مدّها
ومياهُ دجلة تحتَهُ تتدفقُ
ذبحوا طفولتها بذبحك فانزوى
يبكي ، ومن خلل الدموعِ يحدقُ
كم موجةً عبرت تقول لأختِها
مرِّي الهُويني ، فالمعلقُ مرهقُ

ومن شعر الغزل وله ديوان 120 قصيدة حب نقرأ له:

كأجنحة العصافير
ترفرف بيننا
وأنا،
أضمك دون تفكير
إلى صدري
ولا أدري
بأني كنت أعصرها
فتدفع بالمناقير!
سلاماً يا نواطيري!
سلاماً يا أنوثتها
تزغرد في مشاويري
تشع بألف إكسير
وألثمها
وينبض في فمي فمها
فيوقظني جناح الطير
يخفق بيننا وجلاً
فيلهث في دمي دمها
ويضرمني

ويضرمها
فأجذبها إلى مائي
وألصقها بأحشائي
ويبقى الطير
كل الطير
يشهق ملء أرجائي!..

وفي قصيدته المؤثرة التي يذكر فيها أبنائه بعد هجرتهم للعراق يقول:

لا تطرُق البابَ.. تَدري أنَّهُم رَحَلوا
خُذِ المَفاتيحَ وافتحْ، أيُّها الرَّجلُ
أدري سَتذهَبُ.. تَستَقصي نَوافِذَهُم
كما دأبتَ، وتسعى حَيثُما دَخلوا
تُراقِبُ الزَّاد.. هَل نامُوا وَما أكلوا؟
وَتطفِيءُ النُّورَ.. لو.. لو مَرَّة فعَلوا
وفيكَ ألفُ ابتهالٍ لو نَسوهُ لكي
بهم عيونُكَ قبلَ النَّومِ تَكتَحِلُ!

لا تطرُق البابَ..كانوا حينَ تَطرُقها
لا يَنزلونَ إليها .. كنتَ تَنفعلُ
وَيَضحَكون.. وقد تَقسو فتَشتمُهُم
وأنتَ في السِّرِّ مَشبوبُ الهَوى جَذِلُ
حتى إذا فتَحوها، والتقَيتَ بِهم
كادَتْ عيونكَ، فرْط َالحُبِّ، تَنهَمِلُ!
لا تطرُق البابَ.. مِن يَومَينِ تَطرُقُها
لكنَّهُم يا غَزيرَ الشَّيبِ، ما نزَلوا!
ستُبصِرُ الغُرَفَ البَكماءَ مُطفأةً
أضواؤها .. وبَقاياهُم بها هَمَلُ
قمصانُهُم.. كتبٌ في الرَّفِّ.. أشرِطةٌ
على الأسِرَّةِ، عافوها وما سَألوا
كانتْ أعزَّ عليهم مِن نَواظِرِهم
وَها عليها سُروبُ النَّملِ تَنتقِلُ!
وسَوفَ تلقى لُقىً، كم شاكسوكَ لِكي
تبقى لهُم .. ثمَّ عافوهُنَّ وارتَحَلوا!
خُذْها.. لماذا إذن تبكي وَتلثمُها؟
كانتْ أعزَّ مُناهم هذهِ القُبَلُ !

يا أدمُعَ العينِ.. مَن منكم يُشاطِرُني
هذا المَساءَ، وَبَدرُ الحزن يَكتَمِلُ؟!
ها بَيتيَ الواسِعُ الفَضفاضُ يَنظرُ لي
وكلُّ بابٍ بهِ مِزلاجُها عَجِلُ
كأنَّ صَوتاً يُناديني، وأسمَعُهُ
يا حارِسَ الدَّار أهلُ الدَّارِ لن يَصِلوا

وفي قصيدة مؤثرة أخرى هي الزائر الأخير يخاطب الموت قائلاً:

من دون ميعادِ
من دون أن تُقلقَ أولادي
أطرق عليَّ الباب
أكونُ في مكتبي
في معظم الأحيان
إجلسْ قليلاً مثل أي زائرٍ
وسوف لا أسألُ
لا ماذا ولا من أين
وعندما تُبصرني مُغرورقَ العينين
خذْ من يدي الكتاب
أعدِهُ لو تسمح دون ضجة للرف حيث كان
وعندما نخرجُ

لا توقظ ببيتي أحداً
لأن من أفجع ما يمكن أن تبصره العيون
وجوه أولاديَ حين يعلمون

أما في ذكر الرموز الدينية فقد كتب قصيدة في الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب تعد من أروع القصائد التي قيلت في هذه الشخصية الإنسانية العظيمة، وفوق ذاك فإنها تسجل لعبد الرزاق عبد الواحد كونه صابئي الديانة، ومع ذلك فإنه يمجد شخصية الحسين بقيمة شهادته الإنسانية بهذه القصيدة التي صارت تدرس ويحفظها كثيرون لقيمة معانيها وجزالة ألفاظها ومنها:

قَدِمتُ.. وَعَفْوَكَ عن مَقدَمي حَسيراً، أسيراً، كسيراً، ظَمي
قدِمتُ لأُحرِمَ في رَحْبَتَيْك سَلامٌ لِمَثواكَ من مَحرَمِ
سلامٌ عليكَ فأنتَ السَّلام وإنْ كنتَ مُخْتَضِباً بالدَّمِ
وأنتَ الدَّليلُ إلى الكبرياء بِما دِيسَ مِن صَدرِكَ الأكرَمِ
سلامٌ على آلِكَ الحوَّمِ حَوالَيكَ في ذلك المَضرَمِ
وَهُم يَدفعونَ بِعُري الصدور عن صدرِكَ الطاهرِ الأرحَمِ
ويا بنَ الذي سيفُهُ ما يَزال إذا قيلَ يا ذا الفَقارِ احسِمِ
تُحِسُّ مروءَةَ مليونِ سيفٍ سَرَتْ بين كَفّكَ والمَحزَمِ!
ويا عَطَشاً كلُّ جَدبِ العصور سَيَشربُ من وِردِهِ الزَّمزَمِ
سأطبَعُ ثَغري على مَوطِئَيك سلامٌ لأرضِكَ من مَلْثَمِ!

كما كتب قصيدة من الشعر الحر في النبي يحيى بن زكريا (يهيا يوهانا) نقتطع منها:

الألفُ الثالثُ يُوشِكُ يا يَحيَى
يا دُرَّة زكَريّا
إعقِد إكليلَ الماءِ الحَيّ ،
وقُمْ وَسْط َالماءْ
نادِ جميعَ الأسماءْ
فإذا جاءَ ابنُ الأرضِ
فَقُلْ للأ ُردُنِّ اهْدَأ ْ
إخلَعْ تاجَكْ
وَسَكِّنْ أمواجَكْ
إنَّ عِمادَ ابنِ الأرضِ سَيَبْدأ ْ
وَسَيَدخُلُ هذي السَّاعة َفي مَلَكوتِ الماءْ

كانَ الألفَ الأوَّلَ يا يَحيى
كنتَ في فَجْرِ ذاكَ النَّهارِ الجَميلْ
تَضفِرُ أبهى الأكاليل
تَطْمُشُ أحْزِمَة ً ومُهودا
تُقيمُ المَلاخي شُهودا

وَتَغمِسُ في النّورِ أرديَةَ النّورِ
تُصعِدُ أصحابَها نَحوَ هَيّيٍ صُعودا
ظَلَّ شِعارُكَ يَحيَا
واسمُ الحَيّ على الماءِ الجاري يَحيَا
وَبَقِيتَ تُعَمِّدُ يا يَحيى

يا يَحيى
يا قَمَرَ الماءْ
ليْلَ نَهارْ
أنشَأتَ تُصَعِّدُ أرواحَ النّاسِ
إلى بَلَدِ الأنوارْ
تَسألُ كلَّ الأبْرارْ
ألاّ يَبقَوا في هذي الدَّارْ

ألأنَّكَ تَعلَمُ يا يَحيى أنَّ النّارْ
بَدأتْ تأخُذُ أطرافَ المَاءْ ؟
ألأنَّكَ تَعلَمُ أنَّ الأرضَ سَتُؤخَذُ بالظَّلماءْ؟
ألأنَّ النّاموسَ ذَوَى ؟
عَرشَ المَاءِ الحَيّ هَوَى؟
وانقَطَعَ الهَاجِسُ بينَ الأمواتِ وبينَ الأحياءْ؟

وتمنى عبد الزراق عبد الواحد أن لو يحتضن العراق جثمانه مع معرفته بأن ذلك صار حلماً فقال:

خَوفاً على قلبِكَ المَطعونِ مِن ألَمي
سأُطْبِقُ الآنَ أوراقي على قَلَمي
نَشَرْتُ فيكَ حياتي كلَّها عَلَماً
الآنَ هَبْني يَداً أطوي بها عَلَمي !
يا ما حَلمتُ بِمَوتٍ فيكَ ، يَحملُني
بِهِ ضَجيجٌ مِنَ الأضواءِ والظُلَمِ
أهلي ، وَصَحْبي ، وأشعاري مُنَثَّرَةً
على الجَنازَةِ .. أصواتاً بِلا كَلِمِ
إلا "عراق" تُناديني .. وَها أنَذا
أصحو بأنأى بقاعِ الأرضِ مِن حُلُمي
فأُبصِرُ الناس، لا أهلي .. ولا لُغَتي
وأُبصِرُ الرّوحَ فيها صَدْعُ مُنثَلِمِ
أموتُ فيكم ، ولَو مَقطوعَةٌ رئَتي
يا لائِمي في العراقيّين .. لا تَلُمِ !

قيس مغشغش السعدي

ونختـار لكاتـب هـذا المبحـث العديـد مـن القصـائد التـي تتعلـق بالمندائية ورموزها

بساط النور

قدمتُ إليكَ يا يحيى

لأحيا

لا يُخطأ مَكانكَ

لا يُخطأ أوانُكَ

أنت خيطُ ماءِ الدنيا

مَمدوداً سبعاً

مَوصولاً نبعاً

حَيثُ العَينُ الأولى

إعجازا حَملته "إنشبي"

حُبلى! واعجبي...

وعقدتْ البُشرى لِسانَ زكريا

فصدّق التّذيـن

وكذّب التّذين

قروناً، وأنتَ الماءُ واليقينْ

دينُ الحَيـاة

وحياةُ الدِّين

كلُّ رشةٍ
تزيلُ أثقالاً خطايا
كلُّ مَسحةِ سِمسمٍ
تشعُ جَبيناً وحَنايا
اصبغني يا يحيى
فأنا محتاجٌ للنور
للسرور
أرشمْ بخاتِمكَ شهادتي
وامنحني الكشطا
لأصيرَ سعيداً
إجعلني مهيباً يا يحيى
وانطرني حينَ أمر
مُدَّ لي المعبَر
ودَعني أراكْ
فأنا حفيدُكَ
سألقاكْ ...
سأعرفُكَ مِن بين الجَميع
لهفتي تدُلُني
وبساطُ النورِ المفروشِ ليْ في حُجرك

إليك يا آفاق[46]
ولملمتُ أغراضي مَرة ًأخرى
صليّتُ صَلاةَ الاحتراقْ
بكيتْ..
فقد اشتهيتُ أنّ الرحيلَ إلى العراقْ

أقرأُ في كلّ العُيون توسلها
أرى الحنينَ على الجبين
يصارعهُ الفراقْ

ويغلبُنا قدراً
يطوينا...
يسلُب أمانينا
ويفتتُ الأشواقْ

فتستحيلُ غصةً
لا يُمرؤها
غيرَ الفراتين

46 كتبت والشاعر يغادر ليبيا إلى المهجر 1998. وآفاق هي مجلة آفاق مندائية التي ترأس تحريرها

وطبطة الأكفِ على الظهورِ
وقشعَرة العناقْ

وأطرقُ لحظةً
تنسابُ مني الرّوح
تسري...
تسابقُني وتجري
فما ضاع بها المَسرى
ولم تحجبكِ يا رُؤيا
دموعٌ تملئ الآماقْ

إني أراها
أعرفُها
تلكَ منازلُ الأهلِ
وهل اسأل عن النخلِ!
حُبلى كلُها الأعذاقْ

يا بُستانَ حمودي[47]
سلامٌ أيها البَرحي

47 بستان عامر لصديق مندائي كانت تقام فيه لقاءات مندائية

فبعدكَ ما حلى طعـمٌ
ولا غيركَ في الدنيا مذاقْ

وطافتْ نفسي في المندا
كمثلِ حمامتك يحيى
تستذكرُ الأعوام عشرونا
هنا اجتمعتْ..
هنا اصطبغتْ..
هنا أقسمتْ بالعهد..
ومازالَ لديها العهدُ باقْ

ومازالَ التعارفُ بيتنا
يا ليالي الأنس في الزوراء أجمل من فينا
حينَ بطور الصبي "رياضٌ" قد تغنى
ترى
أيكفي انني مُشتاقْ؟

بلى، والله
وسع الصفحاتِ يا أفاق أكتبُ
أنني مُشتاقْ

التعليم الجامعي

وفي ميدان التعليم الجامعي برز عدد كبير من الأساتذة من حملة شهادة الدكتوراة وفي ميادين متعددة من الإختصاصات. وفي هذا المجال يشار إلى أبرز الأعلام وهم:

العالم العراقي المندائي الدكتور عبد الجبار عبد الله الذي ولد في مدينة العمارة بمحافظة ميسان عام 1911 وهو ابن رئيس طائفة الصابئة المندائيين الأسبق. أكمل دراسته العليا في الولايات المتحدة وحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا الشهير في بوستن.

وفي عام 1958 أعتمد أول رئيس لجامعة بغداد وشهدت الجامعة خلال سنوات رئاسته، نمواً سريعاً من حيث عدد و نوعية البرامج الدراسية و من حيث عدد الطلبة. وتطورت أيضاً سمعة الجامعة فأصبحت واحدة من أرقى جامعات الشرق. ثم عاد في منتصف الستينيات إلى الولايات المتحدة واشتغل في عدد من الجامعات وكلف بالعديد من الأبحاث والدراسات المتعمقة في مجال الفيزياء والأنواء الجوية وتعد بحوثه أساس ومبتكرة بحيث حاز من خلالها تميزاً وسمعة عالمية في مجال اختصاصه.

كان يجيد التحدث بأكثر من لغة ففضلاً عن العربية والآرامية كان يتحدث اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية وله العديد من النظريات والأبحاث العالمية وخاصة في مجال الأنواء الجوية، حيث يعود له الفضل الكبير في العديد من الأعمال بمجال الأعاصير والزوابع من فيزياء الجو، وله العديد من المؤلفات في مجال الفيزياء والعلوم باللغة العربية وترجم العديد من الكتب العلمية الأجنبية إلى اللغة العربية.

توفي في تموز 1969 في نيويورك بسبب مرض السرطان عن عمر يناهز 56 عاماً، ونقل جثمانه حسب رغبته ليدفن في وطنه العراق وفي مقبرة الصابئة المندائيين في منطقة أبي غربي ببغداد. قرب بغداد

الدكتور عبد العظيم السبتي

ولد في قلعة صالح، في العمارة عام 1945، حاصل على الدكتوراه في العلوم الفلكية من جامعة مانشستر1970. عمل في التدريس الجامعي في جامعة بغداد، وكان يشارك في برنامج العلم للجميع التلفزيوني، وأسهم في تأسيس القبة الفلكية ومركز الإرصاد الفلكي العراقي في أربيل. غادر الدكتور عبد العظيم العراق إلى المملكة المتحدة في منتصف التسعينيات من القرن العشرين، وفيها حصل على عضوية المجموعة المتقدمة لتطوير مشاريع الاتحاد الفلكي الدولي وعضوية المرصد الفضائي العالمي وله العديد من المؤلفات في مجال تخصصه. عاد للعراق بعد عام 2003 وسعى لإعادة المرصد الفلكي في عام 2005 لكن المشروع لم ينجح فعاد إلى إنكلترا حيث يعمل في المرصد الفلكي في جامعة لندن.

ويذكر أنه نال التكريم والتقدير من قبل منظمة الاتحاد الفلكي الدولي في واشنطن، بإطلاق اسمهِ على كويكب الأستروید، الذي يدور بين كوكبي المريخ والمشتري؛ وذلك تثميناً لإنجازاته العلمية في مجال علم الفلك.

خاتمـــــة

هذا الخلق الذي مازال ويبقى لغزاً غامضاً ومحيراً في كل أنواع الاستفهام: ماذا، ومتى، وكيف، وكم، ولماذا، ومن أين، وإلى أين.. قائم على التنوع والتخصص والتكامل أفقياً وعمودياً. هو قائم على الاختلاف، لأن التشابه مصدر الكم والكثرة وحسب، في حين أن الاختلاف مصدر النوع والتنوع.

والإنسان، وهو الكائن الأعقل، يسعى لتنظيم أمره في عيشه المحدود عمراً بما عَلِم و/ أو بما اعتقد فاتبع. وأشد المعتقد الدين، وهو حاجة النفس للسرور حينما تعرف، وللأمان حينما لا تعرف. يخاطب الروح ليحقق الأمان والاطمئنان، وتبقى المعرفة مفتوحة متقبلة للعلم لأنه نتاج العقل البشري المزوَّد من العقل الأعظم. هكذا تعددت الأديان لدى الشعوب وفي كل شعب، لأنها لم تتأسس للسيادة والتحكم فذلك شأن الدولة، وليس الدين دولة.

ومثالنا أن ديانة الصابئة المندائيين غير محددة في زمن الظهور وليس في مبادئها ولا في تاريخها مسعى للتحكم بأتباعها ولا في التعامل مع غيرها على هذا الأساس. ظلت باقية على مدى آلاف السنين في بلاد ما بين النهرين، حاوية التنوع الحضاري والثقافي والديني، على كل ما مرت به هذه البلاد من سمو وهبوط، وسلام وحروب. عاشت في الأهوار وكادت تغوص فيها، لكن مبادئ

السلام فيها كانت نجادات جعلتها تطفو في كل مرة. وإذ بقي هذا العدد منهم اليوم، فإن التراث الإنساني يجب أن يفخر بهم على ما حفظوا في كل جوانب الدراسة المعتقدية والطقسية والإنثروبولوجية والتراثية والسلوكية والمهنية. هم فخورون بكل الأوصاف التي تطلق عليهم" أبناء النور، أبناء الماء، غرين العراق، نخيل العراق، الأصلاء، الطائفة المسالمة، الطائفة الذهبية..".

وبعد أن إزداد الإعلام عنهم اليوم، أثار ذلك الفضول لمعرفة أكثر، وكأنه اكتشاف لمن ذكرهم القرآن وتم نسيانهم، وكأن يوحنا المعمدان يعمد المسيح اليوم ومن جديد حينما يشاهد طقس تعميدهم، وكأن التوحيد يعود من خلالهم إلى بلاد ما بين النهرين أولاً لأنهم السابقون فيه، وكأن الزمن في ممارساتهم الطقسية قد توقف عندهم، فترى ممارساتهم ونصوصهم والقصب وسعف النخيل وأدوات الطين التي كانت تستخدم منذ الآف السنين مازالت هي المستخدمة إلى اليوم، وكأنك ترى يدهم وهي تنقش كل حلية تزينت بها العراقيات وصاغت هدايا للملوك والسلاطين، وكأنك ترى السلام ينطق في سحناتهم عند التعامل معهم. وحين تسعى لمتابعة مفردة عصية معتمدة في العامية العراقية فعليك البحث في لغة الصابئة المندائيين لتجد جذرها واستخدامها الأول فلا تحتار في الـ (أكو) ولا في الـ (چا).

فشعب مثل الصابئة المندائيين بديانتهم وأنواع تراثهم، لا خانوا ولا جاروا، هو محط إعتبار وجدير بالإحترام والدراسة والتوثيق.

المراجع

القرآن الكريم

كنزا ربا: الكتاب المقدس للصابئة المندائيين.

كتاب يحيى "دراشا اد يهيا" مخطوطة مندائية.

ديوان أباثر مخطوطة مندائية.

ديوان ترسر وألف شيالا مخطوطة مندائية.

ديوان حران كويثا مخطوطة مندائية.

ديوان دموث اد كشطا مخطوطة مندائية.

ديوان قابين اد شيشلام ربا مخطوطة مندائية.

قلستا: التبريكات أدعية وقراءات طقوس عقد القران، مخطوطة مندائية.

ديوان لهدايا ربا زديقا مخطوطة مندائية.

ديوان مصبتا اد هيبل زيوا مخطوطة مندائية.

ديوان ملكوثا إليثا مخطوطة مندائية.

إنياني: الترانيم مخطوطة مندائية.

إبراهيم بن هليل بن زهرون الحراني الصابي، رسائل أبي إسحاق، مخطوطة في جامعة لايدن بهولندا.

ابن النديم، كتاب الفهرست، دار المعرفة، بيروت. 1997

ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، دار ابن حزم.

أبو إبراهيم المزني، مختصر المزني في فروع الشافعية، دار الكتب العلمية بيروت1998 .
أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي .سنن أبي داود، المكتبة العصرية، مصر.
أبو عمر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الجيل، بيروت 1992
الموسوعة الفقهية ج 26 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت الطبعة الأولى. 1992
الآلوسي تفسير روح المعاني شهاب الدين بن عبد الله الحسيني الآلوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994
البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، دار الكتب العلمية، بيروت.
جواد علي، المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، 2001
عزيز سباهي، أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية .دار المدى . بيروت 1998.
علي الحسيني الخامنئي، تحقيق في حكم الصابئة، مجلة التقريب، جمهورية إيران الإسلامية، 1997
قيس مغشغش السعدي، أتعلم المندائية، ألمانيا 2004
نهورا، قاموس مندائي عربي وبالعكس، ألمانيا 2012

معجم المفردات المندائية في العامية العراقية، دار الرافدين، بيروت 2019.
طقوس الصابئة المندائيين رموز ومعان، ألمانيا. 2015
أبو إسحاق الصابي: درر النثر وغرر الشعر .كردستان العراق 2011
محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل المجلد الأول والثاني، دار الكتب العلمية، 1992
ناجية مراني، مفاهيم مندائية صابئية. التايمس للطباعة والنشر. بغداد1981
نديم السيار، قدماء المصريين أول الموحدين. القاهرة 1995
ويكيبيديا، مفهوم الفتوى لدى السنة والشيعة.

E. S. Drower, The mandaeans of Iraq and Iran, Leiden 1962
Edmondo Lupieri The mandaeans, the last Gnostics.
William B. Eerdmans Publishing Company. Cambreidge, U.K 2002.
Mandaeans i. History, Ensyclopaedia Iranica.
www. Iranicaonline.org/articles/Mandaeans

https://www.youtube.com/watch?v=OfIroDLPXZg

https://www.youtube.com/watch?v=gZpFFM3MNKg

https://www.youtube.com/watch?v=0n1F2LT6b0k

المؤلف في سطور

ولد في العراق قضاء سوق الشيوخ/ محافظة ذي قار 1952

ماجستير علم النفس التربوي جامعة بغداد 1981

دبلوم عالي تقنيات تعليمية تورينو/ إيطاليا 1983

دكتوراه تكنولوجيا التعليم جامعة بغداد 1989 دراسات مندائية خاصة ما بعد الدكتوراه2001

أمين سر المجلس الروحاني الأعلى لطائفة الصابئة المندائيين 1981– 1996

أمين الرابطة المندائية لعموم ألمانيا 2003-

عضو مكتب سكرتارية إتحاد الجمعيات المندائية في المهجر 2009-2014

سفير السلام العالمي منذ 2008-

المؤلفات المنشورة

* الروح المعنوية بغداد 1981
* قراءتي 1 ، كتاب تعليمي للمبتدئين بتكليف من جمعية اللغات الأم الألمانية 2002
* قراءتي 2 ، كتاب تعليمي للمبتدئين بتكليف من جمعية اللغات الأم الألمانية 2003
* أتعلم المندائية، كتاب أساسي لتعليم اللغة المندائية مع قرص تعليمي 2004 وأعيدت طباعته 2012
* معجم المفردات المندائية في العامية العراقية. ألمانيا 2008، 2019
* أبو إسحق الصابي: درر النثر وغرر الشعر . كردستان العراق 2011
* ترجمة كنزا ربا الكتاب المقدس للصابئة المندائيين إلى الإنكليزية. ألمانيا 2012
* قاموس نهورا مندائي عربي وبالعكس. ألمانيا 2012
* قاموس نهورا مندائي إنكليزي وبالعكس. ألمانيا 2012
* كنزا ربا الكتاب المقدس للصابئة المندائيين تحقيق وتنقيح وإصدار. ألمانيا 2015
* طقوس الصابئة المندائيين رموز ومعان. ألمانيا 2015
* التقويم المندائي لوحات ونصوص. ألمانيا 2015

Love and Peace: Arabic Calligraphy Germany 2017*

* فهم دين الصابئة كتاب منهجي بالتعاون مع مؤسسة مسارات 2019

* الإنياني كتاب الصلوات والأدعية المندائية ترجمة عن المندائية 2020

* المندائي الصغير، كراس ملون للأطفال 2021

* كنزا ربا باللغة المندائية مشروع تدقيق وطباعة كتاب الصابئة المندائيين المبارك

تحت الطبع

* الإسلام والصابئة: وزارة الثقافة العراقية

* خزائن النور: نصوص من كتب الصابئة المندائيين

Mandaean Trusery, Selcted Mandaean Text

المحتويات

مقدمة..... 5
الفصل الأول..... 9
الصابئة المندائيون، التعريف والذكر..... 9
من هم الصابئة المندائيون؟..... 9
تسميتهم العربية والآرامية 10
الصابئون في القرآن الكريم 15
تشكل ديانة الصابئة المندائيين 19
نظرية الأصل الغربي 21
نظرية الأصل الشرقي..... 22
الصابئة المندائيون في التراث العربي الإسلامي 25
الصابئة المندائيون في دراسات المستشرقين 31
الصابئة المندائيون في الدراسات الحديثة..... 35
الفصل الثاني..... 39
المعتقد في ديانة الصابئة المندائية 39
أولاً: وجود الخالق..... 40
ثانيا: الضياء والنور 43
ثالثا: خلود النفس 45
اعتقادهم بالأنبياء والرسل..... 52
يحيى بن زكريا (ع) 55
بعض من أقوال وتعاليم يحيى بن زكريا (ع): 59
الكتب الدينية عند الصابئة المندائيين 60
الفصل الثالث 65
العبادة، طقوسها وشعائرها..... 65

أركان العبادة 66
أولا: الشهادة 66
ثانيا: الصباغة (التعميد) 67
ثالثا: الصلاة 68
رابعا: الصوم 73
خامسا: الصدقة 74
الطقوس والشعائر الدينية وإجراءاتها 76
متطلبات إجراء الطقوس الدينية 78
أولا- رجل الدين 79
ثانيا- الماء الجاري (يردنا) 82
ثالثا- بيت العبادة (بيت مندا) 84
رابعا- القِبلة 85
خامسا- الراية (درابشا) 87
سادسا- الاسم الديني (ملواشا) 88
سابعا- اللباس الديني (رستا) 89
ثامنا- إكليل الآس (كليلا) 93
التقويم والأعياد والمناسبات الدينية 94
الأعياد والمناسبات 97
مناسبات احتفالية 105
طعام الصابئة المندائيين ومأكولاتهم 107
الأضاحي والنذور 110
عملية الذبح وتحضيراتها 111
الفصل الرابع 117
طقوس الولادة والزواج والوفاة 117
أولاً: الولادة 117

ثانيا: الزواج 120
ثالثا: الوفاة..... 131
الآخرة والمعاد..... 137
الفصل الخامس..... 143
اللغة المندائية وأبجديتها ومفرداتها في العامية العراقية 143
ظهور اللغة المندائية ومصادرها..... 145
التحدث باللغة المندائية 151
الأبجدية المندائية: حروفها، أصواتها، وطريقة رسمها 152
اللغة المندائية اليوم..... 154
اللغة المندائية والعامية العراقية..... 157
جماليات الخط المندائي 159
الفصل السادس 161
القيم الأخلاقية والتربوية في الديانة المندائية..... 161
المحرمات والنواهي..... 162
توصيات أخلاقية وتربوية 164
الفصل السابع 177
الواقع الراهن للصابئة المندائيين..... 177
تعدادهم 177
الشكل التنظيمي 178
المستوى التعليمي والثقافي 180
المعرفة الدينية والطقسية 181
دور العبادة (المنادي) الموجودة اليوم 185
ممارسة الطقوس في الوطن الأم..... 186
ممارسة الطقوس في بلدان المهجر..... 188
الصعوبات والتحديات والإصرار 191

الصابئة المندائيون والمجتمع المحيط 194
حقوق الأقلية الدينية 199
بعض جوانب معاناة الصابئة المندائية 203
طبيعة حياتهم والمعايشة العامة 207
إسهاماتهم العلمية والأدبية 210
طبيعة المندائيين وخصائصهم وكفاءاتهم 215
خصائصهم في الشكل والهندام 216
ملابس الصابئة المندائيين 221
موروث الصابئة المندائيين في الطعام وآدابه وعاداته 223
طرائق إعداد الطعام 226
مهن الصابئة المندائيين 231
حرفيون وفنانون وأدباء 237
عباس عمارة 242
الوظائف الحكومية 253
خاتمـــة 293
المراجع 297
المؤلف في سطور 301